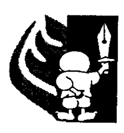
حيـث تكمـن الألــوان

رواية

محمد قسم البارى

حيـث تكمـن الألـــوان



سنابل للكتاب

٥ شارع صبرى أبو علم

باب اللوق - القاهرة

الإدارة :

(+202) 23 92 65 93

المكتبة :

(+202) 23 93 56 56

e-mail

sanabooks@maktoob.com

web:

www.sanabil.net

حيث تكمن الألوان

رواية

المؤلف:

محمد قسم البارى

الطبعة الأولى: 2008

رقم الإيداع:

2008/9127

الترقيم الدولى:

977-5130-40-9

لوحة الغلاف:

إليسون مشالكو (بنسلفانيا USA)

التدقيق:

الحسينى عمران

إهداء

إلى أبي قسم الباري مصطفى،
لأني حَضَرتُ إلى هذه الحياة،
وعِشتُ أيامها دونما أصدقاء،
حتى قَابَلتُكَ أول مرة!

قتلت أخى ليلة البارحة، ولم يكن ذلك مجرد كابوس؛ لأننى لم أنم حتى الفجر، فقد دفنته بينما الصباح يرسل أشعته الأولي، وضعت رفاته فى قبر عادى ثم أهلت عليه التراب.

وليس ذلك ما يهم فى الأمر جدا، إن ما يهم حقا أننى لا أحس بأى نوع من الندم. رغم أن مشاعرى نحوه لم تشوبها شائبة من الزيف، ولو كان من إنسان أحببته حقا، ودونما شروط فى هذه الحياة الفانية، فذاك ياسر بلا شك .

عدت من دفنه وحيدا، ينقبض قلبى كأننى أمشى بين هاويتين. ترانى أنا الذى لا أبكى أجفف دموعى وأركب الطائرة. فى ذهنى فيضان ذكريات ورحلة طويلة. ما بين أخى وبينى تاريخ حافل، والتاريخ لا ينشأ بين ليلة وضحاها، إنه كحبل وطيد يربط الناس بعشق الأمكنة، ومحبة بعضهم لبعض.

كل من يعرفنى إذن لا يعرفنى حقا. أنا فارغ ومظلم من الداخل، وفى ظلمتى تكمن كل الألوان. إننى فنان فى نظرهم؛ لأنهم ينظرون إلى لوحاتى ولا يسألون عن منبعها، ولو بحثوا لوجدونى نهرا دون منبع.

قفزت صورة كاثرين من مؤخرة عقلى فجأة قبل أن يشهق شهقته الأخيرة. تخيلتها فى أحضان رجل آخر، وفى أوضاع أخرى أكثر فحشاً، عندها بكيت فعلا وخرجت من الغرفة الشبيهة بعنابر المستشفيات إلى الفناء، ورأيت سلمى صديقة ياسر قد تتبعتنى طوال الطريق إلى هناك، قبلت شفتي، ثم صفعتنى وبكت.

وبقيت فى الطائرة لعشرين ساعة. هبطنا عند مدينة ما، رأيتها تتضاءل عبر نافذة الطائرة المستديرة. نام الركاب الآخرون واستيقظوا، طعموا وشربوا وتسامروا، بينما لم أفعل شيئا سوى إفراغ الخمر فى أحشائي. وحين نزلت فى المطار كنت مخمورا للغاية واستأجرت سيارة.

نظرت إلى ساعتي، ثم إلى ساعة المطار، كانت سبع ساعات قد عادت إلى الوراء مجددا واندفنت فى العدم، وفكرت: هل يمكن أن أعود يوما كاملا إلى الوراء، وأغير مسار الأحداث؟

وجدت فيلادلفيا كما تركتها قبل يومين. كأن ياسر لم يمت، كأننى لم أبكِ وأشعر بالدونية وألم الخيانه والندم. لابد للحياة أن تستمر، ولابد لتجهيزات الكريسماس أن تتم فى الموعد المحدد. كل شيء يجرى على قدم وساق. منذ يومين لم أنم وأحسست بدوار شديد. كانت الشوراع غارقة فى الضياء. الأنوار الملونة فى الأزقة والمنازل وعلى الأشجار. للكريسماس ألف لون هنا. تنبعث أغانى العيد من الحانات والمحلات، وتنساب عبر المذياع من إذاعة الأغانى القديمة. الثلوج بيضاء ككفن ياسر، والمحلات تمتلئ بالمشترين. هكذا يكون التفاؤل، هكذا هى الحياة. الموت نفسه سر من أسرار استمرارها. فلا يرث المرء أباه إلا حين يموت. والمجتمعات الفاضلة لم

تنشأ سوى على جثث من قالوا لا. وقد أكون قاتلا بكل قوانين العالم، لكنه ياسر من منحنى عفوه قبل أن أقتله بزمن طويل، وخلافا له كنت أعرف النهاية منذ البداية بناء على كل المعطيات التى شكلتها.

و الآن هأنذا أشعر بدوار عنيف، لكننى أهيم فى المدينة عبر سبروس ستريت من نهر ديلاوير إلى نهر سكووكال، وأطوف الجهات الأربعة على غير هدي. أرى الأطفال حول سانتا كلوز، والمشترين يتسابقون فى محلات الساوث ستريت لاقتناص هدايا اللحظة الأخيرة. أرى أسقف القرميد العتيقة وأشجار الصنوبر المبتورة المبهرجة، وأمرّ على بنايات شاهقة وأخرى أثرية.

هنا وقعنا اتفاقية الاستقلال. ومن هنا نغرق العالم بخمسة وثلاثين مليون عملة معدنية يوميا. هنا يرقد بنجامين فرانكلين، وجرس الحرية ينام هناك.

ودلفت نحو شارع نورث بروود حيث يقبع منزلي، لكننى لم أتوقف، فخلف بابه تقبع الذكريات القديمة. كنت أشعر بدوار شديد ، وفضلت أن أتجنب مواجهة الماضي، فواصلت الطواف دون هدي. هذه المدينة الآن يحكمها قانون جمالى غير مفسر. (كامرأة ترتدى حلة فرو شتوية فوق ملابس ممزقة). من قلب المدينة السعيدة وجدت نفسى فجأة فى حى فقير تملأه جداريات أناس ميتين وأحلام موؤدة. ورأيت فى الشارع طفلة تشعل شمعة أمام جدارية لشاب أسود قتل فى إطلاق نار. وفكرت: كيف يبنى المرء حياته ثم ينهار كل شىء فى لحظة، ولا يتبقى منه سوى بعض الصور، والذكريات المشوشة فى أذهان الناس العاديين!

وحدهم الحكماء يتذكرون شكل الإنسان الحقيقى بعد غيابه، ويحتفظون بملامحه فى أذهانهم كما هى دون تشويه، لكننى لست واحدا من أولئك الحكماء. أنا إنسان عادي، و كل ما أحمله فى ذاكرتى هو صورة مشوشة لشىء يشبه ياسر.

أغلقت عينى لأرتب شكله فى ذهنى من جديد، فقادتنى مخيلتى إلى كاثرين. جميلة للغاية!. تلك الابتسامة، وكل ذلك التوهج، كيف أنساه ما حييت؟

تركتها وفتحت عينىَّ فى شارع أنيق تعرشه فروع السنديان كأنه نفق فى آخره ضوء باهر. هكذا كل نفق نحفره فى الظلام لابد للضوء أن يقبع فى آخره. وازداد دوار رأسى وكدت أن أفقد وعيى فجأة، ثم استقويت وضغطت دواسة الوقود؛ لأنطلق إلى منبع الضوء. من خلفى أفكار صارخة وفى رأسى أصوات متقطعة وعجيبة. أخذت الأفكار تخفت فألقيها ورائي، والأصوات تعلو وتتقطع ثم تتواصل وتكتسى بالحدة، فأضغط دواسة الوقود بآخر ما لدى من طاقة وأنطلق عبر نفق السنديان، ولا يعود فى عالمى من شيء يهم سوى ضوء باهر عند آخر نقطة فى رحلة الحياة. وفى لحظة سمعت صوت ارتطام عنيف، وفى اللحظة الأخرى انطفأ كل شىء بغتة.

- ١ -

خرجت إلى المستشفى فى ذلك المساء. لم أكن مريضا ولم أعانى من أية علة، كما لم أذهب لزيارة مريض، لكنها خطوة مصيرية قررت أن أتخذها قبل صباح الغد؛ لأننى إن تأخرت عنها قد أفقد كيشيا إلى الأبد، ولست أريد ذلك؛ لأن كيشيا ملاك على الأرض، ولأنى أكثر من يعرف ذلك. ثلاث سنوات وأنا أغترف من محبتها لى كأنها شىء حتمى ولا أمنحها الكثير فى المقابل. تحزننى الحياة فأعبس، أغضب منها فأصرخ فى وجهها ثم أعتذر فتسامحني.

هى أشبه بنقطة هادئة وسط عالمى الفوضوي. تعمل كممرضة بدوام كامل وتعود فى المساء إلى شقتها الصغيرة، وتعرف كيف تستنبط الجمال من أبسط الأشياء من حولها. فى غرفتها قنديل خافت ينعكس ضوءه على الحيطان الوردية، وتمر السيارات فى الشارع فترسم على الستائر خطوطا من النور العابر.

كثيرا ما التجأت إلى أحضانها فى الليالى الموحشة، فأضحى العالم فى مساءات كتلك قطعة من الجنة. نمت عندها أو نامت عندي، وفى الصباح استحممنا معا وجففنا أنفسنا بمنشفة واحدة، ثم فرشنا أسناننا بنفس الفرشاة كروحين لا تتنافران.

كانت بجانبى فى أوقات حياتى السعيدة، كمساءات ارتدت فيها النوادى الليلية معها وراقصتها طوال الليل، أو جالستها فى حانة خافتة الأضواء، وراقبتها تتحدث وترسم ما تقوله بأيديها فى الهواء، تماما كما كانت بجانبى فى أحلك أوقات حياتى أيام فقدت عملى وانهار العالم تحت أقدامي، أغدقت على الحنان حتى تجاوزت المحنة.

فكرت فى كيشيا ففكرت فى نفسى أيضا. وأدركت بشكل صارخ أنى لا أعدو بضع ورود حمراء جلبتها إليها بين الحين والآخر. وأن فى دواخلى حبا غير مشروط نحوها ظل يختبئ خلف خجل غير مبرر.

و قبل عدة أيام، فى ليلة الكريسماس القريبة، تجرأت وأظهرت اهتماما بها. دعوتها إلى منزلى وطهوت العشاء بنفسي، زينت شجرة عيد الميلاد بمختلف الألوان، واشتريت لها هدية قيمة. لم تعجبها!

سألتها وأجابت : كل شيء على ما يرام.. ثم ما لبثت أن ابتسمت وتناسينا الأمر.

لكننى بعد أن أوصلتها إلى منزلها واختليت إلى غرفتى قفزت الفكرة إلى ذهنى فجأة. كانت كيشيا تتوقع خاتم زفاف فى ليلة لا تشبه الأخريات كتلك.

أخذ يراودنى هذا الخاطر طوال الليل ويملأ نفسى بيقين لم أعهده من قبل. شيء ما فى ذات الفكرة قد أسكت صوتاً لطالما حثنى على التراجع فى شتى أمور حياتي. ونظرت إلى نفسى فى آخر الليلة فإذا بى قد حزمت أمرى وملكت قرارى بشكل أدهشنى تماماً. أخذت عهداً أن يكون أول شيء أفعله فى الصباح هو أن أشترى خاتم الزفاف.

انتقيت خاتما من الذهب الأبيض، توج الصائغ استدارته بماسة صغيرة، ونقش فى إطاره الداخلى حروف أسمائنا الأولي. استلمته منه فى المساء، وسعيت إلى منزلها فى كامل هندامى أحمل فى جيبى صندوق القطيفة الحمراء الذى أرحت الخاتم فى قلبه.

وقفت أطرق الباب ولا يجاوبنى أحد. شريط كامل من الأحداث عبر ذهنى ليوصلنى إلى هذا المكان والزمان. أحداث ليست كلها سعيدة، لكنها تكمل بعضها البعض لأخلص إلى نتيجة كبيرة واحدة، بأن قراري، وإن لم يغير كل وجه من أوجه حياتي، فهو سيضع مستقبلى إجمالا فى المسار الصحيح دون شك.

طرقت الباب كثيرا وقد غاب عن ذهنى ما قالته كيشيا عن عمل إضافى ستؤديه أثناء الإجازة، ولما تذكرته أيقنت أن وقوفى على عتبة بابها غير مجد، لذا هرعت إلى المستشفى حيث تعمل، سألت موظفة الاستقبال عنها وأجابت فى ضجر: لا أعرف.

جبت المكان بحثا عنها حتى صادفت صديقتها التى كانت تعرفني، هنأتنى بالكريسماس وأجلستنى معها فى مقهى المستشفي؛ حيث الأرضية تعكس صور الأشياء، وكل شيء يحفز حواس الإنسان. رائحة القهوة الطاغية، والإضاءه البيضاء التى تنعكس على البلاط الناصع، والمسافات الحذرة بين الطاولات والمقاعد.

تلفت من حولى بشكل تلقائي، أترقب قدوم كيشيا على وجه المصادفة، لكنى ألفيت المكان هادئا وساكنا. ليس ذلك الهدوء المريح للأعصاب، لكنه الهدوء المشوب بالقلق كإحساس المرء فى البيوت المهجورة. الجميع فى إجازة، والمقهى خال سوى من جماعة صغيرة حوت بضعة أطباء وممرضات فى زى العمل الرسمي، جلسوا عند ناصية المقهى هناك.

تذكرت بإحساس البيوت المهجورة ذاته كيشيا وهى تجلس عند الناصية فى ثوب العمل، ترتشف معى كوبا من القهوة أثناء استراحتها القصيرة. وتركزت أفكارى على يوم بعينه، ضحكت فيه بانشراح شديد وأثارت ضجة فى المكان.

فجأة انتبهت على أثر إحساس فطرى بالخطر إلى صديقتها، وانجرف كل تركيزى فجأة إلى حركتها المتوتره. رأيتها تميل نحوى فى حذر من يتصارع مع مخاوفه، وتستجمع رباطة جأشها قبل أن تقول فى لهجة حاولت أن تبرز فيها حيادها التام: أعلم أن الأمر سيكون صعبا عليك، وأنا لا أريد أن أكون جزءا منه، لكننى أنفذ وصيتها لا أقل ولا أكثر.

وعلى الفور أخرجت من جيبها الواسع مظروفا أبيض، ناولتنى إياه وانضمت لزملائها عند ناصية المقهى تاركة إياى وحيدا لأفضه وأقرأه ...

" ربما جمعنا الحب فى فترة ما، لكن هناك ألف وجه من الاختلاف بيننا. لا أدرى كيف أضع الأمر بشكل لطيف، لكننى قد خرجت من حياتك تماما. لقد كنت خائفة طوال عام كامل من مواجهتك بالحقيقة. إن هناك رجل آخر فى حياتي، وإننى كنت أخرج معه طوال عام. لا تسع خلفي، فلا شيء يربطنا بعد الآن. كيشيا."

جلست فى مكانى لا أعى ما حدث للتو، تتنازعنى مشاعر كثيرة، ليست بالحزن الخالص ولا الصدمة الكاملة، بل مزيج كريه من كل تلك المشاعر الإنسانية.

ثم أتت أفكار أخرى وأسعفتنى قليلا، إذ ترابطت فى ذهنى كخيوط العنكبوت وطفت فوق كل تلك المشاعر. سمعت أعذارا واهية، كانت كيشيا تتفوه بها كلما اعتذرت عن موعد حددناه سلفا، بل ورأيت مواقف بأكملها كانت تستمتع فيها بحبك الأكاذيب، وكنت ساذجا لدرجة أن أصدقها.

شربت كوب الماء لأبتلع غصة. ومن وراء نظارتى طفت بنظرى على المكان مجددا. قبل لحظة كان مألوفا يحفز الحواس، والآن كل ما أفكر فيه أننى قد خدعت. بدا كأن الجماعة عند ناصية المقهى قد علمت بما حدث لي، إذ تركوا كل ما فى الكون وركزوا أنظارهم علي، كأن جلوسى هناك هو جزء من مسرحية هزلية قصيرة، لاشك كانوا فى انتظار أن أبكى حتى يضحى الموقف مضحكا بالنسبة لهم.

غادرت المكان مسرعا، وصفقت الباب من خلفى لأجد نفسى فى بداية الرواق الطويل. كان مظلما كعادته فى مثل ذلك الوقت، عن يمينى ويسارى أبواب كثيرة تناثرت فى انتظام لتأخذنى إلى باب كبير يقبع فى آخره، ربما أفتحه فأصحو من هذا الكابوس ...

مددت يدى نحو المقبض المعدني، لكن صديقة كيشيا جاءت تركض واحتضنتنى إليها. قالت وهى تربت على ظهري: كل شيء سيكون بخير، أنا أتفهم ما تعانيه. ثم أخذتنى معها لنجلس على درجات السلم.

نفثت دخان سجائرى بعيدا عن وجهها، والتزمت الصمت فترة متظاهرا بالتماسك. ثم تبدد ذلك التماسك فجأة ووجدت نفسى قد تحدثت عن الأمر كثيرا، حتى أخذت الفتاة إلى النقطة التى سئمت فيها من شكواى تماما.

عندها أعطيتها الفرصة لتتحدث عن أى شيء آخر. سألتنى وهى تعرف الإجابة مسبقا: أنت سودانى أليس كذلك؟

– يمكنك قول ذلك.
– جيد، لدينا نزيل من أصل سودانى مثلك، جيء به قبل يوم من الكريسماس، أصيب فى حادث سيارة، إن حالتة سيئة للغاية، وربما تسعده رؤيتك بما أنك من جنسه.
– لكننى لا أتحدث السودانية، ثم إن حالتى لا تسمح الآن.

وهممت بالانصراف، لكنها أردفت بنبرة مختلفة: لقد اتصلنا بزوجته ورفضت الحضور لرؤيته.

كنت قد حزمت أمرى على الذهاب، لكن شيئا ما فى جملتها الأخيرة، جعلنى أوافق على رؤيته ...

- بضع دقائق فقط وأعود إلى منزلي.أجبتها قائلاً، وارتسمت فى ذهنى قنينة الخمر بجانب سريرى ومنفضة السجائر عن يميني، ثم نفض صوت الفتاة الصورة عن مخيلتى ونحن نقف أمام غرفة فى الرواق، قالت وهى تطرق الباب: اسمه يعقوب، يعقوب عثمان.

❖❖❖❖❖❖❖

لم أعرف يعقوب جيداً قبل قدومه إلى ذلك المكان، فقد قابلته مرة واحدة فى حياتي، لكنه علق فى ذاكرتى إلى الأبد.

حدث ذلك منذ أشهر قليلة لم أحصِ عددها.

كنت فى تلك الليلة قد جلست فى موقع ممتاز للغاية. يتوسط القاعة المكتظة بجمهور الجالية السودانية، ويطل بشكل مباشر على المسرح. والآن أتذكر بوضوح أن المذيع قد قدمه إلى الحضور بألقاب كبيرة كالفنان والمناضل والمبدع والسجين الجسور، فتوقعت من ذلك التقديم رجلا فى عقده الخامس، لكن من اعتلى الخشبة كان أبعد ما يكون عن ذلك.

مجرد شاب صغير السن، يكبرنى فى الغالب بسنوات قليلة. بين ملامحه غير المكترثة وهيئته التى اكترث فيها بكل التفاصيل تناقض غريب آخر.

شاب أنيق الملبس، خفيف الشارب واللحية. يرتدى بذلة سوداء فوق قميص من درجة لونية أقل، ورابطة عنق ذات ألوان منتقاة أكسبته بضعة أعوام حتى أرسته على حافة الخامسة والعشرين.

عبر المسرح فى خطى متزنة حتى تبوأ مكانه خلف المنبر، وهناك باعد بين يديه المبسوطتين أمامه فلاحظت أن أكتافه عريضة، وأن عينيه واسعتان كعيون الأحصنة، لكنهما مثبتتان على نقطة واحدة، تفيضان بالمشاعر وربما بشيء من الإحباط والقلق.

شمخ بأنفه قليلا بشكل أبرز طول رقبته، ثم استهل كلمته بصوت واثق لكنه هادئ وجذاب. صوت أجبرنى على الاستماع إليه؛ لأنه فى مثل تلك الليلة الطويلة ماثل فى ذهنى صوت الأحجار حين تسقط فى قلب البركة الراكدة.

امتعض الناس من تهجمه عليهم، لكنه تجاهل الأمر تماما وتابع الحديث بنفس الهدوء ونفس النظرة الجامدة، وتلك لعمرى ثقة لا يملكها إلا من عاش لدقائق فى عالم لم يداخله من عالمنا نحن سوى النقطة التى لم تبارحها أنظاره، وكنت أنا — بحكم موقعى - قادرا على أن أتتبع مسار نظرته الجامدة. وحين أدرت رأسى إلى الوراء أدركت أنه ينظر إلى فتاة بعينها.

وفى الخارج سمعته يناديها "كاثرين"، كانت تمر على الرصيف على مقربة منا، وكنت بالأخص مهتما بمعرفة يعقوب فلم أخض حديثا معها. وحين فارقته سمعت أصواتهما قد علت فى آخر الشارع، وبدا أن شيئا ما على غير ما يرام.

مضيت فى حال سبيلى ولم ألاقيه منذ ذلك الحين إلا اليوم. واليوم وجدت إنسانا آخر، مستسلماً وخاملاً كأن روحه انكسرت بانكسار جسده وقد اختفى السحر الذى أحاط به...

لو أننى فكرت قليلا حين دخلت حجرة المستشفى عليه -- إنصافا للحق لا غير - لوجدت أن بقائى معه فى تلك الليلة لفترة أطول مما أردت لم يمنحنى بأى حال صفة القديس أو المحب لفعل الخير، ولأدركت أن التناقض واليأس الذى لمسته فيه هو ما جعلنى أحبذ البقاء بجانبه لفترة أطول.

قالت لى كيشيا ذات مرة: إن مصائب الغير تجعل من مصائب الإنسان هينة. فربما انعقدت مقارنة سريعة فى ذهنى بين يعقوب الذى قابلته يومها، وبينه الآن وقد تحول إلى حطام إنسان مسجون فى جبائر من الجبس. ومثلما أدركت بذهنى فداحة الموقف، أدركت أيضا وبشكل غير مباشر بأننى فى حاجة ماسة إلى شخص مثله لأتعافى من آلامى الخاصة.

وقفت فى صدر الغرفة وسرير يعقوب فى مقابلتى والرجل فيه نصف مستيقظ، عيناه مفتوحتان لكنهما لا تنظران إلى شيء بعينه وشفتاه مطبقتان عدا عن انفراجة ضئيلة عند ناصيه فمه تشبه الابتسامة، بينما أسلاك كثيرة تخرج من جسده أو تعود إليه كأنما الأجهزة أضحت جزءا من كيانه.

رأيت فى شاشة بجانبه أن قلبه ينبض، ولاحظت أن بطنه تعلو وتهبط فهو يتنفس، ثم نظرت فى الغرفة إلى أشياء أخرى ليست ذات أهمية لكنها هناك لتمنح المكان طابع الاحتراف. كانت على المنضدة فازة أزهار فارغة، وعلى بعد خطوات نحو اليمين منها مقعد وثير ونافذة تحمل آثار رطوبة من الخارج فتبدو أشبه بالمرآة.

قلت دون أن أتوقع ردا: مساء الخير ...

و حين استجاب فى صوت واهن وددت لو أواصل خيط الحديث معه لأعزيه قليلا لكن عقلى لم يطاوعني، فكل شيء حضر إلى ذهنى بدا بعيدا عن مفردات المواساة والتعزية. لماذا الآن؟ وطوال عمرى تحدثت ولكننى الآن أحس بأن الصمت أكثر إنسانية فى مثل تلك المواقف المثقلة.

تابعنى يعقوب برقبته وأنا أعبر الغرفة فى بطء نحو المقعد الوثير حتى اندفن خده الأيسر فى الوسادة. وهناك جلست بعقل فارغ من الأفكار لا أعلم ما ستكون عليه خطوتى التالية.

فقط تسمرت هناك وهو ينظر نحوى ولا يراني، كأن فى عينيه غشاوة، أو كأن سكونى على الكرسى وصمتى قد جرحا مشاعره بشكل أعجزه عن النظر إلي، ثم انتبهت أن أنظاره معلقة بالنافذة

التى خلفى لا بشخصي. وكان الثلج يتساقط فى حبات ويتشبث بنافذة الغرفة، ثم يضرب نازلا تاركا من خلفه آثارا على صقيعها، حتى لتبزغ عبر تلك الخطوط الصغيرة بعض تفاصيل الخارج.

بانت فى عينى الشاب حسرة كتلك التى كانت تتبدى فى عينى أمي، وحاذر أن ينظر نحوى فأفرض سعادتى عليه؛ لأن الوقت يتباطأ فى قلوب المرضى حين يرون الأصحاء فى سعى دنيوى حثيث خلف أشياء فقدت قيمتها لديهم، ولا يمنحهم إيقاع الأصحاء ذلك الأمل فى العودة بقدر ما يثير لديهم إحساس التأخر عن الركب. لازمت أمى وهى تحتضر شهرين كاملين وكنت على وعى تام بذلك. ومع ذلك تحاشتنى أنظار الشاب ولم يعلم بأن قلبى محطم وحالى فى ميزان السعادة من حاله.

سألته أخيرا وقد استجمعت فكرة: هل تذكرتني؟

فابتسم ابتسامة ذات مغزى ولم يجب.

قلت له لأدحض الشكوك: ربما نسيتنى تماما، ولا ألومك على ذلك فقد تقابلنا مرة واحدة، ولست أدرى حقا إن كان حديثى إليك سيجدى نفعا أم لا، لكننى سأتحدث إليك على أى حال وفىَّ أمل أن يخفف حديثى من وحدتك أيضا.

عندها نادانى باسمى الأول ولم يضف شيئاً، كأنه يأذن لى بمواصلة الحديث.

ملأت لحظة ثقيلة من الصمت المكان. وكان فى قلبى ندبة غصة لم تلتئم فأزعجنى الصمت على نحو ما. وبناء على حالته أصبحت مواصلة الحديث حكرا علي. قلت له: لو أننى كنت إنسانا آخر، لم أكن سأتذكر نفسى بالتأكيد؛ لأن لا شيء يميزنى بشيء.

جاوبنى صمته فلم أشاور نفسى مرتين وأكملت كمن يجاوب على سؤال عفوي: ولدت فى السودان قبل واحد وعشرين عاماً، وانتقلت أسرتى إلى هنا قبل أن أنطق أولى كلماتى لهذا لا أتحدث لغة أبى وأمي، ولن أستخدمها اليوم معك.. أما عن كل شيء آخر فى حياتي، فهو مصادفة لا أكثر. واليوم أنا فى حاجة لأن أتحدث قليلا كى لا أنفجر ...

ظل يحدق فى وجهى، ولم يكن فى حالة تسمح بالرفض. بدا شبيها بأمى فى غيبوبتها الأخيرة، أيام جلست بجوارها ممسكا بيدها وبكيت وأنا أحكى لها قصة أطفال روتها لى أيام الطفولة، شيء فى داخلى دفعنى لأن أحادثها وأسليها فى أيامها الأخيرة حتى ولو لم تسمعني. كان لا يزال يحدق فينى بعيون شاخصة تنتظر أمرا، فأضفت:

شيء مهم عنى إن لم يكن الأهم أن الحياة لم تتح لى من خيراتها الكثير، أو أننى قد استنزفت فرصي. عملت كساق، وموظف بدالة، وعامل تنظيف، وسائق سيارة أجرة، وظننت أننى قد وقعت فى الحب عدة مرات لكننى كنت واهماً. كيف يعرف الحب من لم يخرج من إطار مدينتين؟ نيويورك حيث نشأت وفيلادلفيا التى جبتها بسيارة الأجرة شارعا فشارع حتى حفظتها كباطن كفي.

تنهدت فى عمق وأضفت بصوت مسموع محدثا نفسى هذه المره: إذن ليست من أحداث مهمة تروي، ولا إنجازات يقدرها الناس ويحيطونى لأجلها بهالة كالتى أحاطوك بها فى اجتماع الجالية السودانية... ببساطة شديدة، قضيت رحلتى الدراسية فى ثلاث مدارس وجامعة، بكى أبى من الفرح يوم تخرجت منها بشهادة. لا

شيء يثير المخيلة. وحقا أستغرب كون وجهك لا يوحى بالضجر من حديثى وأنك لم تغلق أذنيك بعد ..

فربما قضيت مراهقة أعنف من أندادى هذه حقيقة. سجنت مرتين وأديت بأمر القاضى ساعات من الخدمة الاجتماعية أجمع القمامة من الشارع، ثم بحثت طوال حياتى عن شيء لا أدرى كنهه. قهقهت بعد جملتى الأخيرة كأننى أروى نكته، ثم تناقضت نبرتى تماما فى الجملة التالية واكتست بلمحة من الحزن وأنا أقول: ذلك كل شيء، وقد تظن أن فى آحزانى رفاهية. لكن صدقنى تمنيت شيئا كالذى أصابك أن يصيبني، شيء يقلب موازين حياتى ويجعل منى إنسانا مهماً. أى شيء!

لعلك الآن تستغرب أو تبحث عن تفسير منطقى لمثل حديثى هذا، لكن اطمئن. لست أعترف لك بدافع الندم. فأنا رجل كان يستعذب أخطاءه - وأرجو ألا تعجب من هذا الوصف - فكأن من كاميرا تتبعنى حيثما أذهب لتسجل لحظات عنفواني؛ وذاك لأنى ابن التلفاز وابن القصص الفارغة المضمون، ولأنى لا أعدو أن أكون خريج جامعة لم يتعلم منها شيء.

لن تفهم قصدى بالتأكيد، وذلك لأنك فى نظر الناس كامل للغاية. كيف يفهم الكمال النقص؟ ويوم عبرت المسرح فى ذلك اليوم كنت فى نظرى أشبه بآلهة الإغريق.

هاجمت الجميع فانقلبت فى نظرى إلى مثل يحتذي. ورغم أننى فى حيرة مما تغير فيك يا رجل، لكننى أعلم وبشكل قاطع أن الكاملين من أمثالك لا ينكسرون تماما فى مثل هذه الأوقات العصيبة، كما أعلم أنك ستقف على قدميك وتجتاز المحنة وقد

تمسحها عن سترتك كحبة غبار سخيفة. لا شك أن ذلك ما سيحدث؛ لأنك كنت بطلى ذات ليلة، ولأننى أريدك أن تعود.

أشاح يعقوب بنظره عنى وكان قد ركزه على وعلى فيض حديثى فأحسست بشيء من الندم. ربما قسوت عليه لكن ما حدث قد حدث، وانتهت المحادثة بأن دفن عينيه فى سقف الغرفة دون أن ينبس بكلمة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وجدت نفسى وقد استيقظت فى مكانى على أثر شمس أشرقت فى حياء عبر سحب الصباح، لأشهد لا معجزة واحدة بل معجزتين.

ألفيت جهاز النبض ساكناً تماما، وقد نزعت الأسلاك عن جسد الشاب الذى اعتدل فى رقدته فأراح الوسادة تحت ظهره حتى صارت رقدته أشبه بالجلوس.

و قبل أن أستوعب الأمر تماما حدثت معجزة أخري، معجزة ما كانت لتحدث فى البارحة القريبة مما زاد من أثرها فى نفسي؛ إذ تحدث الشاب فى صوت فيه تعالٍ على حالته وسألنى أنا السليم المعافى إن كنت قد نمت جيدا!

لم أجد ما أعبر به، سوى أن أهز رأسى بالإيجاب، وأسأله بلطف عن نفسه دون أن أفصح عن دهشتي.

قال: لا. لم أنم طوال الليل.

- لابد أنك متعب إذن! قلت متعجبا، ثم تداركت لأذكره بالجانب المشرق من الأمر: على الأقل لم يؤثر ذلك عليك كثيرا، أرى أنهم قد نزعوا الأجهزة عنك أخيرا وهذا شيء حسن.

- حقيقة الأمر أننى نزعتها بنفسي، وهم لم يفعلوا شيئا سوى إزعاجى بالاطمئنان على طوال الليل. قال ذلك فى برودة حقيقة علمية.

غسلت وجهى فى الحمام المرفق بالغرفة، وخرجت من عنده فورا لينال قسطا من الراحة. لكننى عدت فى الظهيرة بباقة من الأزهار. ورغم أن باقتى لم تكن غالية الثمن ولا حوت أزهارا كثيرة كباقات عيد الحب، فإنك لو رأيت مدى حماستى عند بائع الأزهار لقلت إن الشجاعة التى أبداها الشاب فى الصباح معدية.

وجدته نائماً فلم أوقظه. لكنه استيقظ على صوت حذائى على أرضية الغرفة.

ناولته الأزهار، ثم ملأت الفازة الفارغة بالماء ومددتها نحوه فغرس سيقان الأزهار فيها. وحين بوأتها سطح المنضدة بجانبه أحسست بالفرق فورا.

تذكرت فازة الأزهار حين حضرت أول مرة، وكيف كانت مجرد أيقونة وجدت على المنضدة لتؤكد على طابع الاحتراف فى التجهيز لا غير. وتداخل ذلك بصورتها الآن وهى تنبض بالحياة وتحمل فى طياتها معنى ما. ورغم أن الأزهار هى ما أكسب الفازة هذه الصفات، فإن عينىَّ لم تخطآ الزخرفة الجميلة على سطحها وانثناء قمتها المتقن كأعناق البجع هذه المرة. وخطر لى خاطر غريب بأن وجودى فى ذلك المكان يشبه وجود فازة الأزهار على نحو ما. فالبارحة كنت مثلها لا يختلف وجودى عن عدمه فى شيء. ثم أكسبتنى معجزات الصباح ما جعلنى أرى نفسى بوضوح أكثر، وما جعلنى أحس بأننى مهم وقادر.

يعقوب أيضا أحس بذلك بطريقته الخاصة. قال لي: لن تصدق كيف أن حديثك قد أنقذنى من نفسى ليلة البارحة، لقد أشعلت فينى جذوة الإصرار. لا أصدق كم كنت غبيا، لقد كنت أسعى نحو أن تتغير حالتى بدلا من أن أسعى إلى تغيير مصيرى بنفسي.

اختلف بعدها منظورى إلى الموقف بأكمله. فإن كان ما قلته ليلة البارحة هو السبب المباشر وراء حدوث المعجزتين، فإن وجودى فى حياته كان له أثر إيجابى شبيه بأثر وجوده فى حياتي. والأدهى أن روحه انتعشت بى كما انتعشت روحى به، وذلك يجعلنا متساويين فى ميزان الجميل. ويضحى بقائى بجانبه الآن أكثر قيمة من مجرد عمل فردى وأنانى من جانبى لأتخلص من آلامى الخاصة.

بالأحرى أضحينا كلاعبى ورق كشف كل منهما أوراقه على الطاولة، فأدركا أن فرصهم فى الفوز والخسارة متساوية تماما. فلا أنا من يستغل ضعف الشاب لأحس بالقوة بعد الآن، ولا هو من يستغل سخطى لكيلا يحس بالضعف وينهار.

لابد أن فى الموقف عدالة دفعتنى لأن أزوره كثيرا فى الأيام التالية. والغريب أننى وجدته ينتظرنى فى كل مرة، كأن أواصر الصداقة الحقيقية التى نشأت هكذا ارتجالا من العدم بيننا، كانت تنبئه بقدومى مسبقا.

حتى جاء يوم تأخرت فيه عليه، وحين حضرته فى المساء، قرأت فى وجهه عبوسا وإعياء، وبعد إلحاح وعناء شديد مني، أسر لى أنه قد سئم مقامه طريح الفراش فى المستشفي.

قال بصريح العبارة: لى ذكريات سيئة مع المستشفيات، لذا لا أحتمل هذه وأريد الخروج ..

أجبت وقد وافق ذلك هوى فى نفسي: أما أنا فقد كانت لى ذكريات جميلة فى هذه المستشفي، والذكريات الجميلة لا تلبث أن تضحى مؤلمة حين تكتشف أنها كانت بلا معني، إن استعادة تلك الذكريات الجميلة لا يولد فى قلبى شيئا سوى الألم.

فكرت فى كيشيا وفى زيف ذكرياتى معها، وكنت أحن إلى الخروج مثله، وحز حاله على نفسى أيضا، فوقفت أمام النافذة طويلا أراقب سرب حمام يطير على غير العادة فى المساء. قال لي، ودونما مناسبة سوى أنه قد نظر فى عمق روحى ربما، بينما سرب الحمام يطير بعيدا ويختفى فى أضواء المدينة كالسراب: أنت إنسان حقيقى لكنك مثل كثيرين تبحث عن شيء غير مزيف ..

لو أن شيئا كبس على صدرى ومنعنى من التنفس فى تلك اللحظة، لما أحسست بما أحسست به. فى نفس تلك الليلة الشتوية البارده، ركض طيفان يدفع أحدهما الآخر بكرسى متحرك، وخرجا من بوابة المستشفى الكبيرة فى غفلة من الحراس خلف ستار الليل، دون إذن من أحد.

❖❖❖❖❖❖❖

أخبرنى يعقوب أن منزله فى ساوث بروود ستربيت، ثم صمت تماما وسرح بنظره فى مشاهد الطريق. كأنما الحياة قد راودته عن نفسها فجأة فقرر أن يركب عجلة الزمن من جديد، ويعيد صلته بالأشياء.

حتى وصلنا إلى بناية سكنية أنيقة، لون أعمدتها من لون القرميد، وفيها نوافذ زجاجية ضخمة، تحتل جزءا كبيرا من أضلاعها الأربعة، وتمتد من الطابق الأرضى إلى الطابق الثامن. أشار نحوها قائلا: توقف هنا!

اجتزنا المدخل الزجاجى الكبير إلى بهو واسع، فأدركت من الفخامة التى صبغت مدخل المكان أنه ملجأ للأثرياء دون شك. تلفت من حولى أستكشف تميز المكان، ثم نظرت إلى يعقوب الذى ظل صامتا. ذلك الصمت الذى لم يشوشه حتى صوت عجلات الكرسى وهى تنساب على رخام الأرضية الفاخرة. وصل المصعد فأخذناه إلى شقته فى الطابق الخامس.

ناولنى المفتاح، ففتحت الباب وأضأت النور. اجتزت به ردهة قصيرة، ثم هبطنا عدة سلالم إلى صالة المنزل الواسعة، وهناك جذب يعقوب نفسه دون مساعدتى إلى كنبة حمراء واستراح عليها.

فتحت الستائر عن نافذة الصالة الكبيرة، فوجدت أن شقته تطل على شارع بروود الذى كان هادئا من الحركة فى مثل تلك الساعة. يستطيع المرء من هذه النافذة أن يستمتع بمنظر رحيب للشارع.

شقة حسنة الموقع والتأسيس كغيرها من الشقق الفخمة. أثاثها جديد وفاخر، وتنتشر فى أرجائها الثريات والتماثيل، وفيها مدفأة قديمة.

لكن فيها أيضا ما أثار فضولى وجعلنى أفكر. رأيت أحد الجدران وقد تكدس دون غيره بلوحات كثيرة. سبع لوحات أحصيتها كأننى فى متحف للفنون. فيها تفاصيل كثيرة غامضة،

تكمل فى مجملها بعضها البعض، وتنتهى ببورتيه كبير يتوسطها لوجه غائب الملامح. كأن عيون البورتريه السوداء، هى نقطة انطماس سلسلة التفاصيل والألوان.

و فى ذيل كل منها كان توقيع رفيقى حاضرا .

سمعت أن الرجل رسام، كما سمعت أشياء أخري. لكننى لم أكن قد رأيت أياً من أعماله قبل الآن.

هبطت بنظرى إلى طرف الصالة، ورأيت طاولة من المرمر، على سطحها أباجورة وزجاجة "جاك دانيلز" جديدة لم تفتح بعد.

سألته راغبا فى إزالة التوتر الذى أحدثناه بصمتنا: ما رأيك بمشروب؟ وحثثته فى إهمال غير متعمد: واحد لن يضرنا .. فوافقنى بهزة رأس.

ذهبت إلى المطبخ وتناولت كوبين، ألقيت فى قعر كل منهما بضعة مكعبات ثلجية. ثم عدت إلى الصالة وتناولت زجاجة الويسكى فصببت كأسين، وحملتهما إلى طاولة من خشب المهوقنى توسطت الصالة. وضعت كوب يعقوب أمامه بجانب قدمه المجبرة التى أراحها على الطاولة، وجلست على مقعد مريح عن يمينه. تنهدت فى عمق وقلت: فى صحتك ...

ضربنا الكئوس، وليس فى ذهنى أن نزيد عن كأس واحدة. لكن الخمر كانت فى النهل منفرة ولاذعة، فقررنا أن نمنحها الفرصة ونجاريها قليلا.

ومع الكأس السابعة. أضحى طعمها محببا وانحلت عقدة فى لساني. أشرت إلى اللوحات على الجدران وقلت: لديك منزل جميل، لابد أنك تجنى الكثير من وراء أعمالك الفنية.

ظل صامتا، فأشعلت سيجارتين، ناولته إحداهما، ثم صببت كأسا مزدوجا لكلينا. ضربنا الكئوس مجددا. فانحلت عقدته وسألني فجأة: ما الذي جعلك تقف بجانبي في هذه المحنة؟

صمت قليلا. ثم أجبت في صدق: لا أعرف حقا، حتما هنالك سبب ما. في البدء لم أشأ رؤيتك. والآن أحس كأننا أصدقاء عمر قدامى.

سألني عن سبب وجودي في المستشفى ذاك اليوم، فأخبرته عن كيشيا، ثم انتهزت الفرصة لاسأله عن كاثرين، تلك الفتاة الغامضة.

قال: إنها زوجتي، وتبدل وجهه. بدا غير راغب في الحديث عنها؛ لأنه سألني عما كنت أفعله في احتفال الجالية السودانية.

حكيت له عن أبي. الذي ظللت تحت وطأة امتعاضه من كل شيء. بدءاً من تقلبات فصول السنة إلى مشاهد الجنس في أفلام التلفاز، إلى الموضة، وتسريحات الشعر، وعلاقتي بكيشيا وكل شيء آخر في الكون. كان تقليديا للغاية، من النوع الذي يكوي منديله في الصباح. وضحكنا على أنه ظل يدفع لمدرس خصوصي لكي يعلمني اللغة العربية والقرآن طوال فترة طفولتي. ولم يستسلم إلا حين أجرى معادلة حسابية، وجد من خلالها أنه كان يدفع عشرين دولارا لقاء كل ثلاث كلمات أتعلمها. كدس بعدها مكتبني بكتب تاريخ السودان وجغرافيته، وسير النبي والصحابة، لكن الأمر لم يفلح.

ثم جاء سفري إلى فيلادلفيا وأنهى الحرب بيننا، أو حورها إلى ما يشبه الحرب الباردة. حيث صرنا نتحدث بود شديد في المكالمات الهاتفية القصيرة، ويستدرجني بشكل غير مباشر إلى التعرف على

جذوري. وقبل أسبوع من احتفال الجالية السودانية فى فيلادلفيا، اتصل بى من منزلنا فى نيويورك ليخبرنى عن نيته لحضور الحفل، ثم اتصل بى مجددا، مبديا أسفه أنه لن يقدر على القدوم بسبب مرضه. قال: تمنيت أن أعرف كيف سيكون الاحتفال. نعم، كان يطالبنى ضمنيا بأن أحضر الليلة لأجله. وعلمت ما يرمى إليه، لكن أسلوبه اللطيف فى تلك المرة، جعلنى أوافق على الذهاب. وهناك يا يعقوب، كنت أجلس كالأصم، لا أعى شيئا مما يدور حولى وأحس بالملل القاتل، من قصائد تلقى بلغة لا أجيدها، وأغانى تغنى بإيقاع رتيب، وأناس يصعدون إلى المنصة ويتقيئون كلاماً دونما توقف أو مراعاة للغير، يومها كرهت وجودي، وما يربطنى بأشياء لا أعرفها، وأحسست بحقد عميق نحو كل من حولي، ثم صعدت أنت الى المسرح، وعبرت عما يختمر فى داخلي، لقد هاجمتهم بلغة أفهمها فكنت بطلى ...

صمت قليلا ولاحظت أننى أحدث نفسي، فقد انشغل عنى كأننى غير موجود، لذا سألته: ما سبب هجومك على الناس فى تلك الليلة؟

- لم أهاجم أحد، الأمر لا يعدو كونه حقيقة.

أشار إلى اللوحات الغامضة على الجدار كأنه يرى فيها شيئا لا أراه. قال: لقد تملقوني، وأنا أكره التملق. لم أفعل شيئا فى حياتى يستحق الثناء، وتلك الألقاب الكبيرة أنا لا أستحقها. إن من يستحقها حقا قد مات، ولولاه ما كنت أجلس الآن معك.

كان قد سبقنى بكأسين، فقد انشغلت بالحديث عن الشرب، وخمنت أنه قد سكر؛ لأنه قام من مقعده مستندا على قدمه المكسورة،

خطا مترنحا نحو الحائط حتى وقف فى مواجهة اللوحات معطيا إياى ظهره. فتح يديه كأنه على وشك أن يحتضن اللوحات كلها ثم ضمهما فى أسى وهو يردد: هذا هو ملخص حياتي، لاشيء يستحق الثناء! وتلاقت يداه الممدودتان عند البورتريه، قال: وهذا هو المفتاح. أخى الذى قتلته.

❖❖❖❖❖❖❖

استيقظت فى حالة سيئة عند منتصف النهار فى الغرفة المجاورة لغرفة يعقوب. بعض تفاصيل الليلة الماضية غير واضحة، ورأسى يؤلمنى بشدة. فى رقبتى وصدرى حرقان، وفى معدتى كرة من لهب. بضعة دقائق مرت قبل أن أستعيد بعض الأحداث مجددا ...

سقط يعقوب فجأة فحملته إلى غرفته. وهناك شدنى من ياقة قميصي، وقال كلاما كثيرا ثم نام. لأجد نفسى وقد استيقظت فى الغرفة المجاورة لغرفته.

أنزلت قدمى الحافيتين إلى الأرض الباردة، فى بدنى إعياء وتعب ورأسى يمور بأسئلة كثيرة. كيف وصلت إلى هذه الغرفة؟ والليلة الماضية؟ لماذا على غير عادتى أعتصر عقلى بالتفكير فيها الآن، وفى حياتى ليال كثيرة جعلتها تفلت من تفكيرى فى الصباح كأنها لم تكن. إن شيئا قد قيل فى الليلة الماضية. لازلت أتذكر منظر يعقوب وهو يقوله لكننى لا أسمعه، كأنما الليلة لا ترضى أن تبوح بأسرارها بسهولة، فتموه كل شيء حقيقى فيها شيء زائف. يعقوب نفسه يبدو زائفاً، ليس ككابوس زارنى البارحة فشغل

مساحة أكبر مما يستحق من تفكيري، بل كممثل صامت أفشى كل ما لديه دون أن تفوه بكلمة واحدة. لكنى أجزم أنى قد سمعت أمرا مهما وخطيراً. كما أجزم أن الإجابة لديه، ولديه وحده.

اقتحمت حجرته وهو لا يزال نائماً. رفعت الغطاء عنه فوجدته يسبح فى دمائه. الضمادات البيضاء قد ابتلت بالدم فتغير لونها ووجب تغييرها.

قدت السيارة بسرعة إلى مستشفى غير التى هربنا منها. كنت فى غمرة الانفعال قد نسيت بطاقة التأمين الصحى فى المنزل، فمضوا فى حوار بيروقراطى رتيب معى وتركوه ينزف. قالوا: ما لم تبرز كارت التأمين الصحى لا يتلقى العلاج، هذه قوانين البلاد.

تركته عندهم وعدت إلى منزله. وبينما كنت أجوب المنزل بحثا عن البطاقة، دق الباب، فتحته لأجد رجلى شرطة. كنت قد رأيت كثيرا منهم فى حياتى وارتبط وجودهم فى ذهنى بالمصائب، سألونى عن يعقوب. قال أحدهما فى أدب جم: نريد الحديث معه عن حادث السيارة.

قلت له: إننى لم أره منذ عدة أيام، وإنه لم يغادر المستشفى بعد.

كنت على عجلة من أمرى ولم أشأ تضييع الوقت معهما. شكرانى ومضيا إلى حال سبيلهما.

وجدت البطاقة مختبئة فى درج المطبخ. عدت به وتركت يعقوب مع الممرضة لتغير ضماده. بينما جلست أنتظره وألتقط أنفاسى فى مقهى المستشفي.

أوهم كان أم حقيقة؟ لا أستطيع أن أجزم والأوهام من حولى كثيرة، كذكرياتى الجميلة مع كيشيا فى مقهى يشبه هذا، وقد

أضحت مؤلمة؛ لأنها كانت بلا معني. والآن أفكر في أن هذا المقهى هو ذاك. نفس الأرضية الناصعة، والإضاءة الفاقعة، والمسافات الحذرة بين الطاولات والمقاعد، والأطباء والممرضات في زي العمل الرسمي ينعمون باستراحة قصيرة قبل أن يعاينوا من أحضروا معهم بطاقات التأمين الصحي. في مقهى كهذا تحطمت آمالي، وتركت خلفي خاتم الزفاف. ورغم أن ذاك يعبق بالذكريات، لكنه في مجمله لا يختلف كثيرا عن هذا. كأنما الأمكنة كالذكريات هي نفسها مزيفة، وقابلة لأن تستنسخ نفسها مرات عديدة مع أناس مختلفين. هل كان ما قيل قد قيل؟ وهل كان من الأهمية بحيث أعتصر رأسي لأتذكره؟

ارتشفت كوب القهوة في نهم حتى هدأ الصداع في رأسي قليلا. وجلست أرتب شتات أفكاري إلى أن أحضرت الممرضة يعقوب في ضمادات جديدة وأسلمتني إياه. قمت فورا ودفعت كرسيه المتحرك إلى الخارج.

ظل صامتا طوال الطريق إلى المنزل كأنه في جنازة، فأنبني ضميري؛ لأني دفعته إلى الشرب ليلة البارحة بينما كان من باب أولى أن أمنعه عنه. أردت أن أسمع صوته يحدثني من جديد، فقط ليطمئن قلبي أن الأمور بيننا على ما يرام، وأنه لم يأخذ في نفسه موقفا مني. قلت له ونحن نقف عند إشارة المرور: حضرت الشرطة اليوم، وأخبرتهم أنك لم تبارح المستشفى أبدا، أرجو أن يتم تسوية خسائر الحادث بشكل مناسب لك ..

رد بعد صمت: سيحضرون مجددا، إنهم يريدون معاقبتي على جريمتي الصغيرة، وأنت وحدك تعلم عن الكارثة الكبرى!

طبول الأفكار تدوى فى رأسى مجددا، الصداع قد عاد أعنف وكوب القهوة تبخر فى الهواء. بعض التفاصيل غائبة. البارحة حملته إلى غرفته، فشدنى من ياقة قميصى وتحدث كثيرا، وأنا فضلت الصمت والاستماع. إن مصائب الغير تجعل من مصائب الإنسان واهية، وأذكر أننى قد نمت دون هموم ليلة البارحة، دون أن أفكر فى كيشيا حتي. أى كارثة هذه؟

جلسنا فى صالة منزله، وكان ضوء الغروب البرتقالى المحمر يملأ المكان. الستائر مفتوحة، ونوافذ الصالة شفافة ونظيفة. وفى شارع بروود أفسحت السيارات لعربة إسعاف مسرعة، سمعت صوتها يقترب شيئا فشيئاً، ثم مرت كوميض البرق، واخترقت صافرتها أذنىّ. قال يعقوب: أنت شخص غريب.

- وكيف ذلك؟

- لم تسألنى حتى الآن عن التفاصيل. وبرغم ذلك تقف بجانبى وتغطى علي. أى شخص آخر كان لينجو بنفسه، ويوفر عليها عناء المتاعب. لم أكن سأحدثك البارحة عن الأمر لولا أننى سكرت. والغريب أنك قد تقبلت الأمر، وهذا يدهشني. أعلم أنك مرتبك الآن بعد قصة البارحة. كل ما منحتك إياه هى رؤوس أقلام عما حدث، وفيضان من أسماء أناس لا تعرفهم. إن وقفتك بجانبى تدهشني، ووقتى قد حان. قريبا لن أكون هنا لأوضح الأمر بشكل أفضل لك. أنت صديقى الوحيد، وتستحق أن تعرف التفاصيل، على الأقل حتى لا يكون حكمك على قاسيا بناء على سردى السريع لما حدث. إن شخص مثلك جدير أن يعرف لم قتلت أخي.

و هنا كما يدق جرس الساعة فى الصباح فيقطع السبات العميق، وكما تنحنى العيدان الخضراء فى وجه العاصفة، وتسقط

الأشياء من عل بفعل الجاذبية، قفز حديث البارحة إلى ذهنى فجأة وأردت وقتها أن أخرج من بابه ولا أعود مجددا. ذاك هو التصرف المنطقي. لكن خبرنى كيف أكون منطقيا والرجل قد ذكرنى لتوه بما كان، وأشعل فى داخلى جذوة الفضول البشري، كالذى يجذب الناس لاستكشاف الأماكن المهجورة المظلمة، أو يدفع بالأطفال لمصافحة اللهيب. تلبسنى الفضول وهذا كل شيء فأشعل صراعا صغيرا فى دواخلي، ما بين القيام والجلوس.

كنت لا أزال جالسا فى مقابلته. فى عقلى صرخات تحذير، وجسمى راسخ على الكرسي، أود تحريكه ولا يطاوعني. وتمعنت عميقا فيه كأننى أراه لأول مرة بتجريد تام. حطام إنسان مسجون فى جبائر من الجبس، من خلف ظهره سبع لوحات غامضة، تمتد تفاصيلها كالسلسلة، ثم تنطفىء فى عيون البورتريه السوداء، وتفاصيل البورتريه مبهمة للغاية. ماذا سيضيرنى إن عرفت؟

هكذا فكرت لحظتها. ولم أدرك أن ذلك القرار الذى اتخذته بمحض إرادتى فى تلك اللحظة، سيغير حياتى إلى الأبد. لبثت فى مكاني، ثم وصلنى صوت يعقوب كنبع يفور من هوة عميقة.

- ٢ -

تفاصيل كثيرة تحضرنى الآن، ومشاهدات يومية بينى وبين أخى بدت طوال الوقت بلا قيمة، ثم دنوت من الموت هكذا، وأدركت أن كل لحظة عشتها معه كانت درسا عميقا عن معنى الحياة نفسها. إن لكل باب مفتاح، ومفتاح حياتى وخبراتى وإنجازاتى هو ياسر.

أعلم أن كلامى يبدو فلسفيا وبلا معني، لكنك ستفهم ما أقصده. لقد استغرقنى فهم الأمر حياتى بأكملها. والغريب أننى حين أقول "حياتي"، ترتسم فى مخيلتى صفحة بيضاء. فأنا لم أخض أية تجربة، ولم أحقق أى إنجاز يذكر. وكل ما تعلمته فى حياتي، تعلمته من أخى الأكبر. ولست أرغب فى تعقيد الأمر عليك أكثر من ذلك، لذا سأعود بك إلى البداية التى أذكرها.

كنت طفلا، ولم أحب تكوين الصداقات. وفى كل مرة حضر الصغار إلى منزلنا، انزويت فى غرفتى عنهم. لم أزعج أحدا طوال طفولتى ولم أقبل بانتهاك صمتي.

فى البداية.. جلبت إلى هذه الحياة متيما بالوحدة، يربكنى وجود الناس من حولي. الصمت أجمل الألحان فى المساء، والصباح يأتى بأصوات انحفرت فى ذاكرتى وقاومت عقارب الزمن. زقزقة عصافير على شجرة نيم، نداء بائع يتجول فى الخارج، مزامير سيارات بعيدة، جرس كنيسة ومدرسة. أصوات الحياة بأكملها بدأت فى كل صباح بنبرة محببة، أخذت تقطع سباتى وتخلفنى عند تباشير الصباح الجديد. تلك نبرة سمعتها مرارا حتى أضحت من سمات الصباح، كموقد أمى ورائحة القهوة الطازجة إذ تملأ فناء الدار، تلك نبرة أخى ياسر.

كان يكبرنى قليلا، ليس ذلك الفارق الذى يجعل الصداقة بين الإخوان مستحيلة، فكان محور حياتى وكنت له كذلك. أرى وجهه قبل كل شيء، وأسمع صوته النابض بالحياة فى الصباحات الغضة، فأستيقظ ونقضى اليوم بأكمله معا. نتابع الدراما الساذجة فى تلفزيون السودان فى شغف، نقرأ المجلات المصورة ونرسم شخوصها، نركض ونتسلق الأشجار، وتنكسر الفروع أحيانا، فنسقط على أقدامنا كما تسقط القطط، نضحك على الأمر ملء أفواهنا ولا يعكر صفونا شيء.

أعود بذاكرتى الآن إلى أيام جميلة، كان وجود أخى فى حياتى يكفينى فيها عن الناس ويزيد. أيام ظن والداى أن فى عزلتى عن الناس سوء، فخرجا بى إلى الحدائق وأرسلانى للعب مع الأطفال، ولا أرى سوى طفل قد انزوى عن أنداده فى ركن بعيد للغاية.

جئت إلى هذه الحياة محبا للوحدة والصمت منذ خلقت. فى دواخلى بئر عميق للغاية قد تصرخ فى جوفه فلا يرد صداك. للناس

عالمهم ولى عالمي، وليس فى عالمى سوى ياسر، أبقى فى لعب ولهو معه منذ الصباح حتى المغيب. واستمر الحال هكذا حتى كبرنا ودخلنا المدارس. كيفت نفسى مع الدور الجديد المنوط بي. نفذت كل شيء بحذافيره ولم أغفل أياً من واجباتي. وقفت فى طابور المدرسة الصباحي، رددت الأغانى الجهادية بأعلى صوت، أشدت بقارئ القرآن، وصحت مع زملائي: الله أكبر . كلما جاء ذكر لحرب الجنوب فى الإذاعة المدرسية، ثم اتجهت إلى صفى وجلست وسط أناس لا أعرف أسماءهم. حقا لم أهتم بمن زاملني، فجميعهم أدوا نفس الدور الذى أديته، لذا لم يكن فيهم ما يثير اهتمامي. كنت أشبههم ويشبهوننى فى كل شيء. كتبنا ومقاعدنا كبعضها مهترئة، لا نعترض على شيء أبدا، ونخضع لعقاب المدرسين صاغرين تحت حجة الاحترام.

كنت أؤدى الدور على أكمل وجه، وحين أعود إلى المنزل ويوقظنى ياسر من قيلولتي، أنزع ذلك القناع كأن يومى قد بدأ لتوه. تعود الحياة إلى ما كانت عليه، نعود أطفالا ونقضى بقية يومنا فى لعب ولهو حتى المغيب.

أذكر تلك الأوقات بجلاء شديد كأنها البارحة. مثل تلك الذكريات لا تنسي، لأننى ظللت أعقد مقارنة بينها وبين ما آلت إليه الأمور لاحقا.

دخل ياسر إلى المدرسة الثانوية وتغير كل شيء على نحو سريع. فاق فى الطول أبى ونما على وجهه شارب خجول، ثم انبنى بيننا ذلك الحاجز اللعين. وحاولت أن أكون معه فى كل لحظة. أو أن أصرخ فى وجهه لأذكره بأننى أخوه، وأننى لا أزال موجودا فى حياته، لكن محاولاتى جميعها ذهبت أدراج الرياح.

وكأننى غير موجود، فقد استبدلنى بأصدقاء يشبهونه. يحضرون إلى منزلنا فى المساء، يدخلون وعلى ظهورهم الحقائب المدرسية الرثة بوجوه يملؤها حب الشباب. يتقابلون حول طاولة تملؤها القصاصات، ويتناقشون فى مواضيع لا تهمني، أكون معهم ولا أكون أحيانا، وأراهم جميعا فائقى الطول بزيهم العسكرى الشاحب، الذى كان مفروضا على طلاب المدارس الثانوية. وأخى على كرسى القيادة غريب لا أعرفه، قليل الحديث، لكن الجميع ينصت إليه ويحترمه كأنه قائد حقيقي. فاق فى الطول أبي، وصار يتحدث عن الثورة والعمال، عن التجنيد الإجبارى والتردى الاقتصادي، وعن مقتل طالب أو مناضل ما. امتلك مكتبة صغيرة، واكتسب صوتا جديدا لا يشبه صوت الأطفال، صوت قوى وعميق، كأنه يصلنى عبر نفق طويل يمتد لأميال كثيرة نشأت بيننا ليثير فى دواخلى ألف سؤال.

ثم تردت الأمور مزيدا. صار يخرج فى كل مساء ليملأ الحوائط بالشعارات، ويعود بمنشورات تأتى فى طبعات رديئة توزع سرا، ويخرج فى المظاهرات الصغيرة التى تنطفئ قبل أن تبدأ. ترك رفقتى تماما، وامتلك عالما جديدا لا يتضمنني، وكأننى أمر مسلم به، لا يضر ولا ينفع.

و أنبأنى إحساس فطرى بالخطر، بأن ما تغير فى عالم ياسر هو إرهاص لتغير قد يطال عالمى أيضا فى المستقبل القريب، لأن الإخوة ثمار نفس الشجرة ..

غير أنى .. أتفهم؟ سعيت نحو مصير مختلف عنه. وكنت لا أزال فى بداية الطريق. وكان لابد أن أمنح البداية معطياتها الملائمة، لتتشكل النهاية حسبما أهوي. وكنت أرى وأسمع وأحس بما حولي.

أرى الناس يساقون إلى الهلاك. والحرب الأهلية تعرض فى التلفاز كامرأة حسنة المكياج، رأيت الشباب يذهبون إليها ويعودون من عندها بأنصاف أجساد خلفوا نصفها الآخر فى حقول الألغام. كنت صغيرا دون شك، لكن كل يوم كان يقربنى من سن التجنيد أكثر. وكانت الجثث التى تكبرنى قليلا تعود فى أكفان، وتقام لها الأعراس لا سراديق العزاء. وسمعت خطباء المساجد المجاورة يثنون على المشروع الحضارى ويحثون على الجهاد والحرب الأهلية المقدسة. غريب أليس كذلك ؟

شيء ما فى دواخلى كان يكبر فى كل يوم، وينكسر ألف شيء آخر. والهوة الزمنية بين أخى وبيني، كالتى بينى وبين التجنيد والموت، تضيق فى كل يوم. حتى تكشف لى الموت فى كل شيء حولي.

رأيت الناس يتدافعون فى طوابير الخبز النحيل، والوقود، والمواصلات. ويسلب بعضهم مكان بعض. ورأيتهم يموتون بالملاريا، والسل، والحرب والجوع. ولم أحس نحوهم .. سوى بالذعر.

والنازحون رأيتهم يملئون المدينة. وكان أخى يحبهم ويحبونه، يقود المظاهرات الصغيرة لأجلهم، ويخرج ليملأ الحوائط بالشعارات الجوفاء.

كان يكتب الشعر ويمزقه، ويبكى فى الليل على نفسه.

وفى كل ليلة كنت أقترب منه خطوة ويقترب منى خطوتين. وحين انهار عالمه لم يجد غيرى ليلجأ إليه، فضاقت الهوة بيننا من جديد، وأخذ يبثنى آلامه الكثيرة. تلك التى ولدها عجزه المحتم. وكنت حين أسمع صوته وأستبين نبرة الحزن فيه أراه فى مخيلتى ضاحكا سعيداً. وأتخيله حين كنا نلعب الغميضة، فأراه فى ذاكرتى يقول: اقفل عينيك ولنبدأ العد من البداية ...

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ينبغى الاعتراف لنفسى أولا أن المدينة قبيحة. لكن أخى يعشقها ويعرف أحياءها وأزقتها وناسها جيدا. فأينما حل، انفتحت أبواب البيوت لتستضيفه وتحتويه.

كان له أصدقاء وزملاء دراسة، وبيوت يعرف سكانها كلهم فى أحياء أمدرمان المختلفة، تماما كما يعرف تجار السوق، والحمالين، وسائقى الباصات، وعمال البناء، وطلاب الجامعات وغيرهم. وتلك حقيقة مهمة عن ياسر، أن أناسا كثيرين من خلفيات ومهن مختلفة يعيشون على امتداد المدينة قد أحبوه بصدق، وسعدوا لرؤيته وقتما حل عليهم.

أما عن جيراننا الأقربين، فقد ترسخت صورته الجديدة فى أذهانهم كابن "حى البوسطة" البار، الذى يشاركهم فى أفراحهم وأتراحهم، ولا يبخل عليهم بوقت أو جهد، والذى يجد فى رفقة كبار السن ما يسر قلبه، وهو اليافع الذى طال جسده وبنته السباحة فى نهر النيل، وأضحى رجلا تتمناه الفتيات.

كنت ضائعا منسيا فى خضم ذلك منزويا فى جزء مهجور من ذاكرته وهو مشغول ببناء علاقات وطيدة مع كل من هب ودب. وفى أحيان كنت اتساءل عن سر معرفته بالمدينة ونفاذه إلى قلوب الناس بهذه السهولة، لكن ذلك واحد من أشياء كثيرة لم أفهمها فى ياسر وقتها.

كانت فورة الشباب قد جعلته يظن أنه قادر على تغيير الكون بأكمله، وجعله أكثر ملاءمة لطموحات هؤلاء كلهم، إلا أنه فى الواقع كان كالساقية يدور فى حلقة مفرغة. يجتمع برفاقه حول طاولة القصاصات، يناقش، ويقرر، ويأمر، ويحتفى بالنجاحات

الضئيلة. فى أحيان يعود ممتلئا بنشوة الانتصار من مظاهرة انطفأت دون أن تحدث تغييرا فى محيط كيلومتر مربع واحد. وفى أحيان أخرى يعود وعلى ملابسه آثار طلاء ملأ به حوائط المدينة بالشعارات الجوفاء.

ورغم أن أفعاله فى نظر المنطق قد حوكمت بالفشل، إلا أنها فى نظره نجاحات جادت عليه بثقة عمياء، وجعلته يتشبث بأحلامه أكثر. وفى يوم امتلأ منزلنا على غير موعد برفاق أخي وأقاموا معنا لعدة أيام. كانوا يحضرون ويذهبون فى نفس اليوم، لكن هذه المره تحول المنزل إلى خلية نحل. كل من فى المنزل شارك فى استقبالهم على نحو ما. أمى أيضا، لم تسل عن سبب وجودهم، لكنها بذلت أقصى جهدها فى توفير سبل الراحة لهم. كانت امرأة بسيطة وطيبة، تحبهم كأبنائها، وتثق فى كل إنسان لم يبدر منه غدر.

أخذوا يأكلون ويشربون ويتحلقون حول طاولة القصاصات، يناقشون ويخططون ويدخنون السجائر، فتغيب وجوههم خلف سديم الدخان. وكنت قد رأيتهم فى منزلنا مئات المرات حتى حفظت أسماءهم وأحاديثهم وطريقة جلستهم وحالاتهم من الجد والهزل، والفرح والإخفاق..

قالت سلمى بنبرة صوتها المبحوح كأنها تبوح بسر لا يعلمه فى الكون سواها: مدرسة البنات كالخاتم فى أصبعي، هن غاضبات ومحبطات وأمرهم هين ..

لم تبارح نبرة الثقة المطلقة صوتها أبدا. كان لها وجه جميل حاد التقاطيع، وجسد متناسق أقرب إلى النحافة تبرز منه ثنيات الأنوثة فى وضوح، وتضع نفسها فى جميع مآزق الصبيان كنوع من إثبات الذات.

رد مختار: يجب أن تستوعب مدارس البنات أيضا، أننا نقوم بحركة فعلية بعيدة عن الميثيلوجيات والأكاذيب، وأننا نؤسس لأيديولوجية جديدة تقوم على المساواة التامة بين الجنسين ...

دوما تضربني مفرداته بعنف كقذائف الهاون. لو لخصته من رأسه إلى أخمص قدميه، سأقول أنه فتى عجوز المظهر. يضع نظارات سميكة كقعر الكوب، ويتأبط كتابا أو صحيفة أينما ذهب. يميل إلى البطء والسكون أكثر من الحركة، كأن طاقاته قد شحذت وتمركزت على سطح لسانه. دوما أجده يجادل فى كل مواضيع الكون دون ملل أو تعب، ويسمعه الناس حتى النهاية ولا يجادلونه، لأن هيئته العجوز تجعلهم يرجحون معرفته بكل شيء.

كان يجلس بين بهاء وهاشم، أخرج الأخير كيسا منتفخا بالمنشورات وضرب الطاولة بقبضته. فعل لا هدف من وراءه إلا جذب الانتباه، وتبديد الصمت الذى يطبق على أى مكان يدلى فيه مختار بدلوه.

أخذ صمويل يفرز الأوراق ليوزعها عليهم. لو وضعت قنينة وسط الطاولة وأدرتها حيثما اتفق، فانها ستشير إلى صمويل حتما. عيناه فيهما حزن عميق لا يبارحه، شيء جذاب لو أخذته بتجريد، وداكن لو حاولت أن تنقب فيه كما فعل ياسر.

ما لبثت أصواتهم أن علت، حتى ظننت الموقف سيتطور - لو استمر لدقيقة أخري - إلى مصارعة بالأيدي، لكن أخى أمسك بزمام الأمور مجددا. كان محنكا فى أداء هذا الدور الذى ظن أن تغيرات الطبيعة قد أهلته له بين ليلة وضحاها. بدأ حديثة معهم بالقسوة وختمه باللين، كان فى نظر نفسه خيط المسبحة القوى المرن، من دونه تنفرط الحبات وتتشتت.

قال لهم: إن كنا سنختلف منذ الآن، فلا جدوى من إضاعة وقتى ووقتكم فى التخطيط لأمر انتظرناه معا منذ وقت طويل، لذا سأطالب ممن لا يجد فى نفسه الشجاعة أن يتنحى الآن، وهو مطمئن أن نظرتى لن تتغير نحوه أو نحوها، لكن أرجو أن تتذكروا أننا فى آخر الأمر إخوة وشركاء فى نفس المصير ..

التفتت العيون نحو محمود الشهير بأبو سريع، أول من يغادر المظاهرة حين يستبد الاشتباك. كان طيب القلب لا يغضب أبدا، فأحبوه وسخروا من صوته كلما غني، ومن سرعته حينما يركض. لم يكونوا قد رأوه فى حالة خجل قبل ذلك. كان من النوع الذى يرقص فى الأفراح أكثر من العريس. لذا حين انكمشت ملامح وجهه الصغير أصلا، وانفتح فمه ثم انغلق بشكل لا إرادي، جلجلوا بضحكة جماعية حتى دمعت عيونهم.

تمهلت قليلا ونظرت إلى لحظة السعادة تلك، واستمهلت نفسى عند كل واحد بمفرده. طوال عمرى لم أحمل مشاعرا نحو واحد بعينه، أحببتهم أو كرهتهم جميعا كقطيع أوحد. لكنهم حين ضحكوا فجأة، جلس على كل مقعد إنسان فريد فى كيانه وقصته. وحين صمتوا، عاد نفس ذلك الإنسان يجلس فوق كل المقاعد بائسا كجندى الشطرنج، تحركه أياد خفية، وتعده لجو معركة لا يدرى كنهها.

بهاء الصغير هو أيضا ذلك الإنسان. قفز فى سذاجة فوق درجات السلم التعليمى قفزا، حتى وجد أنه قد ورط نفسه فى التجنيد الإجباري، وكان سيؤخذ إلى الحرب عند نهاية العام الدراسي، لكنه قد غسل زى المدرسة العسكرى الشاحب ليرتديه فى

الصباح. ورغم أننى أسير مثله إلى نفس المصير، إلا أن خطواتى متباطئة وصغيرة، لأننى امتلكت موهبة صار الموت بمقتضاها يتكشف أمام عينى بسهولة فى كل شيء يحيطني. أولئك فرضوا علينا أن نرتدى زى الجيوش فى المدارس ليهيئونا لارتدائه فى ميدان المعركة فى المستقبل القريب... واستمهلت نفسى عند كرسى القيادة، وعند ياسر أكثر وأكثر. هو أيضا جندى شطرنج، تحركه أياد خفية أكبر سنا ليخوض نضالهم بدلا عنهم، يكلفونه بالمهام الشاقه والخطرة كى لا يظهروا فى الصورة. لكنه فى نظر نفسه قائد حقيقي، سيخوض رفاقه البحر معه لو شاء. وقد وجد رفاقه فيه بذرة لخلاصهم، وفى غفلة منهم جميعا عن الموت الكامن فى الأشياء، أشرقت وجوههم الضاحكة بالأمل.

كنت مدفونا فى ذاكرة أخى كأننى أمر مسلم به. أخاف المستقبل والحاضر والموت. أخاف أخى وأحلامه بعيدة المنال، وهو يتحدث عن الثورة والعمال، ويصيح فى رفاقه: نحن قادرون على إحداث التغيير، قادرون على إيقاف التجنيد القسري، وقادرون على أن نقهر الحرب والجوع والموت!

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

خرج الجميع وضجت الحركة فى المدينة. بدأت دورة حياة الناس اليومية المعتادة. فى صباح لم يكد يتغير فيه شيء عن صباح البارحة. نفس الوجوه العابسة سعت فى الشارع حتى امتلأ، وانقلبت الساعات كلها منذ الصباح الباكر إلى ساعات ذروة. وفى النهار صعدت الشمس إلى كبد السماء، وتحركت السيارت فى بطء تحت لهيب أشعتها الباهرة كأنها تتلمس طريقها فى ظلام دامس.

كان الزحام قد أضحى طابع المدينة، واستجدى ركاب المواصلات مكانا لأقدامهم فى المركبات المكتظة، وتلك صورة ألفها الناس هناك حتى اعتادوا عليها. لم يكن فى الأرض ما يوحى لهم بحدث مغاير، وبالنسبة لهم لم يزد اليوم عن مجرد تواتر آخر فى مسلسل حياتهم اليومي. لكن الأمر لم يبد بهذه البساطة لياسر ورفاقه، فقد كانوا يخططون لذلك اليوم وينتظرونه منذ وقت طويل.

وفى الساعة الواحدة والنصف تماما ضج الشارع بحركة غير مألوفة، واندفع طلاب المدارس إلى الشارع فى مظاهرة صاخبة. وتصاعد هتافهم ثم هطل على الأمكنة البعيدة والقريبة، فسمعه الناس وحضروا أفواجا، ليتنوع الحشد من طلاب وعمال وأهالى ومارة وموظفين وأبناء سبيل.

وكان ياسر على قمة الحدث كأى قائد حقيقي، يقود الهتاف والمسيرة. تلك أسعد أوقات حياته القصيرة. كان ينفق العمر من أجل مشية فى كرنفال الغضب الذى ابتدعه بيديه.

وعندما اقترب الحشد من الجسر، شقت الغبار شاحنات جنود عبرت من الضفة الأخري، هبط الجنود على عجل واصطفوا أمام الحشد عند منتصف الجسر تماما. كانوا مدججين بالسلاح، ومن أعينهم تبدى الموت فى أوضح صورة. صمت الحشد لحظة كانت بمقدار ما تطرف العين. لكنها فى مثل ذلك الموقف المتوتر، كانت كافية للحياة بأكملها أن تعبر أمام عينيك. وانطلق الرصاص الحى من فوهات البنادق. وانطلقت النيران من الخلف أيضا، ومن أناس كانوا وسط الحشد. انطلق الرصاص من كل مكان وتساقطت الجثث هامدة. مات حلم أخى وتناثرت أشلاؤه فى الشوارع الجانبية ...

ركض ياسر كغيره من الناس فى زقاق ضيق وإحساس المرارة يسود عالمه بأكمله. وتذكرنى فجأة فى تلك اللحظة وأنا أقول: هذه المظاهرة ستفشل، وتنطفئ كعود ثقاب هش ..

وكنت أقول شيئا مثل هذا فى كل المرات السابقة، ويملؤنى اليقين أنه لن ينصت إلي. ثم حلت الكارثة الكبرى اليوم. فكلما ارتفع الإنسان زادت حدة السقوط. وبالنسبة لياسر، لم تكن مظاهرة اليوم موجهة ضد شيء محدد المعالم. لم تكن صيحة صغيرة فى وجه التجنيد الإجباري، أو ارتفاع أجرة المواصلات، أو عدم تكافؤ الفرص. بل كان يريدها انتفاضة شعبية، يقودها الطلاب فى ذلك اليوم، لتعبر الجسر إلى الخرطوم، وتحقق النصر الشامل. وفى المظاهرة حين استبد الاشتباك، رأيته يدهس بأقدام العساكر، وسمعت صوت الهراوات على رأسه.

كانت عيونه حمراء بفعل الغاز المسيل للدموع، وملابسه يملؤها الدم وسواد الدخان، وعلى جبهته جرح غائر.

أخذ يركض فى الزقاق الضيق كغيره من الناس الفزعين من الموت، بيد أنه تمناه فى أعماق نفسه. ركض حتى انقطعت أنفاسه، وجف حلقه كالحطب، ولم يعد جسده قادرا على الاستمرار. ركض هربا من وجوه القتلى الذين سقطوا فى كرنفاله ...

عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل منطفئاً بالخمر فوجدنى مستيقظاً فى انتظاره، والتقت عيناى بعينيه الحمراوين المتعبتين فكانت لحظة عجيبة!

مد يده نحوى وصافحني. كأن أميالا كثيرة كانت تفصلنا، هى الآن آخذة فى الانكماش. ثم انفرجت شفتاه عن همهمة مهزومة، قال فى ألم: عدنى أن تكون بجانبى حين أحتاجك ...

فوعدته والحيرة تملؤنى مما غيرته السنوات. لم تكن موجة الحزن الدخيلة تلك لتعبر وجهه فى الماضي. وتمنيت لو يقسى قلبه مثلى فلا يحس بالحزن أو الندم.

كان قلبى كحجر الجرانيت الأسود، إن انهار العالم وجلست على أنقاضه لن يهمنى الأمر كثيرا، لكنه كان أميل للعاطفة، وأخذ يتحدث فى هستيريا عما حدث: كان الطلاب غاضبين وحطموا الأشياء فى طريقهم، قاتلوا العساكر والمخبرين. وهتفنا ملء أفواهنا: "مقتل طالب مقتل أمة" كان أمرا يهز القلوب. زغردت النسوة وانفتحت أبواب البيوت، وانقلبت روح المدينة الهامدة إلى غضب معلن فى الوجوه. كل شيء بدا واضحا كأنه كرنفال تحت قبة السماء، به خلق كثيرة لبثوا أحقابا فى انتظار هذه اللحظة النادرة.

تلك لحظة نادرة ... حين تضحى الوجوه وجها واحد، والأجساد جسداً واحداً يشد بعضه إزر بعض ويزود عنه، وحين يتردد الهتاف من كل صوب كأنه الرعد الذى ينادى العاصفة، وقبضات الخلق تمتد إلى السماء. يا لروعتهم .. يبدون فى هذه اللحظة سواسية فى كل شيء. قبضات النساء قوية كقبضات الرجال، وشجاعة الأطفال لا تقل عن شجاعة الكبار. كأن كل واحد منهم قد اغترف من روح الكرنفال نسبة تساوى نسبة غيره. يقاومون فى استبسال طوال الطريق، يزودون عمن يقبض عليهم حتى يحرروهم، يملئون السماء بالأحجار، ويردون علب الغاز الى مصادرها. والعساكر المندهشون يختبئون خلف الدروع والمخبرين يمتزجون بالناس ولا يقدرون على فعل شيء. من يحاول وضع الطوق فى رقبة هذا الكرنفال الغاضب لا يجنى إلا الألم ...

خلت من وصفه أنه سعيد بما حدث، وأنه قد سكر احتفالا وربما رقص فى الشارع فى طريق عودته إلى المنزل. لكنه مضى فجأة فى نوبة من البكاء كمخطئ يتضرع.

ضممته إلى لأهدئ روعه، لكنه لم يهدأ وتلبسته حالة من الضياع ولم يعد يتفوه بشيء مفهوم. كان ذلك أول عهده بالموت الذى رآه يرقد على الأسفلت فى هيئة أناس وثقوا به ومضوا تحت قيادته نحو حتفهم. الموت إذن: أجساد شابة قضت نحبها قبل أن تعيش.

بدا فى عينى ضعيفا ومذعورا من كل شيء وخائفاً حتى من نفسه. وهو يرتجف فى حضني، ويبوح بأحزان ذات امتداد وعرض. حتى ساءنى حاله، وتمنيت فى ذات اللحظة لو أن فى يدى مقاليد الزمن. كنت أرجعته فى طرفة عين إلى الماضى لنعود كما كنا طفلين لا يحملان همًّا لشيء، وربما كان فى مقدوره عندها أن يمنح هذا اليوم معطيات لا تودى إلى مثل هذه الكارثة. لكن ولأنى بشر لا أملك من أمرى الكثير. استمعت إليه وهززت رأسى مشجعا، ثم تحدثت إليه فأنصت فى إمعان تام. قلت له وهو يبكي: إن كل ما فى الكون، لا يستحق هذه الدموع، فقط توقف وكن مثلى مجددا، لأننى لم أعد أعرفك. صرت تبكى وتهتم بالآخرين وتتجاهل وجودي. ما هذا؟ الآن وقد عرفت معنى الموت، اخرج من هذا القطيع لأن خرافه تلاقى نفس المصير. ثم إن دور قائد القطيع لم يناسبك على الإطلاق، وبين جنبات صوتك القيادى القوى تدارت نبوءة الإخفاق الوشيك ..

وقلت أشياء كثيرة أخري. وجلست طوال الليل فى مقابلته، كعراف يقرأ الماضى

والمستقبل. وكما تتفتت الصخرة بقطرات المياه حين تسقط عليها بشكل متصل، ضغط حديثى المتواصل على ضعفه، حتى نفذت فى آخر المطاف إلى كيانه وهززته هزا، وصار مشدودا كوتر قلق بينى وبين عالم انتقاه لنفسه.

رأيت وريدا يجفل فى جبهته وسمعته ينهنه كطفل ضائع، فأردفت: يمكنك دوما أن تسعى نحو نهاية مختلفة للأشياء، فقط أبدأ مجددا من البداية.

ردد أخى من خلفى فى بطء طفل يتهجأ: ا ل ب د ا ى ة .. ردده وأنا أقوده إلى مخدعه، ورددها وأنا أضع اللحاف عليه وأمسح الدم عن جبينه. ثم صمت فجأة ومضى فى نوم كالغيبوبة ...

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

كانت المدارس مغلقة بسبب أحداث البارحة، فجلست لا أفعل شيئا حتى انتصف النهار وعرج صمويل على ياسر، ليخبره أن سلمى قد أصيبت فى المظاهرة. وكانت قد ضلت عن بقيتهم فى خضم الأحداث.

رافقت أخى على عجل، وفى الطريق ركبنا حافلة تغص بالناس، بعضهم على المقاعد، وعلى الممر الضيق بينها، والبعض الآخر يتشبث بباب الحافلة. زحام غير معقول، كأننا خراف تتدافع لوجبة برسيم فى حظيرة ضيقة.

وقف ياسر عند باب الحافلة. نصف جسده فى الداخل، والنصف الآخر يلوح للخارج. يكاد فى وقفته تلك أن يسقط على

إسفلت الطريق. ثم نزل راكبان فاقتنصت مكانهما، ولوحت له ليجلس بجواري. كنت قلقا عليه لكنه لم يعرنى ذرة اهتمام. أرادت إحدى النساء أن تجلس، فمنعتها وقلت: الكرسى محجوز لأخى ..

لوحت له مجددا فأشار بيده كى أمنحها مكانه، ثم أشاح بنظره للخارج. عندها نظرت السيدة نحوه ورأت ظهره فظنته لا يعرفني، وأخذت تتذمر منى حين رأتنى أحجز مقعدين فى مثل ذاك الزحام. قالت كمن يملك حق اللوم: لمن تحجز هذا الكرسى إذن؟

أحسست بالضيق منها وبالغضب من جحوده ومن تصرفاته التى لن أفهمها أبدا. منح سيدة لا يعرفها مكانه وتركنى أواجه الملامة. كان عاديا قبل لحظة، متعايشا مع الزحام، ثم اكتسى وجهه بتعبير حزين وأشاح بنظره إلى الخارج، يشغل نفسه بعد الأعمدة المتلاحقة، ويوجه تفكيره إلى ذكريات بعيدة وعادية، لا تمتاز بشيء عن غيرها، يحاول أن يستغرق فيها وينسي.

لكن سلمى قفزت إلى مخيلته فجأة. وتذكر لقاءهما أول مرة، وكم كان الأمر شبيها بما حدث البارحة. مظاهرة فاشلة اشتعلت من العدم وانتهت بسلمى وياسر يتبادلان القبل فى شارع جانبي. وسألته سلمى وهى تقبله: ألست صغير السن على كل هذه الشجاعة؟

ضايقنى الزحام، وأحسست بغضب عارم نحو الكون بأكمله، ولكزنى كوع السيدة النازحة التى أجلسها ياسر بجواري. وكان أخى يحب النازحين ويحبونه، وكنت أكرههم لأنهم ملئوا المدينة، وكان عددهم يربو على الملايين الأربعة. حضروا من الحرب والجوع والفقر والمجاعة. بأمراضهم وأوساخهم، وأسلوبهم السوقي، ورائحتهم المنفرة، وأطفالهم النحيلين الذين لم يكن يحزننى

منظرهم الرث، بقدر ما كنت أتمنى موتهم، قبل أن يصلوا إلى المدينة لمنازعتى مقعد الحافلة أو أرجوحة الحديقة. لا أنكر أننى أحب الحياة السهلة، وأميل للرحابة وأكره الضيق.

قفزنا قرب المستشفى فى محطة الشهداء، ثم نأينا عن زحامها إلى شارع تحفه الأشجار السامقة من الجانبين. كان شارعا أنيقا، عدا أن ظلال الأشجار قد استغلها الشحاذون، وبائعات الشاي، والباعة المتجولون، فافترشوا أرضه وحولوا المكان بأكمله إلى سوق زاحف.

وحين دلفنا إلى مستشفى أمدرمان، همس ياسر بشيء مضحك فى أذني. قال: رائحة المطهر تذكرنى بالموت .. مرة أخرى يعود إلى ترهات الشعراء. وأعود إلى التفكير بشكل عملى لأدحضها. وضعت الأشياء فى محلها الصحيح، فذكرنى المطهر أكثر ما يكون بالحياة نفسها، لكننى تذكرت الموت لسبب آخر، وذاك أنى قد دلفت إلى المستشفي، بؤرة الزحام والأمراض المعدية، حيث شحوب المكان والوجوه يبعث فى قلبى الرعب.

وكأننا فى قرية مهجورة، لم نجد أحدا ليدلنا على سلمي. طفنا بجميع العنابر والقلق يرتسم على وجه أخي. وكان منظر المرضى أنصاف الأموات، قد جعله يرسم فى مخيلته تصورا سيئا لما ستكون عليه حالة صديقته. هكذا هو دوما، يفكر بقلبه. لكننى لم أكن مثله، قلبى حجر جرانيت أسود، إن انهار العالم وجلست على أنقاضه، سأتصرف عندها أيضا بحكمة بالغة. اخترت ممرضة هزيلة الشخصية صادفتها فى عنبر السل الرئوي، وعرفت منها مكان سلمى بعد عناء.

ذهبنا إليها ووجدناها فى حالة سيئة. وتبرع محمود بشرح الأمر لأخي: ضربها العسكرى بكعب البندقية فكسر ضلعين ..

قال ذلك وربت على كتفه، ثم انزوى وبقية رفاقه فى ركن بعيد.

نظرت إلى سلمى وياسر، وكانت الأولى غير قادرة على الحديث، وأخذت تتنفس بصعوبة بالغة. وبدا أخى للغرابة عاجزا عن الحديث أيضا، كأنه يحمل العالم على كتفيه. يحتضن يد الفتاة إلى صدره ويجاهد ليستجمع ثباته. وتعجبت من التناقض الواضح بين جسد أخى الضخم، وبين سلمى الصغيرة المتماسكة. كان جسد أخى ممشوقاً به عضلات بارزة فى غير إسراف. بناه على مر الأيام بالسباحة فى نهر النيل الذى تكاد أن تغرق فى جوفه كائنات الماء. هزم أفضل السباحين وفض أعنف الدوامات، وعبر نحو الضفة الأخرى فجنى احترام الناس والنهر. لكن ذلك لا يهمه فى شيء الآن، فهو يغمغم فى أذن سلمى فى صوت يشبه البكاء: أنا آسف .. آسف جدا .. إن مثل تلك العاطفة الجارفة تنقص من قدر الإنسان. تجعله قويا وضعيفا فى ذات الوقت كحجر أجوف.

و بتلك الطريقة المحايدة المعروفة عني، أعطيت سلمى عقدا من الياسمين، اشتريته من بائعة صغيرة صادفتها فى الخارج، فتوجه اهتمامها إلي، أرادت أن تقول شيئاً، وبانت فى عينيها نظرة لم أعهدها نحوي.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

انقلب عالم أخى رأسا على عقب وخرجت الأشياء عن نطاق سيطرته تماما. سأله رفاقه فى الأيام السابقة مرارا: إلى أين تقودنا هذه المرة؟ وكان ينظر فى أعماق عيونهم وهو موقن فى صميم نفسه أنه لا يملك الإجابة. صار يشرب الخمر بإسراف، ويدخن بشراهة، ويتحدث عن الموت كأنه أحجية يطيب لى سماعها.

و فى البارحة القريبة، حضرت والدة بهاء ودعت على ياسر. قالت فى حقد: عسى أن تذوق فى المعتقل ما يذوقه ابنى الآن، أنت اسوأ صديق مر عليه فى حياته...

كانت حالتى فى ميزان السعادة أفضل منه كثيرا. وكنت قادرا على التفكير بحكمة، فسمحت لنفسى أن أتخذ قراراته بدلا عنه.

أشرت عليه أن يغلق هذه الصفحة من حياته تماما، وأن يعمل على حماية نفسه وأصدقائه، لأن حملة الاعتقالات ستتوسع دون شك لتشملهم جميعا.

على الفور أحضر خرقة قديمة، مررناها على طاولة القصاصات حتى نظفت، ثم أحرقنا الكتب والمنشورات والأدلة. واستثار سعادتى أن أدفن كل ما يربطه بتلك الفترة التى أخذته بعيدا عني.

أما الخطوة التالية فهى أن يترك المنزل، ويختبئ فى مكان لا تربطه به صلة واضحة. سألنى فجأة: اتذكر الوعد الذى جعلتك تقطعه لي؟

- وعدتك بأشياء كثيرة، أى واحد تقصد؟
- أن تكون بجانبى حين أحتاج إليك ..
- طبعا، لماذا؟
- لأننى أحتاجك بشدة الآن، لابد أن تحضر معى ..

قلت: هذا صعب للغاية، ماذا عن حياتي؟

- أعلم أن الأمر ليس بالسهولة عليك، لكننى أخاف عليك ليس إلا .. لا أريد أن أترك الأشياء معلقة من خلفي، سيقتلنى القلق عليك، أو سيقتلنى إحساس الذنب إن

اعتقلوك بدلا عني، وهم يفعلون ذلك طوال الوقت، يستخدمون أحباء المطلوب كطعم لتسليم نفسه .. وإن كان من شيء فى حياتى أشكر الله عليه كل يوم، فذاك أنك لا تزال سليما معافى. لقد أغفلتك كثيرا، والآن أنا فى حاجة إليك سليما معافى. إن هؤلاء الناس قادرون على تدميرك أيضا، عندها ما الجدوى من حياتى ؟

- و ماذا عن أمى وأبى ؟
- لست قلقا عليهم فقد عاشوا حياتهم طولاً وعرضاً، واكتسبوا خبرة تعينهم على مواجهة المصاعب.. إنه أنت من يقلقني؛ لأننى أرى فيك نفسى فى بداية الطريق، وأخاف أن تضل مثلي.. لا أريد لأفعالى أن تؤثر عليك بأى شكل، كما لا أريدك مناضلا أو بطل تحرير، فقط أريدك سويا وكاملا، وأريد للحياة أن تعاملك بود أكثر من الذى عاملتنى به ...

قال جملته الأخيرة فى صوت صادق مفعم بالعاطفة. وفى القلق المرتسم على وجهه أبصرت المساحة الواسعة التى لا زلت أشغلها من قلبه.

قال لى أيضا كمن يتشبث بالكلمات: لا تنحرف إلى طريقى فهو وحل من طين. والوحل يغرقك رويدا رويدا، ثم يدفنك فى النهاية. أما طريقك أنت، ففيه ستكمن مسيرة الحياة الطويلة المثمرة، والحياة فرصة واحدة، عشها طولاً وعرضاً، وابحث عن الجمال، فهو موجود، لكنه فقط يكمن فى مكان آخر ..

كان قد تبين معالم الطريق الذى لا يفضى بالناس إلى الألم بعد أن جرب سلوك الطريق الآخر. وحين تحدث عن مصيرى رمقنى وبرقت

عيناه الواسعتان بوميض خاطف كأنه الأمل، فتعلقت بذلك الوميض القصير كما يتعلق المسافر بشهاب ضائع فى ليلة حالكة، لا لشيء سوى أن يشد من أزره قليلا قبل أن يذوب فى الظلام.

لملمت أغراضى استعداداً للرحيل معه. حزمنا أمرنا أن نرحل قبل منتصف الليل، فى الفترة التى يخفت الشارع فيها قليلا وقبل أن يحين حظر التجوال. وكان الليل لا يزال طفلا فحظيت ببعض الوقت لأستلقى فى فناء الدار وأراقب السماء.

كان القمر بدرا فى تلك الليلة، يطلى بضوءه الفضى حيطان المنزل بالتساوي. ومذنبات كثيرة سرحت فى سماء الخالق دون قيود، وتبدت لى الأنجم كرذاذ مضىء تناثر على سطح ورقة رسم سوداء. وفكرت فيما أصاب عالم ياسر من خسائر كثيرة، وكيف أننى قرأت المستقبل منذ البداية، وكنت أخاف عليه من مثل هذا المصير. لكننى وبرغم كل شيء أحس بالجميل نحو كل ما حدث، فصداقتنا قد توطدت واكتسبت من العمق والنضج الكثير. وربما قربتنا الأيام القادمة أكثر، وربما تنصلح الأمور كلها، ونجد أن الحل موجود لكننا عمينا عنه. أخذتنى حالة التأمل تلك بعيدا، وكنت أحصى النجوم، وأبتسم للسماء كأننى أشكرها على الفرج والمصيبة على حد سواء. وبينما أنا غائب فى تأملاتى طرق الباب فى عنف فانتفضت من مرقدي.

كان الباب على وشك أن ينكسر فأدرك كلانا من عنف الطرقات هوية الزائرين. لكننى ألهمت فى تلك اللحظة بفكرة مفاجئة.

دفعت ياسر نحو الباب وفتحته فجأة، حتى صار مختبئا فى زاوية الباب الموارب الحادة، بينما خرجت إلى الشارع.

هناك وجدت نفسى فى مقابلة رجلين، أحدهما صغير السن يضع نظارات شمسية فى عتمة الليل، والآخر قد جاوز الثلاثين دون شك. ونظرت من خلفهما فرأيت سيارة بيضاء ذات نوافذ معتمة، يرتفع عن قمتها هوائى اللاسلكى الطويل.

سألنى المخبر الأكبر سنا وهو يخترقنى بعينيه: ياسر عثمان موجود؟

و كنت سأحميه بدمي. أهمدت ملامحى وأشرت بيدى قائلا فى برود تام: بيتهم فى آخر الشارع ...

خلع المخبر الآخر نظارته ونظر نحوى فى شك. بدا متحاذقا للغاية وهو يقول كمن يضرب الصخر بمنجل: هذا منزله وأنت ياسر عثمان لا تكذب ...

لكننى كنت باردا كالموتي. لم تطرف عينى وأنا أكمل: ذلك المنزل حيث تقف الشجرة أخبرتك ... وأشحت بيدى متذمرا ثم أعطيتهم ظهرى وعدت إلى داخل المنزل فى خطوات عادية، ليست من الوسع ولا من الضيق فى شيء.

أغلق أخى الباب غير مصدق لما فعلته، وأرهف سمعه لصوت محرك السيارة وهى تبتعد قليلا.

و فى الثوان المعدودة التى أتحتها بمناورتى، حملنا حقائبنا وتسلقنا حائط المنزل إلى المنازل المجاورة، عبرنا من خلالها إلى الشارع الرئيسي، وقفزنا داخل أول حافلة مرت.

❖❖❖❖❖❖❖

تبعت أخى فى مشيته. ووطأت نفس الأرض التى كان حذاؤه يطؤها، وكأننا نمشى فى حقل ألغام. وكان أخى يستبين طريقه كخفاش فى الظلام. ولم أكن قد عرجت على ذلك الحى قبلا، لكنه ولسبب ما، بدا مألوفا للغاية، ربما لأنه فى مجمله، كان شبيها بأحياء الضواحى الأخري.

عبرنا الشوارع المظلمة، وكانت مياه البالوعات قد فخخت طريقنا بالحفر الصغيرة. ثم انحرفنا إلى أطراف الحي، وامتدت الميادين الرملية المظلمة إلى ما لا نهاية، مشينا خلالها حتى انصقلت أحذيتنا بطبقة رملية شاحبة. أخيرا وقفنا أمام منزل طينى قديم، بنى بمنأى عن عيون العالم كله، كأنه آخر البقاع فيه.

دق أخى على بابه الأزرق المموج، فانفتح بعد دقائق على إيقاع صرير حاد، وأطلت من المنزل امرأة عجوز، ترتدى ثوبا أبيض ونظارات سميكة، وتنحفر بين تجاعيد وجهها حكمة عقود كثيرة.

ضمت ياسر من فورها فى حفاوة بالغة تبوح بمعرفة عميقة. ولم أستغرب مثل تلك المعاملة الحسنة من جانبها، فهو يعرف المدينة والناس جيدا، أضف إلى ذلك لطفه وحسن معاملته للمسنين. فهو على عكسى صبور معهم، يستمتع بقصصهم وأحاديثهم المضجرة، مما يجعلهم يحبون رفقته.

ضمته السيده العجوز فبدت قصيرة بشكل واضح، تنتهى قمة رأسها عند صدر أخى العريض. وقالت: تفضل يا وليدى ..

جلسنا فى فناء دارها الفقيرة. وأصرت إلا أن تكرمنا. بينما أصر ياسر ألا تكلف نفسها مشقة إعداد شاى أو عشاء فى هذا الوقت المتأخر. قام إلى زير فى طرف الفناء وشرب كوزا من الماء لترضي.

أخبرها عن سبب قدومنا فرحبت بوجوده. قامت إلى المطبخ وعادت بفانوس فيه شعلة واهنة. ونادتنا فتبعناها إلى غرفة منعزلة عند طرف الفناء ...

دفعت باب الغرفة ودخلت، فدخلنا على أثرها. وضعت الفانوس على طاولة حديدية وقالت: الغرفة فيها نور لكن الكهرباء مقطوعة ..

تكشفت تفاصيل الغرفة شيئا ف شيئاً على ضوء الشعلة الواهنة. الغرفة واسعة دون أدنى شك، لكنها تشبه عنبر المستشفى وفيها أسرَّة كثيرة، الحيطان من طين، والأرض من تراب، وهناك نافذتان، لا ثلاثة، ورائحة المكان فى أنفى مميزة، هى مزيج من رائحة الطين والبخور. أحسست بقشعريرة فى جسدي، وضوء الفانوس واهن ومخيف، هاقد انطفأ الآن.

عادت الكهرباء فى وقت لاحق. فأضاء أخى النور. لمبة من ٢٥ وات على الأكثر، تتدلى من سقف الحجرة بسلك أسود يتأرجح كلما داعبه الهواء. سقف الغرفة مائل قليلا، ربما ليصرف مياه الأمطار. الغرفة واسعة كما ظننت، فيها أسرَّة كثيرة من الحديد وعليها مراتب قطنية، وعند منتصف الغرفة تماما، انغرست فى الأرضية الرملية أرجل طاولة حديدية كبيرة.

خرجت السيدة العجوز إلى السوق فى الصباح، فأرسل ياسر معها رسالة إلى هاشم. وفى منتصف الليل حضر من تبقى من رفاق أخي.

كانت تلك بداية مرحلة الاختفاء الطويل. وفى تلك الغرفة الواسعة، وسط أناس لا يبالون بوجودي، لبثت مع ياسر لأيام لا أعلم عددها.

كانت الشمس تشرق وتغرب فى الخارج. وازداد الشتاء توغلا. أخذت الرياح تأتى من الفراغ المحيط بنا وهى محملة بهمهمات ليلية غريبة. أضحى لدى وقت كثير. وكنت أصحو فى كل صباح فيملؤنى إحساس رائع بالعزلة، كأننى واقف نصب نفسى فى أرض لم تطرقها قدم الإنسان. أرض بعيدة ومعزولة عند آخر بقعة فى العالم.

وجربت كل شيء ثم انشغلت بالرسم. وكانت لوحاتى كعادتها مبنية على خيالى المحض، لكنها تبدو واقعية ومفهومة، كأنه الجمال المزعوم، الذى أستقيه من مكان آخر، أو ينبع من دواخلى المظلمة.

ازداد إحساس الغربة فى دواخلي. وكنت أسمع بنصف بال من فى الغرفة يتحدثون فى مواضيع لا تهمنى فى شيء، العولمة والدين وحقوق المرأة. يدخنون السجائر، ويلعبون الورق. وكنت سيدا على فمي، لا أحدث أحدا ولا يحدثنى أحد. والوقت يركض لاهثا، وتندفن الساعات فى العدم. وتزورنا بعض الوجوه عدة مرات، حتى تضحى نفس الوجوه مع الوقت.

لكن ذات صباح شتوى بارد، ونحن فى آخر العالم، حيث لا حس ولا صوت فى صباحاتنا، سوى زقزقة عصافير صغيرة تحط على حبال الغسيل ثم تطير، انفتح باب الغرفة وأطلت علينا سلمي.

مشت نحونا بخطى مسرحية متجاهلة دهشتنا، كأنها أرادت أن تؤكد أنها قد عادت بكامل عافيتها وبهائها القديم. لم يكد يتغير فيها شيء سوى تلك التنورة الجديدة، التى أبرزت انثناء فخذيها، واستدارتهما التى تشبه قوس الرماية.

راقبت أردافها وهى تعبر الغرفة جيئة وذهابا، توزع الكتب وصناديق السجائر على الرفاق، وتعلق نظرى بشفتيها المنفرجتين حين ضحكت، وبصدرها البارز وهى تضغطه قائلة بصوتها المبحوح المحبب: لقد شفيت تماما الآن، وانتهى أمر الألم.

غنى محمود احتفالا بها، وتبارى البقية فى مطارحة الشعر، وحضرت السيدة العجوز تحمل الشاى إلينا. أصرت أن تذيق سلمى طعم شايها. قالت السيدة وهى تملأ الأكواب للصبية: كلهم وليداتي، حميتهم من زمان الاستعمار.

رويدا رويدا تغير الوقت وحل الظلام، وسمعنا الأذان يتردد من مسجد بعيد. كانت الغرفة تزداد شحوبا، والضوء الأصفر يشيع فى عينى النعاس والوهن. هبت سلمى واقفة كتمثال من الأبنوس الفاخر، وتعلقت عيناى رغما عن إرادتى بأردافها المكتنزه. كان أوان رحيلها قد حان، وأحسست بقلبى ينقبض ..

رافقها ياسر ومشيت معهم، حتى أوصلناها قرب الباب، وهناك وقفت سالومى بعيدا عنا، محنية الرأس، تدفن عينيها فى التراب. اقترب أخى منها، مد باطن كفه وأسند رأسها فى حنو بالغ، ورأى فى عينيها منبت الدموع فاحتضنها على الفور. كانت لحظة أثقلتني.

انفك لجام دموعها وبكت هنيهة، ثم صمتت كما ابتدأت فجأة، وابتسمت وهى تمرر يدها على خد ياسر، الذى انتقلت عدوى العاطفة المفاجئة إليه فمد يده وضمنى إليهما، وكان صدره واسعا، فوجدت نفسى فى عناق جماعى طويل. بينما شمس الغروب تلفظ رمقها الأخير، والمساء يبنى عشه من حولنا، والرياح تداعب أذنى بهمهمات غريبة، كنت فى تلك اللحظة المثقلة بالمشاعر، ألصق جسدى بجسد سلمى وأحس نحوها بانجذاب جنسى مريب.

- ٣ -

خرجت من منزل يعقوب ممتلئاً بمشاعر متضاربة، ووقفت فى عرض الشارع أفكر فى خيارات ذهابى إلى المنزل..

يمكننى أن أمشى عدة دقائق إلى السيتى هوول، ثم أستقل مترو الأنفاق (خط فرانكفورد)، ليعبر بى نهر سكووكل، إلى ماركيت ستربيت الذى أعيش بالقرب منه. سيكلفنى هذا الخيار دولارين، لكن يمكننى أيضا قيادة السيارة.

قلبت الأمر فى ذهني، لو أخذت المترو لن أرى شيئا طوال الطريق إلى المنزل، اللهم إلا الإعلانات التى ستمطرنى بها حيطان المحطات. ذلك أفضل، اليوم أنا ضجر من هذه المدينة، عرفت شوارعها وحفظت نزواتها فى أوقات اليوم المختلفة.

مشيت صوب السيتى هوول، وكان الجو باردا للغاية فى تلك الساعة من الليل. الصقيع ينفذ عبر الأشياء، والناس يسكنون فى معطافهم الشتوية. أضواء الكريسماس والسنة الجديدة تلتمع هنا

وهناك، وبعض العمال يضعون لبنات استعراض المهرجين السنوى فى أول أيام السنة الجديدة. هاهى سنة أخرى ستفلت من يداي، أراها تضيع فى الأنوار المتلألأة وفى التهانى على واجهات المحلات. كسنوات كثيرة قبلها، لا أدرى كيف قضيتها أو إلى أين قادتني. حقا هو غريب أمر الزمن. فكرت وأنا أمشى أن هذه اللحظة قد أصبحت ذكرى فى اللحظة التالية، وأن الذكريات لا شيء سوى مخيلة نحورها حسبما نشاء، نحذف أشياء ونضيف أخري، حتى يعدو الماضى فى أذهاننا لا شيء سوى ما نتذكره من أنصاف مواقف.

كانت الأنفاق مظلمة، وعربة المترو قوية الإضاءة. ولو نظرت إلى الخارج لن أرى سوى انعكاس نفسى على النافذة. فكرت طوال الطريق إلى منزلى فى يعقوب، ولم أعد أفكر منذها فى شيء غيره. تذكرته وهو يلقى بكلمته الغاضبة فى اجتماع الجالية السودانية، وامتزج ذلك بصورته قبل دقائق، وهو يروى الأحداث دون اكتراث، أو إدعاء للبطولة. وبدا الأمر فى عقلى منطقيا. لم أفعل شيئا فى حياتى يستحق الثناء! قال يعقوب: وتلك الألقاب الكبيرة أنا لا أستحقها. إن من يستحقها حقا قد مات، ولولاه ما كنت أجلس الآن معك .

ورسمت فى عقلى صورة لياسر أمسكت بأطراف خيوطها من البورتريه المبهم. احتمالات كثيرة قفزت إلى عقلى وتساؤلات أكثر: لماذا قتله؟ وما الذى حدث بعدها؟

إن القصه بأكملها لا تشير إلى مثل تلك النهاية الدموية. كل شيء فى حياة يعقوب هو عادى فى نظره، يرويه فى هدوء وعدم

اكتراث، بينما أنشدّ أنا كالساذج إلى حديثه بكل كياني، وهو إحساس لم أجده فى الكتب التى كدس بها أبى مكتبتي، ولا فى المحاضرات الطويلة التى ألقاها على كثير من الأقرباء عن حالة الوطن؛ ربما لأن الأمر لم يبد واقعيا وقتها كما هو الآن. كانت قصص أولئك تملؤها المبالغات والأشواق، ربما لكى أعتنق عاطفتهم نحو الوطن، لكن الأمر بدا مختلفا مع يعقوب، كان لاذعا لدرجة أننى لم أحس معه أبدا بذلك الابتزاز العاطفي، كما أن فى تعابير وجهه ما جعلنى أجزم أنه أصدق الناس مع نفسه. فهو يروى الأحداث كما يتذكرها دون ادعاء للبطولة، ودونما اكتراث لرأيى فيه. ويوم ألبسوه ثوبا غير ثوبه فى اجتماع الجالية السودانية، كان لاذعا ولم يتوان عن مهاجمة الجميع، أولئك الذين منحوه الألقاب الكبيرة: المناضل .. المبدع .. السجين الجسور..

من أين له هذا؟ وكيف تحورت القصة على هذا النحو؟

دلفت إلى منزلى الصغير. غرفة نوم لواحد، وصالة تكفى أربعة بالكاد. كان قذرا للغاية، لم أنظفه منذ عشاء الكريسمساس مع كيشيا. الطعام قد نشب أظافره فى الصحون، والبكتريا تأكل بقايا العشاء الرومانسي. رائحة المنزل لا تطاق. ألقيت بالصحون إلى مغسلة الأطباق، وفتحت النوافذ والمدفأة. شغلت التلفاز لأهدئ من روعي، فوجدت الشرطة تطارد مراهقا مخمورا فى بث حي، شاهدت الموقف حتى أردوه قتيلا.

أغلقت التلفاز وذهبت إلى الثلاجة. كنت أشعر بالعطش واحتجت أن أشرب بعض البيرة. مجرد عادة طورتها فى المدرسة الثانوية، ولم أعد أشرب الماء بعدها إلا نادرا. وقد أضنتنى هذه العادة فى أيام الجامعة، حيث كنت أنتظر حلول المساء لأشرب البيرة فى المنزل، أو يضطرنى العطش أحيانا لشرب الماء فى حرم الجامعة.

وحين عملت حارسا ليليا لمركز التسوق، طردوني بسبب علبة بيرة سددت ثمنها من راتبي. أما المنزل فكان مقلبا لعلب البيرة الفارغة. وكان أن زارني أبي ذات مرة بعد أن سافرت إلى فيلادلفيا للالتحاق بالجامعة، وسكنت في غرفة صغيرة زينتها بتل من علب البيرة الفارغة. ولم يكن أبي ليهتم كثيرا بأنني قد جاوزت السن القانونية في ذلك العام وصرت مستقلا عنه حسب القانون. أرادني أن أشبهه في كل شيء حتى إن جعلني ذلك منبوذا من المجتمع.

كأن لي خياراً في ذلك ! حضرت العائلة في الثمانينيات بعد ولادتي بسنة. والآن بعد عشرين سنة ونيف، أمشي في الشوارع وأحس بأنني صاحب المكان.

ضرب أبي تل البيرة بقدمه وصرخ داخل رأسي: لو عدت بك إلى قريتنا في السودان، لن تصمد يوما واحداً، لو كنت مكانك لشكرت نفسي، لأنني قد جنبتك من المعاناة الكثير ..

لا بأس ... لا بأس. شكرا جزيلا! لست غاضبا عليه، فهو لم يقصر في واجباته نحوي وأنا لم أكن قديسا بأي حال. لقد كفلني في قضية تدمير الممتلكات وأخرجني من السجن، وهددني بالتبليغ عني حين دخنت الماريجوانا، ودفع قيمة رهاني العاثر في مسابقة الهيب هوب. وحين تخرجت من الجامعة، بكى من الفرح.

لكن شيئا ما ظل مفقودا بيننا. شيء أفسد أوقات السلام المعدودة التي ننعم بها، وأوجد له سببا للصياح مجددا: لو عاد بي الزمن إلى الوراء، كنت سأربيك في السودان، لكن الزمن لا يعود؛ لأن الأشياء مكتوبة أصلا في كتاب القدر ..

ثم قابلت يعقوب، وسكننى بتلك الهالة التى أحاطته، وبسحره الذى أخذ ينفيه عن نفسه كلما سنحت له الفرصة. والآن أنا وحيد فى منزل هو أيضا يحوى ذكريات كثيرة لى مع كيشيا، لكن فى عقلى سلام. وإن كان فى سماعى لقصة يعقوب خطر، فهو إذن خطر محسوب الحساب. فبينما حملتنى القصة إلى قلب الوطن يوما بيوم، كنت أجلس آمنا بين جدران منزله فى الساوث برووود ستريبت ... كل هذه الأفكار تدافعت إلى رأسي، وتساؤلات كثيرة امتزجت فى عقلي. وضعت علبة البيرة بجانبي، ونمت قبل أن أشربها.

❖❖❖❖❖❖❖

عزمت الذهاب إلى منزل يعقوب. كان الصباح مشرقاً طوال الطريق، والشمس تنشر أشعتها الخافتة على قمم المباني. الهواء نقى وبارد، والأشجار لامعة الاخضرار كأنها نامت طوال الليل. كنت قد فكرت فيه كثيرا حتى زارنى فى أحلامي. حلمت أننى هو، وأننى فى نقطة معزولة وبعيدة، لم تطؤها قدم الإنسان. حورتها فى منامى إلى غيتو فقير فى نيويورك، وكان من فى الحلم يتحدث بلغة لا أجيدها.

مشيت من المحطة إلى منزله، ضغطت الجرس، وطرقت الباب كثيرا، ثم بحثت عن المفتاح حتى وجدته أسفل أسطوانة إطفاء الحريق، لكننى حين غرسته فى مزلاج الباب، باغتنى صوت أنثوى من الرواق: ما الذى تفعله؟

أدرت رأسى يمينا نحو مصدر الصوت، وتذكرت صاحبته ما إن وقعت عينياى عليها.

لم أعد أرى شيئا غير وجهها المستدير، وعينيها غامقتى الزرقة وهى تخترقنى بنظراتها دون رحمة. كاثرين، تلك المرأة الغامضة التى عرفت فى وقت لاحق أنها زوجة يعقوب، تقف الآن عند آخر الرواق فى حلة شتوية صبوحة الألوان، وينسدل شعرها الكستنائى على وشاح مطرز يلتف حول رقبتها. أخذت تتلفت فى قلق ذات اليمين وذات اليسار، كأنها تبحث عن شركائى فى الجريمة. وتطمئن إلى أنها على مبعدة منى تكفى لأن تجفل فى الوقت الملائم حين أهاجمها.

ابتسمت من المنظر رغما عنى، واتسعت ابتسامتى أكثر وأنا أردد: مرحبا كاثرين .. ألا تذكريني؟ أنا صديق يعقوب، قابلتكما خارج اجتماع الجالية السودانية...

- اوه، ما الذى تفعله هنا؟
- جئت لزيارة يعقوب، ولم يفتح الباب ..
- هو فى الداخل ؟ ظننته لا يزال فى المستشفى ..
- هو فى الداخل، خرج قبل عدة أيام ..
- فى هذه الحالة، قل له أننى عرجت على المنزل لأخذ حاجياتى ..
- آلن تدخلي؟
- لا .. فقط قل له ذلك لو سمحت ..
- ولم لا تخبريه بنفسك؟

ضغطت زر المصعد، وقالت: لأننى لا أريد رؤيته ..

تصرفت بحماقة وتبعتها إلى داخل المصعد دون تفكير. وحين انغلق الباب علينا، لمت نفسى قليلا. هل كانت علاقتى بيعقوب قد توطدت بما يكفى حتى أعنى بأشيائه على هذا النحو؟

أم ترانى تبعتها لأنها ذكرتنى بكيشيا. رغم أن الأخرى سمراء ومنتصبة القوام، تتحدث وترسم ما تقوله بيديها فى الهواء. بينما كاثرين يغلب عليها الهدوء، وهى باردة كمقعد حديقة فى الشتاء. لكننى وحين وقفت بجوارها فى المصعد أحسست بأننى أقف صوب كيشيا. هى نفسها تلك القسوة المقيتة، ونفس الوجه الذى أراه الآن خالياً من كل التعابير. فار الدم فى عروقى وانقلب غضبى على كيشيا نحو كاثرين. ورغم أننى قد بذلت جهدا عظيما لأخفى ما أحسست به من احتقار نحوها، إلا أنه بان على وجهى المتجهم، الذى رأيت انعكاسه فى مرآة المصعد. سألتها فخرج صوتى أجشا وعاليا: ما الذى حدث؟ كان وجهى قريبا من وجهها، يفصلنا شبر أو أقل، والمجال المحيط بجسدى يخترق مجالها ويطغى عليه. وأحسستُ بالخوف منى يملؤها دفعة واحدة عند هذه النقطة. ربما فكرت فى رجل أسود يقتل فتاة بيضاء، ويمثل بجثتها فى مصعد، أو ربما لم تفعل. لكنها على أى حال أحنت رأسها فى استسلام وهى تقول: صديقك يعقوب ليس الرجل الذى كنت أظنه، لقد ظننت أننى أحبه، لكننى عرفت معنى الحب مع رجل آخر، رجل أكثر صدقا مع نفسه .. نفس العذر الواهي. قلت: هذا اليعقوب أبجله، لا أحد فى العالم أكثر صدقا مع نفسه منه ..

عندها وكأن صلواتها قد أستجيبت، وصل المصعد إلى الطابق الأرضي، ورن الجرس معلنا عن سلامتها، انفتح الباب فركضت إلى الباحة، وهناك سعى رجل سودانى عرفته من مشيته نحوها، وطوق

خصرها بذراعيه حتى استكانت ملامح وجهها، وصفت عيناها وعادت زرقاء كمياه الينابيع المالحة. قالت كأن تدفق الأدرينالين فى عروقها قد أثارها، فقررت أن تعيد التجربة: لنتبادل أرقام التليفونات، سأتصل بك لأرتب أخذ حاجياتى ..

أخذت رقمها وأعطيتها رقمي. ركبا معا وانطلقا على عجل، بينما وقفت فى الشارع فترة أنفث عن طاقة الغضب التى ملأتنى ...

عدت إلى شقة يعقوب، دخلت فوجدته يجلس أمام النافذة الزجاجية الكبيرة، يرتشف كوبا من الشاي، قلت فى غضب لم يكن قد بارحني: لماذا لم تفتح الباب إذن؟

أشار إلى الشارع وقال فى هدوء: رأيت كاثرين تدخل من بوابة العمارة فظننتك هي، أنا لست مستعدا لرؤيتها الآن ..

قلت: لقد أغضبنى حضورها فعلا ..

ضحك وقال: لا شيء يستحق الغضب .. وابتسم فى وجهى وهو يضيف: أنت صديق غيور وأنا أعلم ذلك، كل ما تفعله لأجلى يدل على نقاء معدنك، لكن لا تهدر غضبك على توافه الأمور ..

كانت جملته الأخيرة قد أفرغت ما تبقى فىّ من ثورة، فاستغربت وأنا أفكر فى اندفاعي. معرفتى بيعقوب وبقائى بجانبه حتى الآن هو أيضا محض اندفاع. ماذا فى الكون يربطنى بهذا المخلوق فيجعلنى أهتم لأمره على هذا النحو؟ وكيف أمكن له أن يتحكم بانفعالى كأننى دمية خيوطها فى يديه، ثم هذا الغضب! ظننت أننى قد كبرت على نوبات الغضب هذه، لكن يبدو أنها لا تزال كامنة فى أعماق نفسى. كنت أغضب من أبى فى الماضي، أغضب وأدمر ممتلكات الغير، أغضب

فأشرب الكحول وأدخن الماريجوانا، أغضب من أناس لا أعرفهم وتملؤنى الشجاعة فينفك لجامي، وأخوض معاركا لا تفضى إلى شيء. ما الذى أنا غاضب منه إلى هذه الدرجة؟ قال يعقوب كأنه يطفئنى بكبسة زر: اجلس يا صديقي، لحديثنا بقية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ارتشف يعقوب رشفة الشاى الأخيرة واعتدل فى جلسته، أسند قدمه المجبورة إلى طاولة صغيرة. نظر إلى الشارع، واكتسى وجهه بالتفاؤل. قال:

المهم، صرت أقرب إلى سن التجنيد، وكانت الحرب فى أوجها، حرب أهلية فى الجنوب، وأخرى ضد جيوش المعارضة فى الشرق. وكنت أرى من يكبرونى قليلا، يؤخذون من الشارع فى شاحنات التجنيد الإجباري، ويعودون جثثا مشوهة... أى تعبير مدهش يرتسم على وجوه الأمهات! ما بين شد وجذب تستقبل المعزين والأحبة، وأولئك الذين تملى عليهم وظائفهم الرسمية أن يدسوا أنوفهم وسط جموع المنتحبين. ما بين شد وجذب يضيع الفتى .. ابكى يا أم الفتى حبيبنا الذى ضاع .. إياك أن تبكى على شهيد يا كافرة.. يدسون أنوفهم فى أحزان الناس، ويلوثون الأحزان البشرية بموسيقى الجهاد وآيات الشهادة .. وأحسست بالخطر القادم، نفس الذى أحسسته قبل إعتقال ياسر. وكنت أرى وأسمع وأحس بما حولي، أشياء من الماضي، وأخرى ستحدث، وكنت قادرا على استشعار المستقبل، فتشبثت بلا مبالاتى وقلت لنفسي: أنا لن أواجه ذلك المصير كبقية زملائي، فأنا أكثر من مجرد رقم عشرى فى

إحصائية للجثث، وسأظل أمنح البداية كل المعطيات الملائمة لتتشكل النهاية حسبما أهوى ...

ولكى أمنح النهاية معطيات مختلفة عن بقية زملائى فى الصف - أولئك الذين سيضحون رفاقى فى الموت غدا - انعزلت فى مقعد بعيد أتاح لى رؤية زملائى يخوضون فى سباقهم المحموم للإجابة عن الأسئلة البسيطة، والتحصيل العلمى اللامجدي. سباق فئران إلى جبن المصيدة. كنت أبتسم فى دواخلى حين يرمقنى أحد منافسى القدامى بنظرة انتصار أكاديمى ساخرة. لأننى أعلم أنهم عاجزون عن أن يمسوا قلب الحقيقة بأننى أسخر منهم أيضا فى دواخلى وأراهم قتلي، أبدانهم مثقوبة بالرصاص. إننى أشم رائحة الموت فى كل واحد منهم لذا أهمد تماما وأمنحهم ميزة التفوق علي، فأتخلص بذلك من شفقتى عليهم، تماما كما يحقق الجلاد أمنيه المحكوم بالإعدام ويمنحه وجبته الأخيرة قبل أن ينتزع روحه.

كنت أرى وأسمع وأحس بما حولي. أشياء من الماضي، وأخرى ستحدث. وأطل الموت من حولى أكثر من ذى قبل. صار قريبا كعدو أسمع تكسر الأغصان تحت قدميه، وهو قادم نحوى من كل صوب، لكننى لم أستسلم، وجعلنى الخوف أكثر قوة، وأكثر قدرة على الاستمرار فى السعى نحو المصير المختلف. وكنت أنظر إلى المرآة فى كل يوم وأذكر نفسى بأن الحياة طلقتى الأخيرة، وأننى سأحيا وأختار طريقى بنفسي. وأحسست بالحياة تتسلل إلى جسدي، أكاد من فرط ذلك الإحساس الطاغى أن أحس بالدم الذى يتدفق فى عروقي، وأن أسمع دقات قلبى المطمئنة، كأن القدر قد اصطفانى وانتزعنى من القبر لأحيا من جديد، وانمحى الخط الضيق الذى رسموه لى وأعمونى عما سواه، وتبدد انتظارى الرتيب للموت،

وتشبثت بلامبالاتى بالناس ورسمت كثيرا. كأننى أسجن الماضي والحاضر فى أوراق الرسم، وأصبو نحو المستقبل. وكان أخى بعيدا عن عقلى وناظري، وأصبحت ممسكا بزمام الواقع أحركه حسبما أشاء. وفى كل ليلة نمت فيها ملء عيني، أخذت الكوابيس تزورنى بوجوه أناس أعرفهم ويعرفونني. أناس أكون فى المنام مشغولا عنهم بالبحث عن نفسي، فقط لأطمئن أننى قد بارحت الكابوس قبل أن يستفحل. وذات يوم وجدت نفسى جاثما بينهم. " كنت فى قلب ذلك الكابوس طوال الوقت والآن سأبارحه إلى الأبد ". وأحسست بشيء يمشى أسفل أنفى فانتفضت إلى عالم الواقع، ووصلتنى نبرة أخى المعتذرة المحببة: اعذرني، كنت أتحسس شاربك الجديد لتوي... كان ياسر قد عاد من المعتقل، وجلس بجوارى فى طرف السرير حيث كنت أنام .

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

كان إحساس من الغرابة يصبغ عالم ياسر بأكمله بينما وقف عاريا فى مواجهة المياه. أغلق عينيه وفتحهما عدة مرات، وتلفت من حوله كمن يبحث عن حلقة مفقودة.

كانت الطحالب الخضراء لا تزال تتخذ من سطح الحمام مسكنا لها. والمياه المندفعة، تتبدى له الآن كتقنية غاية فى التعقيد. تماما كالسيارات التى تبدت له قبلا وكأنها تنطلق بسرعات خارقة للطبيعة، بينما المارة يمشون فى الشوراع بوجوه خالية من التعابير.

إذن فالكون لم يتوقف لأجله. الشمس تسطع والسماء زرقاء والأرض ترابية اللون. حقائق لا تزال تشكل أبجديات الحياة. وحين

خرج إلى الفناء، كانت الشمس قد غربت فى موعدها المعتاد، ووجد أسرته قد تجمعت حول الموقد لشاى المغرب بنفس الطريقة القديمة، كأنهم هم أيضا جزء من نظام كونى لا يتغير. غلى الماء فى الإبريق وأطفأ جمر الموقد، وأضفت لكوب ياسر نفس عدد الملاعق من السكر والتى كان يفضلها قبل اعتقاله، ثم ناولته إياه.

لم يكن قد وجد فى فرحتنا به تلك الحلقة المفقوده بينه وبين الأشياء بعد. وحين رقد فى المساء، وشاهد شجرة النيم التى تقف طوال النهار وحيدة، وقد سقط ضوء القمر عليها فى تلك الليلة فأضحت شجرتين، تبدى الظل والأصل كالخداع البصرى ...

كل شيء غريب آخر أخذ يدفعه إلى التفكير، كأنما الأشياء العادية تخفى سرا لابد أن يجهد المرء لاكتشافه. فكر فى تلك الليلة كثيرا، فى المدينة، وقد ذابت كقطعة ملح فى صمت الكون، ومضت فى سبات عميق، وفى البيوت الأخرى وكيف أن سقف السماء البهيج قد قسم على كل بيوت المدينة فى إنصاف تام. ولما تبدى بعض العدل الكونى فى الفكرة، استطاع أن يغيب ناظره فى السماء، وينام بذكرى النجوم البهيجة ...

وظللت أرقبه لأيام، وأرقب صحن غدائه الذى لا يمسه، وكوب الماء نصف الفارغ بجانبه، وأعقاب السجائر الكثيرة أسفل سريره. ثم ذلك التعبير المبهم الذى كان يعبر وجهه فى المساء، قبل أن يشيح برأسهَ و يغيب ناظره فى السماء، باحثاً عن العدل المزعوم.

ثم اكتسب عادة يومية جديدة يمارسها كل صباح. يصعد إلى سقف المنزل ليرقب الشروق. يرى حزمات الأشعة تفر بين فرجات

السحاب لترسم خطوط هروبها على المدى الممتد. وتتبدى فى الظلام أحياء أمدرمان الكثيرة. كان قادرا على رؤية الضوء يتسلل إليها كلها بنفس الإنصاف الكوني. يسافر حرا فى جميع الاتجاهات، ولا يقف فى طريق ناظريه سد سوى عمارات غرست وسط البيوت الفقيرة، تحجب رؤيتة وتدفع بها إلى مسارات جديدة. فيمتد نظره إلى أحياء الثورة البعيدة. وإلى آخر النقاط هناك، ثم يدور ويرتد ببصره إلى مبنى البلدية حين يلامس الضوء قبته العتيقة، وينسكب لون برتقالى ممتنع فى السماء فجأة، فتطل أحياء الملازمين وبانت والعباسية، كلها أحياء له فيها أناس يحبونه. وهو الآن يتسول رؤية العدل الكونى فى كماله على الأرض التى تتقاسم الضوء فى تلك اللحظات دون جور، ثم يبعث شارع الإسفلت من جديد، وتنساب هرجلة المارة، ويعلو صياح الباعة المتجولين، ويتحلق الناس حول بائعى الحليب المغشوش، وتمتد طوابير الخبز النحيل. وتخرج دوريات الشرطة والتجنيد الإجبارى ومكافحة الشغب، وتطغى مزامير السيارات، ويتصاعد دخان العوادم إلى السماء، فيتبدد ذلك الإحساس بالعدل الكوني، وينتظر المساء ليبحث عنه فى سمائه مجددا.

جرت الأمور على منوال الحلقة المفرغة، وضاق صبرى منه. كنت أرى وأسمع وأحس بما حولي، وأحسست بالألم الذى اجتاح عالمه بأكمله. لو تحدث إلى كنت سأنصت، وأساعده على الخروج من فخ نفسه كما فعلت معه فى ليلة الهزيمة، بيد أن هذه المرة، كانت أعنف من كل المرات السابقة. لم تكن هناك من قوة فى الأرض قادرة على أن تدفعه للحديث عنها.

مرت أيام كثيرة وحبل الحديث مقطوع بيننا. وذات يوم وجدته يضرب كفا بكف، فتجرأت وسألته عما حدث هناك ...

مثل هذه الأسئلة لا تطرح بهذا الشكل، فهى من قبيل الأسئلة التى قد تحل الموقف، أو تزيده تعقيدا.

زادته تعقيدا. قال: المعتقل تجربة هدامة، يصورها البعض على أنها تجربة بطولية، لكن ليس من بطولة فى السجن .. إننى الآن أعلم موقعنا جيدا، نحن قاعدة الهرم، وكلهم يستغلوننا، كل واحد حقير منهم ..

لم يضف شيئا على ذلك ويا ليته فعل. هاقد أوغل الآن فى طريق الألم، حتى تطور الأمر إلى حقد دفين فى صوته. آه لو حدثنى ودلنى على الطريق الذى لم يسلكه حين كانت الأمور سانحة، كنت سأنصت إليه، وكان سينصت إلي، وربما ساعدنا بعضنا البعض على الخروج من هذا الفخ. عندها فقط، وبهذه الطريقة قد تستقيم أموره وتكتمل معطيات حياتي. ولن أبالى إن كنت قريبا أو بعيدا عن سن التجنيد، أو إن رمقنى الناس بإشفاق فى الشارع ورسموا فى أذهانهم تصورا لموتى الوشيك، لأننى لن أذهب إلى الحرب ولن أموت. فقط لو واجهنى بالحقيقة كنت سأعرف طريق الخلاص بنفسي، لكن ما لاقاه هناك، كان ببساطة أكبر مما تخبره الكلمات.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وحين كدت أيأس من أخى الغارق فى الآلام، كان يبحث عن إشارة فى السماء تمنحه اليقين بأنه ليس كماً مهملاً. فاعتزل سكان الأرض شهورا، وعاش بناظريه فى السماء، حتى أتته ذات ليلة إشارة ..

كانت إشارة ما رأينا ولا سمعنا بواحدة مثلها، ولا حدثتنا الجدات عن شبيهة لها فى الأحاجى القديمة. نبع الوهج الأحمر فجأة من نقطة بين السماء والأرض، واشتد وتلألأ، وداخلته ألوان كثيرة، كزهرة تفتحت من العدم. تعلقت جوارحى به ومددت يداى نحو السماء، فطوقنى فى عطف ودفء يغوي. أخذت عيناى تنهل من بهائه حتى بلغ ذروته، وانزوى كما جاء من نقطة نائية، تاركا إياى أدور حول نفسى كأننى وقعت أسيرا لتعويذة سحرية.

علمت فى الصباح أن الأمر لم يكن أعجوبة، كان شيئا عاديا يحدث كل يوم. ويصيب أناسا كثيرين فى بقاع العالم المختلفة. نسمع عنه فى نشرات الأخبار ولا نعيره ذرة اهتمام. أخبرنى ياسر عن سبب الوهج الأحمر الذى صبغ مساء البارحة، وكان قد

سمع بما حدث فى خطب الجمعة التى وصلتنا بمكبرات الصوت من المساجد المجاورة ..

خرجت إلى الشارع فورا وسمعت الناس يتحدثون عن القصف الأمريكي. وتساءل أحدهم فى خبث إن كانت السماء فى الشرق والجنوب باهية كسماء البارحة، أم إذا كانت صواريخ كروز تستفرد بذاك التوهج.

و فى اليوم التالي، ارتديت ملابسى وذهبت إلى المدرسة، وقبل أن أدلف من بوابتها العتيقة، كنت أتخيل أصوات هرج ومرج تحملها الرياح إلى مسامعي.

وحين وصلت إلى الساحة، رأيت أستاذا يدعو على بيل كلينتون. وكان رفاقى فى الموت القريب يرفعون جريد النخل، ويرددون الأدعية من بعده. وفى الطابور تمحورت الإذاعة الصباحية حول القصف، وأعلن مدير المدرسة عن مسيرة إجبارية تنطلق الآن !

اندفع سيل الطلاب واجترفنى معه، حتى وجدت نفسى فى باص مهترئ بينهم. وقبل أن أفعل شيئا تحرك الباص، ولم يوقفه شيء حتى عبر الجسر إلى الخرطوم، وأنزلنا فى مكان قرب السفارة الأمريكية.

حاولت أن أهرب، لكن سيلا من زملاء الموت دفعونى إلى بقعة من الجحيم، ظلت حرارتها ترتفع بأنفاس الحشود الكثيرة. أخذت الحشود تتحرك فى بطء كمن يغوص بأقدامه فى الوحل، وأحاطنى رفاق الموت كالسرطان من كل صوب، أحاول الهرب ولا أستطيع، دفعتهم عني، فدفعونى أضعاف قوتي. بحثت عن فرجة للنفاذ خلالهم لكننى كنت محاصرا، وأخذت أصطدم بهم من كل الجهات. وبينما أنا فى شد وجذب غاص وجهى بقطعة قماش كبيرة، أزحتها فى عنف فوجدت أن وجهى قد امتلأ بالجازولين. وكان أحد (مسلوبى الإرادة) مثلى يجاهد أن يشعل عود ثقاب ليحرق العلم، عندها كانت النيران ستلتهمنى التهاما، لكن الشمس والرياح أجلتا حدوث الكارثة قليلا. وفى لحظة من الإصرار، رفعت رأسى إلى البر الآمن البعيد. ورأيت عند طرف المسيرة: - ياسر .. صحت بأعلى صوتى ولم يسمعني.

- ياسر .. صحت باسمه والناس يهتفون: داون داون يو.إس.إيه ...

اتجهت عكس التيار لأصل إليه، فخضت وسط فتيات المدارس، واجتزتهم لأجد نفسى وسط أناس بملابس رثة، حضروا للتحرش بفتيات المدارس. تطاير البصاق من فم أحدهم وهو يهتف: داون داون يوسف إيه؟ ...

علقت هناك والبصاق يتطاير على وجهي. وأخذ الحشد يكسر مجاديفى ويحركنى حسبما يشاء، لكن عيناى تشبثتا بالضفة الآمنة حيث وقف ياسر، ولكمت أقربهم إلى ...

عندها تجمع ذوو الملابس الرثة وأهالونى ضربا بالأقدام والعصى والحجارة، حتى فقدت الوعى ...

هدأت المسيرة، وتضاءل وهج الشمس، وانطفأت إطارات السيارات المطاطية وأعلام أمريكا المحترقة، واستيقظت فى إحدى المستوصفات الخاصة.

طفت بنظرى فى أرجاء الغرفة. ونظرت إلى الجبائر التى غطت يدى اليسرى وقدمي. مررت يدى على وجهى وصدرى وتحسست الرضوض. ألم أخبرك سابقا أن لى ذكريات سيئة مع المستشفيات؟

هذه الكسور التى غطت جسدى بعد حادث السيارة كانت امتدادا لشروخ قديمة خلفها ذلك اليوم فى جسمى وروحى.

أخذت أستعيد صور ما حدث قبل مجيئى إلى ذلك المكان، ثم سافرت بنظرى عبر زجاج الشباك المقابل لسريرى إلى حديقة المستوصف. وجدت والدىَّ يجلسون على حشائش الحديقة، وقد فاضت وجوههم بالتعابير المعتادة. مجرد أب متماسك وأم قلقة.

ثم نظرت إلى ياسر وكان يجلس بجوارهما، فشدنى منظره للغاية. كان مكوما على نفسه، يحتوى جسده فى غير انتظام، وعيونه شاخصة يملؤها القلق وعدم التصديق. بينما يفيض وجهه بتعابير مدهشة وممتنعة وغريبة، كأن وجهه هو أرض المعركة؛ حيث تلقيت أنا الهزيمة.

كل ما يحمله لى من محبة، وكل ما تمناه لأجلى من طريق لا يفضى إلى الألم، قد تحطم أمام عينيه فجأة. وترابطت أفكار مشوشة وصارخة فى عقلي. كان الألم يغطى جسدى ويفتضح وجه أخى ذلك. وكان وقت مواجهة النفس بالحقيقة قد حان. وأن كلينا على طريقته يمشى فى نفس الطريق المظلمة. وأن الإخوة ثمار نفس الشجرة مهما فعلوا. وقهرنى الواقع للغاية. كرهت ضعفى وكرهت ياسر الذى أصابنى بعدوى الهزيمة...

قضيت شهرين فى المستشفى ثم خرجت، واحتفلت بعيد ميلادى التالى فى المنزل. وبعد أن أطفأنا الشموع، وانفض الحفل مبكرا، جلست حول طاولة القصاصات، وجاءنى ياسر.

حمل بين يديه مظروفا فى عناية بالغة، ناولنى إياه ففتحته دون أن ينبس أى منا بكلمة. أخرجت الأوراق من قلب المظروف وقرأتها فى هدوء. كانت الأولى شهادة ميلاد، وضعتها جانبا وانتقلت إلى الورقة التالية، مجرد إعفاء مؤقت من التجنيد وتصريح سفر. بدأت أستغرب الأمر على نحو ما، فرغم أنى كنت قريبا من سن التجنيد، لم أكن قد بلغته بعد، وكنت قادرا على السفر دون تصريح، لكننى لا أستعجل طرح الأسئلة قبل أوانها. تناولت الكتيب الأخضر وفتحته. جواز سفر ... يعقوب عثمان. راجعت الأوراق كلها مجددا. وأدركت عندها كينونة السؤال الذى سأطرحه: لماذا تحمل الأوراق اسمى وتاريخ ميلادك يا ياسر؟

وتولى ياسر الإجابة: لقد قضيت الفترة الماضية بأكملها أسعى خلف هذه الأوراق، لقد دفعت الرشاوى للضباط وحلفت اليمين بأننى أنت ... فقط أردت أن أقدم لك الهدية الملائمة فى عيد ميلادك ...

صمت قليلا كمن يستجمع أفكاره وهو يضيف: لقد سمعت ذات مرة من صمويل عن برنامج للجوء السياسي، تقدمه الأمم المتحدة، برنامج يرسل اللاجئين من مصر إلى دول العالم الأول، وأنا أريد أن أرسلك بعيدا عن كل هذه الفوضي. أنت يا صديقى برغم ما حدث، لا تزال فى بداية الطريق، ولم يفت أوان إنقاذك بعد ..

و لم يكن ما قاله كافيا للإجابة عن سؤالي، قلت: ولماذا غيرت التواريخ؟

نظر فى عمق عينى وهو يقول: لتكون لاجئا، لابد أن تكون لك قصة، والقصة التى ستحكيها لهم تستوجب أن تكون فى مثل سنى ..

– أى قصة ؟

– قصتى ..

أدركت فورا أن وقت الحقيقة قد حان، وسرت فى جسدى رعشة الخلاص. كانت الكلمات تخرج فى مواجهتى ثقيلة متحاملة، وياسر يختفى خلف سديم الدخان، ويحكى كل تفاصيل التعذيب، وما لاقاه خلال ثلاثة أشهر ونصف فى المعتقل. يعود سنوات من الإخفاق إلى الوراء، وأنا ينقبض قلبى كلما مرت دقيقة. كل تلك الآلام، وكل ذلك البوح، كان ينساب فى ليلة الهزيمة الأخيرة، ويكمل ما تبقى فى حياتى من معطيات. وفى لحظة كالتى تكون التحولات فيها أمرا محتملا، لامست عقارب الساعة منتصف الليل، وابتدأت سنتى الجديدة .

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

عندما كان القطار على وشك الرحيل، امتلأ رصيف المحطة بجموع كثيرة من المودعين. كانت ضوضاؤهم قد تعالت وامتزجت بصوت الماكينات، وارتد الضوء عن أعمدة حديدية، وحملت رياح السموم مزيجا من روائح الأمتعة والناس. وكأى واحد من المسافرين، استكنت فى حضن أمى فترة طويلة، حتى صرنا معا امتدادا للأحضان الكثيرة التى تشابكت بمد البصر. أخذ أبى يربت على ظهرى ويقول: كبرت يا بطل وتلاحقت الأكتاف.

احتوى القطار المسافرين، وجلست فى عربة الدرجة الثالثة على مقعد من الخشب، مستقيماً وصلباً كحائط من الأسمنت. وقبل أن أضع حقائبي، تصاعد الدخان ممتزجا بضجيج الخلق إلى السماء، واخترقتنى صافرة القطار كأنها تسلك طريقا عبر قلبي. نظرت من النافذة لأمى وهى لا تزال واقفة على الرصيف، فوجدت أن وجهها قد كسته الدموع. قلت فى لطف: لا .. لكنها كانت قد مضت فى بكاء ممض.

لم يزد ما قالته لى عن ثلاث كلمات لا غير، لكنها كلمات لم تضع هباء فى صخب المكان، ولا وضعتها طى النسيان، بل حملتها فى نفسى طوال حياتي، وفكرت فيها كثيرا حتى ارتبطت ملامح أمى فى ذاكرتى بتعابير وجهها وهى تقولها.

وضعت حقائبى فى المقعد المجاور، وفكرت فى ياسر الذى اختفى فجأة ولم يودعنى بارح القطار المحطة، وأخذت المدينة تبتعد عن نافذتى وتتوارى بمبانيها وأشجارها وشوارعها خلف بعضها البعض. تلك اللحظة التى تعلم فيها أنك قد صرت وحيدا، فتهمس لنفسك بأشياء كثيرة تضيع فى ضوضاء المكان.

أخذ الناس يتسامرون ويدخنون السجائر، وافترش بعض المتعبين منهم الممر الضيق ليرتاحوا. بينما ازددت مع الساعات غرقا

وانكماشا فى ذاتي. وفى بطء يليق بقافلة من حديد، دلف القطار إلى الصحراء الممتدة، وتكلس المشهد كصورة فوتوغرافية جامدة، كأنما الزمن قد توقف فى الخارج، وأنا ومن فى القطار نتحرك فى العالم الموازى للصورة. ونظرت عن يمينى ويسارى إلى عدم ممتد، ولا شيء سوى حيوانات نافقة ونباتات صحراوية تكرر نفسها، وتشد ناظرى فى غياب كل شيء آخر، فلا أكترث بالهواء حين يحمل حبات الرمال إلى عينى وفمي. وفى لحظة السهو والتحديق فى اللاشيء، والعالم متوقف فى الخارج كبحيرة رمال راكدة، أحسست بجسد يجلس بينى وبين حقائبي. التفت نحوه بحركة آلية فوقعت عيناى علي: ياسر!

ياسر يقوم بمعجزات لا يقدر أحد عليها. جلس على الكرسى الفارغ عن يميني، وارتسمت تلك الابتسامة المتحدية على وجهه. تلك الابتسامة التى بارحته أياما طويلة، هاهى تجثم الآن أمامي. ولك أن تتصور دهشتي، أنا الذى ظننت أنه قد ذاب فى زحام المحطة إلى الأبد. وكنت أهمس لنفسى طوال الطريق نادباً وداعنا الذى لم يتحقق. عجبى، أية معجزة أحضرته وعقدت لسانى عن قول أى شيء!

قال قبل أن تتلبسنى الحيرة مزيدا: لم أكن لأتركك تذهب وحيدا يا أخي، لابد أن أطمئن أنك قد بارحت هذه البلاد، ثم إننى أريد أن أقضى الوقت المتبقى لنا معا، هل ظننتنى سأتخلى عنك بهذه السهولة؟ .

أصدقك القول بأننى أحب هذا الرجل؟ وفى تلك اللحظة لو أخبرنى أحدهم أن هناك احتمالاً صغيراً بأننى سأقتله فى المستقبل، كنت سأصف ذلك القول بالجنون. أخذ الليل يطغى على الصحراء

فى تؤودة موكب جنائزي، وامتدت الأحاديث كجسر بيننا، أتت تباعا تجر بعضها كعربات القاطرة. وكان ركاب الدرجة الثالثة نياماً على مقاعد خشبية صلبة كالأسمنت، وقد تناثر بعضهم فى الممرات الضيقة ليخففوا من حدة الإرهاق، وأزعج صوتى العالى راحتهم، وكلما استشعروا السعادة الغامرة التى أخذت تشع منى تعمق إحساسهم بدور الضحية. صاحوا: اسكت .. وسبونى بأقذع الألفاظ، لكننى لم أسكت؛ لأن وجود ياسر بجانبى كان يشعرنى دوما بأنى فى موضع قوة. الإخوة ثمار نفس الشجرة، ونحن إذن سنزود عن غصن واحد ضد كل من يتجرأ على واحد منا، وإن انكسر الغصن سنسقط معا. وفى أوقات كنت أنظر إلى جسم ياسر القوي، وأحس بأن الغصن قد صار أعرض، فأتشبث كغريق بغصن النجاة. وفى أوقات أخرى كنت أفكر فى مأساة ياسر، وأخاف أن ينكسر الغصن قبل أن أبارحه، وكنت أحمل المأساة، وأشق البقعة المنسية نحو مصير جديد. ربما يكون غصنا نضرا أغرس فيه جذورى وأستنزفه، أو يكون غصنا واهنا أبنى فيه عشى وأطير فى الصباح.. رويدا رويدا تحورت الصورة فى الخارج إلى أبعاد سوداء، وحبات من اللؤلؤ تناثرت فى أرجاء السماء، وانفتحت كوة كونية على الصحراء، وأخذت أتوغل بناظرى فى حلكة الليل، فأرى فانوسا أو ضوءا يتلألأ فى عمق العتمة بين الحين والآخر، وأسرى ببصرى بين كوة تطل على مجرات لا متناهية، وبين أضواء بعيدة ومنسية فى عمق الصحراء ...

استيقظت على صوت تسلل إلى نومى المضطرب:

شاى بالنعناع ..

يزيل الصداع ..

شاى مضبوط .. يزيل الضغوط ..

فتحت عيناى على بائع الشاى وهو يتراقص وسط أجساد النائمين على الممر، يدوس على بعضهم ويتفادى الآخر. كان شابا ضعيف الجسد أحقف البطن، لكنه صعب المزاج. يكره ركاب الدرجة الثالثة بشكل خاص، فيسكت عن الدعاية لنفسة قليلا ليسخر منهم: هل رأيتم ركاب الدرجة الأولي؟

وفى الحقيقة لم يكن حالهم يختلف عن حالنا كثيرا، سوى أن لديهم أسرّة ينامون عليها.

داس بائع الشاى على رجل نائم وخاض حربا كلامية طويلة معه، سبه فيها بأقذع الألفاظ ثم واصل الطريق كأن شيئا لم يحدث. ورأيت الرجل الآخر أيضا يغط فى النوم مجددا. لم يكن لدى الناس خيار غير هذا البائع، والذى كان يعرف أهميته جيدا ويستغل نفوذه فى تلك البقعة أسوأ استغلال.

ناديته وناولته المال قائلا باختصار: اثنين شاي، قاطعا الطريق على أى حديث قد يدور بيننا.

كان القطار قد تجاوز عطبرة كثيراً وأوشك على الوصول إلى وادى حلفا، وبدأ الناس يستيقظون من نومهم المرهق، كأنهم أموات بعثوا من قبورهم توا. وربما لو كان قلبى أرق قليلا لأثاروا شفقتي، بأجسادهم خائرة القوى ووجوههم الشاحبة، وبمنظرهم وهم يستكشفون ما حولهم بأعين حمراء لم يبارحها النعاس.

نفخ أخى دخان سيجارته على مهل كعادته، وبقينا صامتين حتى وصل القطار إلى رصيف المحطة، والذى ضجت الحياة فى أرجائه فجأة. كانت شمس النهار فى شمال البلاد ذات المناخ

الصحراوى أكثر قسوة، وأخذت تنفث عن غضبها فى المسافرين المرهقين. تراكضنا مع الناس هنا وهناك، وبحثنا لأنفسنا عن منفذ بين أمتعة التجار التى شغلت الرصيف بأكمله فى لمح البصر، حتى تعطلت الحركة وتزاحم الناس للخروج.

وفى عصر ذلك اليوم، وصلنا إلى بقعة معزولة عن المدينة، نشأت هكذا ارتجالا من العدم ليستعمرها المسافرون العابرون. وأوينا إلى كيان هش، حوائطه وسقفه من الزنك، وعلى قمته يافطة قرأت فيها: "فندق المُني". وكان الفيضان يأتى أحيانا ويكتسح كل شيء، لذا استعاضوا بكيان الزنك عن الأحجار.

قضيت الليلة فى سهد خوفا على نفسى من لدغات العقارب، وفى الصباح استأجرنا عربة يجرها حمار صوب الميناء النهري.

أخذ سائق العربة يضرب الحمار فى حقد ويحثه على المسير. وعبرنا فى بطء عبر بقعة فيها دلائل تشير إلى حياة شغلت جانبى الطريق فى الماضي، بها أنصاف حيطان، وبقايا مدرسة، ومنازل مهدمة، وسبورة لا تزال على سطحها الحروف الأبجدية، يقف بجانبها نعال طفل وحيد. كأن الصواريخ قد انهالت على المكان فدمرته، أو هاجم الوباء ساكنيه فتفرقوا عنه وتركوه مهجورا. سأل أخى سائق العربة فى اهتمام عنهم، فقال: المياه تضرب فى السد العالى وتعود إلينا فتغرقنا، كل عدة سنوات يهدأ الفيضان فيأمن الناس النهر، يبنوا ويعيشوا قليلا، ثم يضربهم فيضان عنيف ويغرقهم، يعنى حياة مؤقتة.

وفكرت فى حياة كهذه، حياة لا تجود علينا سوى بمعرفة تكفى لهذه اللحظة. ربما تنفجر القنابل الذرية فى نفس الثانية، وربما يعم

السلام الأرض، لكننا نحيا على أى حال، ونحث الخطى نحو المستقبل، تواجهنا الصعوبات ونواجهها، تملؤنا المخاوف كما تملؤنا الآمال الوردية. لكننا ولأجل أن نحيا فقط، لابد أن نلقى بالماضى وراء ظهورنا، ونسعى نحو مصير جديد لا يفضى إلى الألم. أليست الحياة كلها كذلك؟ ... وصلناإلى الميناء، فألمَّ بى حزن عظيم. كانت لحظة الوداع قاسية على قلبى أيضا. احتضننى أخى ودفنت رأسى فى صدره. بكى وهو يقول: خذ قصتى وابنى مستقبلا أفضل لنفسك. إنها قصتك الآن، احكها لهم وانتزع حقك فى الحياة. نحن هنا فى آخر نقطة فى الوطن، وهو طريق طويل سأعوده غدا، أما بالنسبة لك، فهو بداية طريق تسلكه حتى النهاية، قد يكون مضنيا وقد يفرشه القدر بالأزهار، لكننى لست خائفا عليك فى كلتا الحالتين؛ لأننى أعلم أنك قوى .. أكثر قوة منى .. أنا الذى لم أحقق سوى الإخفاق تلو الإخفاق، وإن كان فى حياتى من شيء أفخر به، فذاك أن من إخفاقى سيولد نجاحك.. لا أوصيك يا يعقوب ولكننى أتوسلك، أن تكون كما أردت لنفسك دوما. كن قوياً وعنيدا كما أنت، فالأشياء ليست بالسهولة التى تتصورها، ستعانى كثيراً، لكنك ستصل، وعندها لن يتبقى من حزنى شيء؛ لأنه بذلك سيصير لإخفاقى معنى .. اهتم بنفسك ولا تيأس أبدا. ارسم ونمى موهبتك، لكن إياك والسياسة، ولا تنجذب إلى رونق الأدب الخداع والفلسفات المعقدة، كلها جذبتنى وكلها دمرت عقلى وحياتي. نمى عقلك وجسدك وطهر روحك، لكن ليس بالألم فهو يفسدها، ولا بالفضيلة فهى كذبة غير محكمة. اكذب عليهم ولا تهتم لأمري، فحياتك هى الأصل وحياتى الأكذوبة. وهى قصتك الآن، فكن كريما وخفف من وخز ضمائرهم، وتذكر أن تتصدق عليهم بكذبة كاملة ...

ومخرت السفينة ماء البحيرة العذب نحو الشمال. وتلفت عن يمينى ويسارى فرأيت ضفتى النهر بكل ما عليها من أكوام رمال وأشجار نخيل، وبيوت طينية امتزجت بالهواء المغبر حتى أضحت جزءا منه، ونظرت من خلفى إلى محركات السفينة وهى تخلف ورائها الزبد، وأشعة الغروب الأخيرة تطفو بنعومة على سطح المياه، ومددت نظرى إلى الميناء البعيد، وبنفس درجة الوضوح الذى تنعدم فيه التفاصيل، رأيت بنية ياسر المنتصبة، تتضاءل رويدا رويدا فى ناظري. وتعلقت بخياله حتى أضحى شبحا انفض الناس من حوله، وظل واقفا يلوح لى بيديه.

- ٤ -

تغيرت هيئة شارع برووود قبل يوم من بداية السنة الجديدة. المسارح الصغيرة قد نصبت على طوله، ووضعت الحواجز الحديدية بمحاذاة أرصفته إيذانا لاستعراض المهرجين والممثلين السنوى يوم غد. وذلك طقس عهدته المدينة فى كل عام، يهرع إليه سكانها على قدم المساواة مع الزائرين والسياح، للاستمتاع بأزياء مواكبه المبتدعة طوال اليوم.

ولأن قلب المهرجان هو جادّة الفنون، حيث يقع منزل يعقوب، فإن أسيجة الحديد قد نصبت أيضا على طول الرصيف المقابل لأكاديمية الموسيقي. وهى دار عتيقة، يسميها من يعرف المدينة جيدا (سيدة برووود العجوز)؛ لأن فيها أقدم دار للأوبرا فى أمريكا، لا تزال تقاوم عوامل الزمن، وتعلو الموسيقى والأصوات السوبرانية فى أرجائها بين الحين والآخر حتى الآن.

لاحظت لأول مرة وأنا أقود من منزل يعقوب صوب جنوب شارع بروود، أنه يسكن فى موقع هو قلب فيلادلفيا النابض دون جدال. بقعةٌ أعمدة الإنارة فيها أنيقة كأنها سافرت إلى هذا المكان عبر عقود طويلة. أرصفتها وممرات المشاة فيها من القرميد الأسود والجرانيت.

مسكنه الفاخر الذى تركته خلفى، ذاك أيضا يبلغ من العمر ما يناهز التسعين سنة، ولا يفصله عن سيدة بروود العجوز سوى شارع جانبى صغير. ولو أطليت برأسى من نافذة حجرة نومه الواسعة فى المرة القادمة، فمن المؤكد أننى سأرى القبة الزجاجية المتقوسة لمركز كيميل للفنون، حيث تؤدى مسرحيات برووداوي، وتنتصب أوركسترا فيلادلفيا الخالدة على خشبة مسرحه العملاق فتسلب بأنغامها القلوب.

انحرفت يمينا بعد شارع من جامعة الفنون، تاركا جادّة الفنون من ورائي، ودلفت إلى شارع لومبارد، ومنه نفذت عبر شارع يحمل رقما دون اسم إلى شارع والنت، الذى ضربت فيه صوب نهر سكووكل حتى أصبح مجراه فى مرمى بصرى بعد دقائق قصيرة. عبرت الجسر إلى الضفة الأخري، ثم نفذت عبر أحد الشوارع إلى ماركيت ستربيت، وتوغلت فى أحد فروعه إلى قلب الحى الذى أسكن فيه، وأخيرا توقفت أمام بناء متهالك يحوى شقتي.

فكرت وأنا أصعد الدرج أننى لازلت أعرف المدينة وأعرف نزواتها جيدا، وأن بينى وبين كل شارع منها عشرة عمر طويلة. حفظتها كباطن كفى أيام عملت كسائق سيارة أجرة، وجبتها دون هدف محدد فى النهار والليل، وفى أوقات امتزج فيها الغسق الأسود بخطوط الفجر الأولي.

تلك لعمرى مهنة كانت تشبهنى كثيرا. قد تأخذنى صوب أحياء السود الفقيرة فى ساعة، وفى الساعة التالية تجعلنى أنقل السياح إلى صورة فى كتيباتهم حسنة الطباعة، وقد تضطرنى لأن أعيد رجلا مخمورا إلى منزله بعد منتصف الليل فيملأ السيارة قيئا. لم يكن يعجبنى ذلك، بقدر ما كان يعجبنى أن وجهتى القادمة ستظل معلقة إلى الأبد براكب ما، فلا أضطر للإختيار لنفسي...

جنحت إلى الخيال قليلا وأنا أجرجر خطواتى على درج البناية المتشقق، وفكرت أن المدينة ربما تعرفنى حق المعرفة أيضا. ألم تعاشرنى فى أوقات عافيتى ومرضي، ورأتنى سعيدا وشارد الذهن ومخمورا ويائسا. وزارتنى فى لياليها الصيفية أحلام وردية وكوابيس تكبس على القلب، وتخلفنى على عتبة الواقع مرتعشا متعرقا.

خفق قلبى من جهد صعود الدرج، وخفت من خاطر قفز إلى عقلي، أن المدينة قد نفذت إلى دواخلى وعرفتنى أكثر من نفسى بذات الطريقة التى نفذت بها إلى أبعد ضواحيها وأضيق أزقتها. وأنها تعرف أيضا عن بكائى عند ناصية قرب مطعم الوجبات السريعة. وأنا الذى حاولت جاهدا أن أخفى وهنى خلف قناع الفتى متحجر الفؤاد. تلك كارثة! .

راعنى الخاطر كثيرا، وتخيلت المدينة امرأة حادة الملامح، تتحدث بوقاحة عن بكائى فى جلسة نميمة. وبكل غباء العالم وجدت نفسى أقرر الانتقام منها اليوم، فهو ليس ككل الأيام. إن بدايته البارحة لكن نهايته ليست غدا، فغدا عام جديد. إذن

سأفاجئها فيه بشيء لم تعهده فيّ. سأقرر وأفعل وسأنساها وأتجاهل نميمتها، وسأحتفل وأضحك وأستمتع برفقة أناس طيبين. كنت قد أمعنت فى الخيال وتجاوزت باب دارى إلى الباب المجاور.

طرقت على باب بيرسي، صديقى الأوغندي، ورفيق كفاحى الذى أبقيته خارج نطاق تفكيرى طوال الأيام الماضية دون سبب محدد. كان أقرب الناس إلى لكننى لم ألجأ إليه حين حدث ما حدث، ربما لأنه عرف معدن كيشيا منذ البداية فخفت أن يقول: أخبرتك.

كان يقطن فى الغرفة المجاورة لغرفتي. وحين أصبت بالإحباط وعجزت عن المواصلة شجعنى بالإطراء. وفى أحيان حين استبد الغم بى حضر إلى غرفتى حاملا دستة من علب البيرة فبدل مزاجى السوداوي. وفى أوقات الشدة استلفت منه المال أو سلفته أو عشنا مفلسين معا فغطينا على بعضنا وتحايلنا على الفواتير.

فى البدء ساعدته على حمل أثاثاته وأغراضه إلى غرفته، ثم قربتنا الجيرة وتعرفت على شخصه مزيدا. وجدته يكتب الشعر، وينغمس فى مكتبة تحتل ثلاثة أرباع الغرفة، تزخر بأسماء كتاب لا أعرف عنهم شيئا وشعراء من أزمنة غابرة.

فتح بيرسى الباب، وهب نحوى يحتضننى فى شوق شديد:

- يا لك من صديق سيىء! أين كنت يا رجل ؟ هل سئمت هذا المكان حتى تخليت عن أصدقائك أيضا؟ لقد طرقت بابك مرات عديدة، وتركت لك رسالة صوتية ...
- لم أكن موجودا، صدقني، أشياء كثيرة قد طرأت ..
- عمل؟

– بل أسوأ. أكره أن أعترف بأنك كنت محقا حول كيشيا.
بان على وجهه ذلك التعبير الذى أحبه فيه، هو مزيج من التعاطف والقسوة. صاح: لماذا لم تأتِ إلي؟
كنت وبيرسى كالإخوة، نتشارك المحن والأوقات السعيدة. نهادن الحياة فى ذلك الحى القاسى أحيانا، ونتحايل عليها فى أحيان أخري، قلت له معتذرا: كنت سأحضر.

ثم أخبرته عن يعقوب الذى قضيت الأيام معه محاطا بلوحات غامضة على الجدران..

سألنى مستغربا: أية لوحات؟ هل الرجل رسام؟

– نعم ..
– أتعلم، الاسم لا يبدو غريبا، ما اسم عائلته؟
– اسمه يعقوب عثمان ..

توقعت أن يضيف شيئاً. لكننى أعرفه جيدا حين يمد سبابته نحو الأرض وتتسع عيناه كأنه يقف أمام بئر ناضب. سألته مرة عن كاتب زارنا فى الجامعة، وخرجت بنفس هذه النتيجة. قال فى دهشة: أنت تعرفه شخصيا؟

– نعم، هل تعرفة أنت؟
– بالتأكيد، بالتأكيد. ألم تحضر أياً من معارضه؟ الرجل يعبر عن ذلك المزيج المر من الطموحات وخيبة الأمل لقارة بأكملها، إن الوقوف أمام لوحاته كفيل بأن يجعلنى أمتلئ بالأمل، أنت تعرفه جيدا؟
– نعم ..

غمز قائلا: قابلنى به وسأسامحك على فعلتك ..

كانت تلك خطتى منذ البداية، سألته: ماذا عن اليوم؟ أردت أن نحتفل بالسنة الجديدة معا ..

أجاب فورا: أذهب معك .

- و ماذا عن بريندا؟
- كنا سنذهب إلى نيو جيرسي، لكننى مفلس للغاية.
- أنت دائما مفلس. ستغضب منك فعلاً هذه المرة لو غيرت خطتكما، ولن ألومها إن ألقت بك من حياتها.

قهقه بالضحك، ثم استدرك قائلا: بريندا ليست هذا النوع من الفتيات ..

قلت له عن صدق: أحيانا أحسد فيك هذه القدرة على انتقاء الناس.

قال: إنها نعمة لا أنكرها ..

قلت له ممازحا: حتى أبوك، اخترته بعناية ..

ضحك بيرسى من القلب كأنه تفاجأ فى أبيه، وأثارت ضحكته جلجلة عظيمة فى المكان. ثم ما لبث أن امتزجت بضحكتى العالية، فكأن الضحكتين صافحتا بعضهما طويلا فى رواق بنايتنا المتهالكة. كان لقائى به يجعلنى أضع الهموم بعيدا عن كاهلي، وأضحك رغما عن نفسى دون سبب معين سوى أن يرتوى قلبى بلذة الضحك.

قال بيرسى وهو يمسح دموع الضحك عن عينيه: أبوك أيضا رجل طيب، لكنك لا تحس بذلك.

❖❖❖❖❖❖❖

لبثت فى متجر سفن إليفن أسفل بناية بريندا أنتظر. فكرت أن الأخيرة ستأخذ وقتا للاستعداد، فتناولت فى تلك الأثناء سلة التسوق، وكدستها بعلب لايز، وكوكا كولا، ومياه إيفيان المعدنية، ثم تناولت من البائع وأنا أنقده المال علبة مارلبورو حمراء.

وجدتهما ينتظرانى قرب السيارة. تعانقت مع بريندا وقبلنا خدود بعضنا، ثم انفصلنا وأخذت تستفسر عن حالى فى اهتمام حقيقي. تساءل بيرسي: أما زلت تشترى هذه التفاهات؟ أعطنى سيجارة..

حين وصلنا إلى شقة يعقوب، قال لأصدقائى فى رقى بالغ: مرحبا بكم، أرجوكم أحسوا بأنكم فى منزلكم ... وهمس لي: على غير عادتى كان الملل يأكلنى أكلا، ربما لأننى عاجز عن الحركة والرسم هذه الأيام، أنا حقا ممتن لك على هذه الرفقة...

جلس ثلاثتهم كما يجلس الضيوف فى تأدب، بينما تحركت بحرية كأى حيوان فى بيئته الطبيعية. دخلت إلى المطبخ، أعددت أكوابا من الكولا، وملأت سلطانية كبيرة برقائق البطاطس، ثم عدت وقدمت للجميع، لكننى لم أكد أجلس معهم لأحادثهم قليلا حتى نادتنى بريندا على جنب، فذهبت للقائها، شرحت لى وعيناها تبرقان كما هو الحال حين تكون سعيدة أنها بصدد خطة صغيرة. راقت لى الفكرة حين شرحتها، فأوجدت ذريعة وهمية وأخذت بيرسى ويعقوب فى جولة صغيرة، مفسحا المجال لها لفعل ما تريد.

أوقفت السيارة عند متجر الكحول، واشتريت زجاجتى جاك دانيلز، وزجاجة نبيذ. بينما تولى بيرسي، الذى كان يشغل بساقيه الطويلتين مساحة واسعة من مقعد السيارة الخلفى، أمر شراء

الأطعمة من مطعم إيطالى صغير. ما لبثنا أن عدنا بعد ساعتين وطرقنا جرس الشقة، ولما فتحت بريندا الباب، تجمدنا من الدهشة عند إطاره المستطيل للحظات..

وجدناها قد أضفت فى ساعتى غيابنا لمسة أنثوية على المكان بأكمله، فحولت بإبداعها الصالة إلى بقعة مضيئة، تتدلى من سقفها الأنوار الملونة وأشرطة الزينة، ونثرت على الأرض بالونات مزركشة، وكتبت ببخاخ الألوان "عام جديد سعيد" على زجاج النافذة الكبيرة.

نظرنا قرابة الدقيقة إلى يعقوب لنرى التعبير الذى سيكسو وجهه، لكن وجهه ظل متحفظا وخاليا من التعابير، ربما قلب خلال ذلك الأمر فى ذهنه فقرر أن يضحك فى فرح طفولى وهو يردد: لا أصدق عيني، هل أخطأنا فى رقم المنزل؟

قال بيرسي: لا أدري، دعنى أسأل .. سأل بريندا: أليس هذا منزل الفنان؟ وأخذا يتغامزان.

قلت ليعقوب: إنها سنة جديدة يا صديقي، وأنت قلت إن فى مثل هذه الأوقات، تكون التحولات أمرا محتملا، هذه هدية بريندا لك.

كانت ابتسامته الراضية إيذانا لنا ببدء الليلة. جلست بريندا بجانبه، وأخذت تتصفح كتيبا يحوى نماذج من أعماله، بينما مضى منشرحا معها كما لم أره مع أحد من قبل. لم لا وهى تنفذ إلى القلوب بطيبتها وحلاوة حديثها، تجعلك لا تهتم كثيرا بالتركيز فى شكلها وهيئتها. ولو تمعنت فيها بطيب خاطر، لوجدت أنها لا

تتمتع بأى جمال خارجى ملموس، وأنها بسيطة الهيئة، تربط شعرها القصير بطريقة عادية، وترتدى بنطلون جينز وقميصاً غير مزخرف. لكنها برغم ذلك كله فتاة عذبة وكاملة الأنوثة. كان لبيرسى فلسفة بسيطة فى الحياة ينصحنى بها فيقول: الحياة فرصة واحدة، عشها بين الذين يحبونك حقا.

اكتست تعابير يعقوب بالارتياح التام معها. وتذكرت يوم دخلت عليه فى المستشفى أول مرة، وكان يتألم فى صمت. وليلة هروبنا من المستشفى إذ تأخرت عليه ووجدت فى وجهه عبوساً وإعياء، وحز الأمر فى نفسى فوقفت بجانب النافذة أراقب سرب طيور. أذكر أنه قال: أنت شخص حقيقى لكنك مثل كثيرين تبحث عن شيء غير مزيف.

اليوم حين نزلت فى متجر الكحول، سألنى البائع عن بطاقتى الشخصية، قال: هل تجاوزت الواحدة والعشرين؟ وفكرت أن الكثيرين من أبناء الثامنة عشرة قد أرسلوا إلى الحروب، بينما لم يكن متاحا لهم فى تلك السن أن يشتروا الخمر بحسب القانون البشرى الأعمي. وتذكرت دونما سبب معين امرأة تكبرنى سنا، عرفتها فى الماضى وعلمتنى ممارسة الحب، تذكرتها وهى تهمس فى أذني: حبيبي، كم أحب خوائك!

قررت بينى وبين نفسى ألا أكتفى بمراقبة أصدقائى والتفكير فى أشياء لا تمت إلى الليلة بصلة؛ لأن العام بحلوه ومره على وشك أن يندفن فى فناء الذاكرة، ولأن اليوم يومى ولابد أن أشارك فى حدوثه. رفعت رأسى فوجدت أصحابى منهمكين فى حديث جماعي، عندها لم أجد سببا لأمنع نفسى عن شيء طالما أحببت أن أمارسه

فى مختلف أوقاتي، وهو التفكير فيما قد يفعله أبى فى لحظة بعينها. كنت أثبت لنفسى بذلك أننى أعرفه جيدا.

فربما تعنى هذه الليلة للكثيرين شيئاً، لكنها بالنسبة له لا تختلف كثيرا عن بقية الليالي. مؤكد أنه لن يفكر فى الانتقام من المدينة مثلي، ولن يخوض حتى احتفالا داخليا. فقط سيجلس مطمئنا فى المنزل، وربما يصلى أو يقرأ كتابا بجوار المدفأة الآن.

ذلك الاطمئنان الذى يملأ عالمه دوما، لم لا أحس بمثله أبدا؟ وكيف أن رجلا عجوزا مثله لا يخاف الموت، ولا يخاف من تسارع الزمن، وتغير الظروف؟

عميقا فى داخلى كنت أعرف السبب جيدا، لكننى لم أنقب عنه. فهو بكل بساطة الكيفية، موقن أن رزقه لن يناله غيره، وأن كل شيء مكتوب فى كتاب القدر مسبقا، ومنذ توفيت أمى وهو يزاوج بين الواقع وبين ما يقرأه فى كتب التاريخ الإسلامي. فجأة تناقضت صورة أبى بصورة رسمتها ليعقوب فى صغره. ذلك الطفل الخائف من المستقبل والحاضر والموت، والذى يسعى نحو تغيير مصيره بنفسه، فاتجه نظرى بشكل تلقائى إلى سلسلة اللوحات على الجدار، وإلى البورتريه المبهم.

هزنى بيرسى وهو يقول: هل تحاول أن تثقب الحائط بعينيك؟ وقت الاحتفال قد أوشك فكن معنا قليلا.

لا شيء سيغير مبادئ بيرسى عن بساطة الحياة. لا شيء سيمنعه عن الضحك واجترار السعادة من عمق معاناته اليومية. رفعت رأسى إلى منظر رائع شد أنظارنا جميعا عبر النافذة الكبيرة

إلى السماء. صعدت قذائف الألعاب النارية الملونة تباعا من نقطة بعيدة، ثم انفجرت على مساحة واسعة، أبيض، أصفر، وردي، أخضر، أحمر، مزيج غريب!. - من أطلقه؟

قلت لنفسي: وهل يهم الأمر كثيرا ما دام قلبى قد أصابته صحوة مفاجئة.

قفزت بريندا واحتضنتني: سنة سعيدة ..

تركتنى على عجل لبيرسى فاحتضننى أيضا.

ثم تعلقت برقبة بيرسى كالطفلة وأخذت تقبله، ووجدت يعقوب، يدفع بعجلات الكرسى المتحرك صوبي. تشابكت أيدينا فى حرارة وأخذ يردد: سنة سعيدة يا صديقي، أنت أفضل ما حدث لى فى هذا العام.

تركنى لحيرتى وعاد بكرسيه إلى جوار النافذة مجددا، وانعكس وهج الألعاب النارية على وجهه فبدا مرعبا لوهلة.

هدأت اللحظة قليلا، وخفتت الموسيقى والصياح فى الشارع، فتحت شبابيك المنزل، ودلف تيار الهواء البارد، يحمل فى طياته دفء موسيقى الكمان الخافت من دار الأوبرا المجاورة، وبعض أصداء قفزت من أمام المحلات فى الشارع ومن نوافذ البيوت الأخري. قال يعقوب: اليوم يعزفون يوهان شتراوس الابن. أحيانا باخ، وموتزارت، وبيتهوفين. تشيكوفيسكى نفسه قدم عرضا على خشبة دار الأوبرا المجاوره فى الماضى البعيد.

نزع بيرسى الفلينة عن زجاجة النبيذ محدثا فرقعة ضئيلة. صب لنا، واقترح نخبا: نخب الفنان ..

رقصنا على إيقاع أسطوانات يعقوب النادرة حتى خارت قوانا. أكلنا وشربنا وتسامرنا، وبدلنا الأسطوانات حتى بدأت الأغانى تكرر نفسها مرات ومرات، وتتصف بالبطء والملل.

وقبيل الفجر قليلا، بعد أن أنهكنا السهر والشراب، وامتلأت بطوننا بالطعام. تقدم بيرسى نحو اللوحات السبع ووقف أمامها طويلا. خاض حديثا مطولا مع يعقوب عن أسلوبه، ثم استدرجه للحديث عن الفن الإفريقي. وكان الآخر ضليعا فى تاريخ الفن الإفريقى وأساليبه "اقرأ هذا الكتاب". تحدث عنه منذ بدء الخليقة، وبدا كأن الحديث قد ذكره بأشياء قديمة، فرفع نخبا لإفريقيا وردد فى شجن:

حتما أن الطين الذى خلقت منه
كان من الأرض التى آلمتها
بوقع خطوات الطفولة
و حين أختفى كالبذرة فى باطنها
سأحس بسعادة غامرة.
صاح بيرسي: أنت كتبت هذا ؟
أجاب بعد صمت: كلا، ترجمتها لأجلكم فقط ..
كنت سأصدقه لو أنه قال نعم. سمعت أن الرجل شاعر وفنان وأشياء أخري، لكنه أشار نحوى قائلا: هو يعرف من كتبها ..

قفز اسم وحيد إلى ذهني. ونظرت إلى البورتريه المبهم فخفت لغبائى أن يجذب يعقوب روح ياسر إلى مجلسنا بترديد قصيدته.

لكن هذه الأبيات كانت إيذانا لبيرسى بأنه قد وجد ندا له ليقارعه الحجة بالحجة، ويحادثه عن الأدب والفن والسياسة.

شخصا مثله، يحب الشعر ويتحدث عن تاريخ الفن والأدب، ويعرف أسماء الكتب.

مر الوقت سريعا. وكنت فى انتظار أن ينضب مخزون يعقوب من المعرفة ويتلعثم، لكنه كان مدركا لما يتوجب قوله ولديه من الثقافة ما أدهش بيرسي.

ساعدته مع بواكير الفجر على الذهاب إلى مضجعه. وضعت الغطاء من فوقه، وانتهزت فرصة تواجدنا على انفراد لأسأله: من أين لك كل هذه المعرفة؟

قال ببساطة: من ياسر.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

رست السفينة فى أسوان، وركبت قطارا آخر عبرت به الليل إلى القاهرة. ليس فى ذهنى سوى فكرة واحدة، وصورة طريق طويل يبدأ من هناك، قد يفرشه القدر بالأزهار وقد تضنينى المسافة، لكننى سأصل رغما عن نفسي؛ لأننى أحمل المأساة، وهى ليست مأساتي، لكنها كلمات ياسر تخرج من فمى فى كل محفل فى تلك المدينة القاسية.

كانت القاهرة مترعةً بمن هم مثلي. وتنضح بالمآسى والأكاذيب. وكأى لاجئ آخر، عرفت معظم اللاجئين وعرفوني. سمعت قصصهم وتناقلوا قصتي. وكما تؤنس أحزان الناس فى الغربة بعضها، تأنس الأكاذيب لبعضها. فأن تعرف أنك لست الكاذب الوحيد، يجعلك قادرا على الاستمرار فى أن تعيش الأكذوبة ...

عشت الأكذوبة يوما بيوم. عامان وأنا أتسكع فى المقاهى الشعبية، أتسكع فى البارات وأترنح فى الشارع. يلتهمنى زحام القاهرة ثم يبصقنى آخر الليل فى الشقة. أنام وأستيقظ كيفما اتفق.

أذكر الآن أن الحياة قد قست علينا، وأن معونات الأمم المتحدة للاجئين سندتنا فى أيام الشهر الأولي، لكننا عشنا بقيته بما يشبه الأعجوبة.

كان عالمى فى أشح نقاطه. اقتصدت فى المال كثيرا. ورأيت معارفى الشرفاء وهم يتحولون إلى نكتة سوداء. يسرقون بعضهم لشراء الخمر. يتشاجرون، يتسابون، يعجزون عن المواصلة، فينتحرون.

وعرفت أشباه شعراء يوزعون دواوينهم رديئة الطباعة للفت الانتباه، وآباء يستهلكون معونات الأمم المتحدة الشحيحة لأسرهم فى شراء الخمر. وربما كرهت الجميع وكرهونى وحقدوا علي، لكننا كنا بارعين فى الاختباء خلف عاطفة من التضامن الزائف. نتملق بعضنا فى جلسات السكر ونتعايش فى وئام على سطح الحقيقة. بينما تحت الابتسامات والألقاب النضالية، كنا فى حالة حرب مضنية ضد بعضنا البعض.

لا مكان للحقيقة فى تلك المدينة القاسية. قد يسقط المبنى حيث أعيش بسبب الأسمنت المغشوش. قد ترى البناية من الخارج منتصبة للعيان لكنها تقف على الرمال والطلاء فقط. وحافلات الركاب التى تعبر المدينة وتوصلنى إلى مبتغاى فى لمح البصر، قد يكون سائقها بارعا فى القيادة، لكنه يستصبح كل يوم بلفافة بنقو.

حقا لم أكن قلقا أن مصير أحلامى فى يد مدمن يحركه كيفما يشاء، لأن فى داخلى إيماناً عميقاً بأننى سأحيا؛ لأن كل حياتى وحياة ياسر هى معطيات لمصير مختلف لا يشبه السقوط من على الجسر المعلق بحافلة نقل عامة. وكان ياسر معى فى كل لحظة، أحمل مأساته فى داخلي، وأراه على وجوه الفقراء فى الشوارع، شيء فيه كان يشبههم وإن اختلفت أوطانهم.

عامان وحياتى لا تتقدم خطوة. أجالس وجوها كثيرة حضرت من بلادى بنفس الطريقة، ولأسباب مشابهة. أدباء وشعراء وأكاديميون هاربون من الجندية وفنانون مثلي. كذابون يبحثون عن بوابة للخروج إلى دول العالم الأول. أحدثهم فى الفن والسياسة والأدب والفلسفة. أقرأ لهم شعر ياسر على أننى كتبته. كانت كلمات ياسر تخرج من فمى فى كل محفل للاجئين. وأستغرب كيف تجمعت فى ذاكرتى كل هذه المعارف وكل هذه القصص. وأتذكر ياسر، مفتاح حياتى ومعارفي، أتذكره وهو يلقى الشعر أو يجادل أصدقاءه فى مواضيع لا تهمني، وهو يقود المظاهرة، وهو يحرق المكتبة الصغيرة، وأفكر أن الأحاديث التى سمعتها بنصف بالٍ منه، والتى علقت بذاكرتي، أصبحت الآن مفتاحا للتواصل مع من هم مثلى ممن جمعوا ثقافتهم بالمشافهة.

عشت على هامش الحياة فى شقة فى ضواحى المدينة. وأطل شباك غرفتى على بئر السلم المسدود. وفيما بعد اتخذ جبريل – رفيق سكنى – الغرفة المجاورة سكنا له.

و إن كان من شيء يطيب لى الحديث عنه فى تلك الفترة لما جلبه إلى حياتى من أمل، فذاك جبريل. لولاه ما أظننى صبرت،

ولولا فراقى له ما كنت سأصبح رساما فى المستقبل. كان يختلف عن بقية الناس فى كل شيء. حتى أن صوته ذو خامة أستطيع أن أميزها فى زحمة سوق.

قابلته فى باص ركبته إلى المنزل هربا من زحام ميدان رمسيس. وكان قد استعصى عليه النزول ففوت المحطة، ووقف ينتظر قرب المخرج وهو يدندن بأغنية أعرفها، سألته السؤال المعتاد: الأخ سوداني؟

قال: نعم ..

نزلنا فى الموقف التالي. مشيت معه مسافة تحت أضواء الشارع، ثم جلسنا فى مقهى شعبى ودخنَّا الشيشية.

كان فى هيئته مزيج من براءة الطفل وقلق الرجل الهرم. اتضحت لى تفاصيل وجهه أكثر فى براح المكان. شاب حالك السواد، تملأ وجهه الوسامه كما تملؤه الغضون العميقة، والتى تبدت لى وكأنها وجدت هناك لكى تؤكد على صدق الابتسامة. وهو صحيح الجسد متين البنيه، لكنه يعرج فى مشيته كالرجل العجوز.

يوم انتقل للسكن معي، حملنا حاجياته، ولاحظت أنه يملك جيتاراً. دردشنا كثيرا وملأنا بدخان السجائر الغرفة. حدثنى عن أخ له ولد حديثا ولم يره. وعن جارته التى لم تبادله الحب. وقبل أن يأوى إلى الفراش، كفكف بنطاله حتى ركبته اليمني، دلكها بكلتا يديه قليلا، ثم فصل ساقه الصناعية عنها لينام.

كان شخصا غريبا، تعوَّد أن يملأ صباحاتنا صخبا وموسيقي. تجده يغنى لبوب مارلى وجيمى كليف فى ذلك الوقت من الصباح الذى تكون الطيور فيه على الأشجار، وتكون الآلات نائمة. وفى أحيان حين يتوفر لديه المال كان يشترى البنقو، ويخلطه بالتبغ،

ثم يلفه فى أوراق رقيقة ويدخنه فى صفاء شديد، ثم يغنى حتى يضجر من نشوته.

زجرته ذات مره جراء محبتى له، فسمعنى حتى النهاية ثم قال فى بساطة طفل: البنقو يحسن الصوت، أما رأيت بوب مارلي؟

حكى لى أنه قد تعرف على بوب مارلى منذ سنين طويلة. وأنه يوم توفى بوب مارلي، كانت السيول والأمطار قد أسقطت بيوتا كثيرة فى السودان. وأنه يذكر وهو طفل صغير أن أباه جلس فوق خراب منزلهم وغني: لا تبكى يا امرأة.

أضاف فى نبرة ساخرة: أما عن النبات السحرى فقد تعرفت عليه فى معسكر التجنيد، يمكنك أن تجد كل أنواع المخدرات هناك، لكن البنقو يحبني.

كانت صداقتنا قد أوجدت له عذرا عندى على كل شيء. وبشكل غريب كلما توطدت تلك الصداقة ازداد خوفي؛ لأننى كنت فى حاجة لأن أكيف نفسى على أن جبريل شخص آخر أقابله فى طريق الحياة، وفى الغد القريب سيمضى كل واحد فى سبيله. تماما كالرجل المصرى العجوز الذى جلس بجوارى طوال الطريق من أسوان إلى القاهرة، وكان يردد فى ضجر بين الحين والآخر: سكك الحديد هذه تركة قديمة متهالكة ...

قد تكون تركة قديمة، لكنها قد أوصلتنى إلى مبتغاى نصف الطريق. تماما كما فعل ياسر، وتماما كما فعل جبريل الذى قاسمنى أسباب الحياة ... أراد أن يغني، ويملأ الدنيا صخبا. أراد أن يبدأ حياة جديدة فى قارة جديدة. كان باسما متفائلا على الدوام؛ لأن فى دواخله حلم مشروع.

أنت صديقى الوحيد المتبقى إن كان يهمك أن تعرف. حتى جبريل جاء اليوم الذى فارقنى فيه وذهب إلى أستراليا. ربما درس الموسيقى وملأ الدنيا صخبا، أو ربما عمل فى شركة ترضى بتوظيف المعاقين. لا أدرى حقا. كل ما أعلمه أنه كان مختلفا عن بقيتنا. يعزف الجيتار ويغنى أغانى الريجى بصوت يزعجنى حين أنام بالنهار، ويسكننى حين أكون مستيقظا فى الليل. ذلك صوت جميل يشق الوحدة. صوت يذكرنى بالرسم، وأنا ليس فى روحى من قدرة على أن أمسك ريشة.

ذهبت معه فى زمرة من اللاجئين لتوديعه فى المطار. وقفنا هناك وتوقعنا خطبة طويلة عن مسيرته النضالية أو عن معاناته. توقعنا ما كان يفعله الذين ذهبوا قبله، أن يلقى بخطبة مبتذلة أخرى على مسامعنا نحن العالقين فى عنق الزجاجة، لكنه ابتسم وقال: اليوم أعود إلى أجدادى الحقيقيين، لقد كان خطأ كونيا أن أولد سودانيا، أنا أسترالى منذ الآن ...

ثم اختلى بى فى مقهى المطار. قال: أنا واثق أنك ستحقق أحلامك ذات يوم، لم أرَ إنسانا متماسكا مثلك، وجهه لا يكفهر حين تضايقه الحياة، ولا يبتسم حين تداعبه الظروف المواتية. أنت شخص غريب، لكن على نحو مريح.

حكى لى أنه فى رمضان الماضى سقط فى الشارع فتجمع حوله سبعة من المارة لمساعدته. قال: كرهت نفسى حتى أننى بكيت، اولئك مضوا فرحين بأنهم نالوا فيى ثوابا فى شهر التوبة، مثل أولئك أتمنى لو أننى أختفى حيث يظهرون. قابلت كثيرين على شاكلتهم، أصدقاء وزملاء وجيرانا، وأناسا غرباء رمقونى بنظرات عطف لو بصقوا فى وجهى لما أهانونى أكثر. أنت عايشتنى

وعرفتني، ولو سألتنى لأخبرتك الحقيقة: لست بائسا تماما كما يظن أولئك الناس، فى الواقع لقد انكببت على الحياة أكثر بعدما فقدت ساقي. رغم أن ما حدث لى هو شيء لا أتمنى لك رؤيته أو التفكير فيه، أو حتى تصوره فى ذهنك حين أسرده عليك، إن فى حياتك أحزاناً تكفيك.

هززت رأسى متفهما. قال لى بعد صمت قصير: كان معسكر التجنيد على ضفة النيل، لا يفصلنا عنه غير سياج شائك، وفى داخله مساحات واسعة، وخيام نصبها المجندون بأنفسهم على مد البصر لتقيهم من لدغ الحشرات وعادات الطقس الغريبة. يومها عبرت مع ثلاثة من رفاقى ميدان التدريب زحفا، ثم نفذنا أسفل السياج الشائك إلى النهر. كان تيار المياه يهدر فى حوض النهر بجنون، وقد تحور لونه بفعل الفيضان إلى لون الطمي. والجنادب من حولنا تحك قوائمها فتصدر صوتا حادا يتلف الأعصاب ويبث الخوف فى القلوب. لكن من خلفى المعسكر وأخبار سمعناها بأننا سنرسل فى الصباح إلى الحرب، فكيف لا يتبدى البر الآخر قريبا وسهل البلوغ!

لكننى إذ قفزت إلى قلب النهر الهائج عاريا إلا مما يستر عورتي، لم أعد أرى غير مياه لا متناهية، ذات تيار وأمواج صغيرة تبدو حين أقاومها وأجدف بيدى وساقى كجبال عملاقة، أشربتنى جرعات من نفسها فتذوقت فيها طعم الطين. وبينما أنا فى شد وجذب، ألتقط أنفاسى بالكاد وأقاوم التيار، سمعت غير مصدق لنفسى فرقعات متتالية بعيدة، وإذا بالمياه تجفل فى عنف عند نقاط معينة كأنها تمر عبر مصفاة دقيقة، ورفيقى يصيح كالمجنون. أحسست فى لمح البصر بسهم من النار يتفجر فى ركبتي، وأخذ النهر يسحبنى إلى القاع بأياد خفية، وانتشر بين فمى وأنفى طعم لاذع لا يشبه طعم الطمي، وإذا بى أسبح

فى هالة كبيرة من الدماء. لحظتها، أقسم أن صوت جيمى كليف انبعث من سماعات فى داخلى وحثنى أن أعبر نحو الضفة... نحو الحياة. أدركتها دون وعى منى ورقدت أتلوى فوق حشائشها من الألم، وتكدست أمام عينى غشاوة وأنا أنظر عبر حلكة الليل من خلفى إلى الضفة الأخري، وما يبين عليها من أشباح أناس وأسلحة، بينما النهر بيننا خال تماما من رفاقي، وتياره المجنون يحمل الأخشاب الميته إلى مدن جديدة فى الصباح..

كانت التجربة بأكملها تمر فى عينيه وهو يرويها، رأيتها فى دمعة جفلت فجأة واستقرت على سطح الطاولة، وفى خط من الألم عبر وجهه مرات عديدة. مسح عينيه على عجل، أشعل سيجارة أخيرة تبقت لديه. اعتذر لى دون حاجة منه لذلك، وقال: لم أحضرك هنا لهذا السبب ..

أخرج من جيبه مستطيلاً صغيراً مغلفاً بورق الهدايا وأهدانى إياه. قال: اسمعه حين يحين دورك.

تشبثت بذلك اليوم وانتظرته أكثر. افتقدت ضجة جبريل فى أنحاء الشقة. ولأواصل مسيرة الحياة، نقبت فى ذاكرتى عن شيء يعزينى ويمنحنى القوة بعده، شيء يجعلنى أحس بأننى مهم فى عرف إنسان ما، فاندفعت أفكر فى أمي. تذكرتها على رصيف المحطة، وهى تقول شيئا عظيم الشأن، قبل أن تغلق عينيها كمن يحتفظ فى ذهنة بمشهد أخير. بدا ما قيل على بعد سنتين وهمًا لا حقيقة. لكن تعابير وجهها التى ارتبطت بتلك اللحظة تجعلنى أوقن أن ما قيل قد قيل. ياسر هو الحقيقة الأسمى فى حياتي، وجبريل أيضا، كان حقيقة وخلف فى الشقة صمت يشبه الأغنية.

أما أنا فليست فى قلبى من قدرة على أن أمسك ريشة. أنا وحيد، و"مأساته" تزورنى من جنبات الصمت بشكل أعنف، تحثنى على أن أطلق سراح الألوان الكامنة فى ظلمات نفسي، والصمت كله يأمرنى بالرسم ...

امتثلت لذلك الأمر فى يوم كان البرد فيه يقسو على الأبدان، والشارع يستغرق فى المطر. ليس فى البيت ضوء سوى ما ترسله الشمس من نور شحيح عبر فرجات الغمام الأسود. وقفت فى مثل تلك الإضاءة الخافتة معطيا ظهرى لباب الشرفة المفتوح. وكان باب غرفتى مشرعاً فى مواجهتي، وشبَّاكها مفتوحاً بمصراعيه على حائط مسدود فى بئر السلم.

وفى ضوء شحيح يشبه الظلام، أخذت أمزج الألوان فى عقلى لا بعيني، ثم أخذت الريشة تتحرك فى يدى ببطء وصعوبة. وإن كنت قد تحاملت وأكملت، فذاك لأننى أردت أن أرى حدودي. أخذت الريشة تخف شيئا ف شيئاً وبانت بعض التفاصيل التى لم تكتمل بعد. فحثثت فى دواخلى ذلك الإحساس الطاغي بخصوصية اللحظة، سامحت كل من فى الكون إلا نفسي، غيرت ريشات الرسم، ألبستها ألوانا داكنة وأخرى زاهية. نبعت من دواخلى طاقة غريبة، عالمى بأكمله أخذ فى الركض والحركة، الريشة قد عادت إلى وزنها الطبيعى وصارت مطواعة فى يدي. والتفاصيل شحيحة كشح الضوء، لكننى لن أتوقف: لا يزال هنالك فراغ كبير لأملأه.

تصلبت الريشة فى يدى بعد ساعات، تلك كانت حدودى ولم يعد هناك من مجال للتقدم. نظرت إلى صنع يدى بتمعن شديد، فألفيت الألوان شاحبة كأوراق المنشورات. وانتظرت حتى أشرقت

الشمس فى الخارج وانقشع الغمام، وزارتنى بأشعتها الذهبية عبر شرفة المنزل من زاوية شرقية، عندها تكشفت الألوان أمام ناظرى كالسحر على حقيقتها وأيقنت أننى قد صنعت أعجوبة!

أسميتها "شباك المستحيل" وتركتها على حالها لتكون فاتحة الإلهام وجالبة الحظ. وفى الأشهر التالية تجمعت عشر لوحات فى صالة المنزل واحدة تلو الأخري. وحين عرضت رئيسة إحدى المنظمات التطوعية أن تقيم لى معرضا. قلت: حيث يمكن للناس أن يروا الألوان التى نبعت من ظلمتي؟

قالت: نعم ... فوافقت.

❖❖❖❖❖❖❖

كنت أصغر الرسامين المشاركين فى يوم الافتتاح، لكن مظهرى لم يوحِ لأحد بذلك. كنت شبيها بالحجر الأجوف لو رأيتنى من منظورين، فملامحى هادئة، ووقفتى واثقة توحى بعدم الاكتراث، بينما يدق قلبى من الخوف وتنكمش معدتي، ويضطرب كيانى الداخلى كلما اقترب الوقت لفتح الأبواب للحضور.

وقف كل رسام أمام لوحاته فى القاعة الصغيرة. ثم انفتح الباب فى تمام الثامنة وامتلأت القاعة فى لمح البصر بعدد لم أتوقعه من الناس. أناس لم أرَ مثلهم قبلا فى زحام القاهرة، كأنهم ينأون بأنفسهم عن صخب المدينة فى النهار، ثم يسمعون عن هذه الأمسيات فى صحف الثقافة، وعلى جدران المقاهى والحانات فيخرجون من مخابئهم.

أضحى الزحام طابع المكان بعد دخولهم، ثم حضر آخرون وزاد عدد الحضور عن سعة القاعة. وتجمعت سحب الدخان دفعة واحدة، كأن كل مدخن ظل يختزن الدخان فى الخارج ليطلق سراحه فى الداخل.

أما القاعة نفسها فكانت تفى بالغرض لا أقل ولا أكثر. وفى ضوء أنوار الفلورسنت البيضاء كان اللون الأزرق فى اللوحات ينحاز إلى الاخضرار، والألوان الفاتحة فى جميع اللوحات تبدو أكثر سطوعا بتأثير خلفية الحائط الرمادية الغامقة. لم يكن السجاد فاخرا، ولا فى السقف زخارف. لكن شيئا ما فى روح الليلة ذاتها منحها ذلك التفرد العجيب. ربما الموسيقى التى أخذت تنبعث من عازف الفلوت، أو الحسناوات اللاتى امتزجت عطورهن ببعضها كصلصال الأطفال. أو هو إحساس بنشوة الانتصار الذى توهج فى داخلى حين وقف رجل أمام إحدى لوحاتى وأمعن النظر. ربما لم أفكر فى الأمر كثيرا وقتها، واستمتعت بسحر الليلة.

توقفت الموسيقي، وخاطبه رئيسة المنظمة الحضور، سيدة عميقة المشاعر فى عمر أمي، إنسانة تفيض إنسانية، ترسم وتكتب وتغنى وتدير المؤسسة التطوعية. سمعت عنى من أحاديث اللاجئين، واتصلت بى فى نفس الليلة. حددت معى موعدا لرؤية لوحاتي. وحين حضرت إلى منزلى ووقفت فى منتصف اللوحات العشر، تهدج صوتها وهى تنظر فى أعماق عينى وتردد: أنت فنان حقيقي، لا أصدق أنك قد تجاوزت العشرين لتوك.

و لم أكن قد تجاوزتها بعد، لكن جواز سفرى يقول غير ذلك. أهدانى إياه ياسر يوم أهدانى القصة ويوم أهدانى الطريق. أجبتها: أنا روح عجوز.

وفى اليوم الثانى دعتنى إلى مطعم فاخر فى وسط البلد. ألفيتها تقرأ كتابا فرنسيا حين حضرت. وضعته فى حقيبتها وتبادلنا الحديث أثناء العشاء. أخذت تتحدث وترتشف النبيذ الأحمر، وتقطع شريحة الإستيك فى بطء وهدوء، وتأكله فى قطع صغيرة. وفكرت أن أمثالها قد وجدوا لأجل هذه الأماكن. كل شيء فى هذا المطعم يشبه هذه السيدة. الموسيقى الأوبرالية الحنينة، وأضواء الشموع التى تنعكس على الأكواب المصقولة، وفرش الطاولة النظيف. حتى أن الناس الذين جلسوا حول الطاولات الأخرى فيهم شيء منها على نحو ما. هذه أمكنة تفهم هؤلاء القوم ويفهمونها.

كانت حين تصمت تبدو كامرأة طاعنة فى السن، وحين تبتسم تعود سنوات إلى الوراء. ابتسمت وهى تحكى عن ابنتها التى ترقص الباليه. سألتنى عن نفسى وحكيت لها بعض الأكاذيب. كانت كلمات ياسر تخرج من فمى وتجيبها، والصور ترتسم فى ذهنى كاللوحات التى أبنيها على خيالى المحض أحيانا فتبدو واقعية ومفهومة. حكيت لها كل شيء حتى وصلت إلى لحظة اعتقاله، ولم أجد سببا أن ألوث أحزانه بالحديث عنها لامرأة التقيتها مرتين. قلت: اسمحى لى ألاّ أخوض فى هذا الحديث، سأفسد الليلة دون سبب.. فهمتنى تماما.

قالت: تدهشنى مثابرتك على الحياة برغم الأحزان، أنت باعث للتفاؤل فى حياة الآخرين.

عرضت على أن أقيم معرضى الأول لديها. قالت: لقد أخذت بيدى اليوم وأحييت روحى وسيكون لى شرف الأخذ بيدك فى معرضك الأول ..

قلت: حيث يمكن للناس أن يروا الألوان التى نبعت من ظلمتي؟

قالت وهى تمسح الدمعة التى سالت دون مقدمات على خدها بمنديل المائدة: ما دامت قد نبعت من داخلك أنت يا يعقوب فهى نابعة من قلب يتوهج. لكن إن كان هذا سيجعلك توافق، فجوابى هو: نعم.

لم تعد تشبه المكان الذى يفهمها وتفهمه. بدت كسيدة ريفية طيبة تمسح دموعها بأقرب قطعة قماش. سيدة فى بداية الشيخوخة، أعمق من التى عرفتها فى أول الليلة ألف مرة. وافقت على الفور.

أخذت السيدة تستعرض أعمال المشاركين وإنجازاتهم، والناس يسمعونها بنصف بال بينما يطوفون فى أرجاء القاعة فى رتابة. ثم صمتت قليلا كمن يستعيد تجربة كاملة فى ذهنه وأشرق وجهها بابتسامة أعادتها سنوات إلى الوراء. قالت: ثم أصل بكم إلى يعقوب عثمان، وهو أصغر المشاركين، لكن فى أعماله وقصته ما يحيى أرواح الكهول...

أخذت تتحدث عنى باستفاضة شديدة. رغم أنه لم يكن فى رصيدى شهادة أو إنجاز كبقية المشاركين. لم يكن فى رصيدى سوى أكذوبة كبيرة، ولوحات مشرقة الألوان تمتلئ القلوب لمرآها بالأمل.

قالت: هو لاجئ، وضحية تعذيب، وشاب شجاع... هو رسام وشاعر وإنسان عميق.

تحدثت عنى من القلب، الإنسان لا يخطئ مثل هذه العاطفة الأصيلة. انتبه الحشد، وتزاحموا عند لوحاتى كأنهم يلحظونها

لأول مرة. كان صوت السيدة العميقة ينبعث من سماعات الميكرفون عاليا مترقرقا، وتنقلت عيناى بعد ثوان معدودة بين عيون كثيرة امتلأت ببريق غير مفسر، كأنما الألوان خاطبت أصحابها بأسمائهم الأولي.

تذكرت وصايا ياسر الأخيرة فى الميناء، رأسى مدفون فى صدره وهو يحثني: حياتك هى الأصل وحياتى الأكذوبة.. تذكر أن تتصدق عليهم بكذبة كاملة.

أنا الآن يا أخى فى زمان ومكان شاسع البعد عن ذاك، انظر فى وجوه جماعة من الغرباء. رجال أنيقون ونساء فاتنات، آخرون ذوو شعور مجعدة ونظارات طبية سميكة، آخرون من كل شكل ولون، من كل سن وحجم. أتمعن فى سعادتهم وهم ينهلون من ألوان مأساتك بأعينهم. لولا وصاياك الأخيرة، لما أحسست أن الحب الذى أسبغه القوم على أنا، هو واحد من حقوقى المشروعة، ولما استسغت أن أمنحهم بعض الإجابات عن تساؤلاتهم الكثيرة: كيف فعلت؟ وماذا حدث؟ وكيف انتصرت على كل تلك الأحزان؟

أخذت كلماته تخرج من فمى وتجيبهم. إن ذلك الطريق الذى قد وضعنى فى أوله قد تكشفت الآن فيه معالم وآفاق جديدة. كان صوت السيدة هو صوتى على طاولة العشاء، وصوت ياسر، وصوت الأكذوبة، واللوحات على الجدران تشع بالفرحة كقوس قزح يتبع سحاباً خلباً يبهج القلوب. تعالى التصفيق فجأة وعاد عازف الفلوت يعزف من جديد، فكانت لحظة أخرى للممكن، رأيت فيها لمحة من المستقبل وأدركت أننى سأمتهن الرسم.



صار المعرض خاليا من الناس بعد أسبوع، حتى أصبحنا نفرح بزائر أو اثنين فى اليوم. وعلى الرغم من ذلك زرته فى كل ليلة، لا لشيء سوى أن أكسر رتابة انتظارى منذ أكثر من عامين لمقابلة هيئة المحلفين، الذين كنت فى حاجة لإقناعهم بحقيقة قصتى للحصول على اللجوء السياسي.

ذهبت إلى قاعة المعرض فألفيتها خاوية على عروشها. مما جعلنى أعير فتاة وحيدة وقفت أمام ركن لوحاتى بالذات أهمية خاصة. ولأن حدسى وذاكرتى التى تحفظ الوجوه قالا لى إنها لم تكن حاضرة فى يوم الافتتاح أو طوال الأسبوع الماضي، فقد أثار وجودها فى ذلك اليوم المزيد من الفضول.

ثم إنها أخذت تكتب شيئا على كتيب صغير، ولا تلبث أن تعاود النظر، وقد وقفت على مبعدة بحيث تغطى بعينيها اللوحة بأكملها حتى حدود إطارها، وتلك وقفة إنسان يتذوق الفن ويعرف كيف يقرأه.

مشيت نحوها فى هدوء ووقفت بجوارها. اقتربت منها وقلت فى هدوء يشبه الهمس: مساء الخير.

ردت فى هدوء يماثل هدوئي: مساء النور .. ثم تجاهلتنى تماما وعادت لما كانت تفعله.

ايقنت من لكنتها أنها سودانية فانتابنى الفضول مزيدا. ملت برأسى لأتلصص على ما تكتبه، فأحست بى وأغلقت الكتيب فجأة. التفتت نحوى وقالت فى حزم: هل يمكننى مساعدتك؟

عندها رأيت وجهها الجميل عن قرب. شابة سمراء فى أواخر العشرينيات. جبهتها عريضة تنم عن ذكاء فطري. وخلف نظاراتها

الطبية بانت عيون واسعة وناعسة، ذات لون بنى غامق قد ينحاز تحت ضوء الشمس إلى لون العسل. شعرها حالك ومسترسل كفرشاة رسم غمست فى سائل أسود. جاءتنى الصورة بهذا الشكل وأنا أتابعها من أسفل كتفيها الضيقتين إلى أعلى جبهتها العريضه، التى توجها شعرٌ بدا لى كمجموعة من أشجار متناسقة فى حديقة منزلية.

زمت الفتاة شفتيها الممتلئتين فى حزم. ليس ذلك الحزم الذى ينفرك من الاقتراب منها، لكنه الحزم الذى يرسم فى الهواء خطا لا يتجاوزه أحد.

قلت لها متأدبا: لم أقصد التلصص، عفوا .. واستدرت لأذهب. لكنها قرأت أفكارى فى تلك اللحظات القليلة، قالت: كان لديك شيء لتقوله أليس كذلك ؟

- فعلا، رأيتك تنظرين إلى اللوحة فأردت أن أشاركك رأيى فيها هذا كل شيء..

علا وجهها ابتسامة ساخرة وقالت: تفضل.

قلت: اسمها "عنقود العنب". وأظن أن تفاصيل اللوحة تكشف الاسم. لا شيء هناك سوى عنقود العنب يتدلى من قمة اللوحة، لا أحد يعرف، حتى الفنان نفسه فيم هو معلق. لو كان الإطار أكبر، فربما بانت الشجرة الأم تنمو على عريشة المنزل أو ربما بان العدم واللاشيء.

أترين تدرج الألوان من أعلى إلى أسفل، ومن اليمين إلى اليسار؟ أنا أرى درجات البنفسجى المحمر تهبط قليلا إلى درجات تالية حتى تصل إلى درجات من البنفسجى المزرق، مما يعطى حبات العنب إحساسا ينبض بالحياة، ويؤكد فى نفس الوقت ذلك التفرد التام

لكل حبة عنب على حدة، رغم أنها قد نمت وتغذت من نفس العنقود. ثم تأتى الخلفية بلون أصفر براق كأشعة الشمس، فتؤثر على عنقود العنب نفسه وتجعله يبدو شاحبا. كأنما الخلفية هى الحياة نفسها التى أنهكت حبات العنقود كلها وأضنتها.

كان حديثى قد مسح خط الحزم المرتسم فى الهواء، وجعل ثغرها ينفرج عن ابتسامة. قالت: كم عمرك؟

قلت: عشرون ..

قالت فى ثقة: أنت أصغر من ذلك.

أشحت بنظرى عن عينيها فأضافت: هناك شيء أغفلته.

قلت: لا أدري.

قالت: هذه الحبة فى آخر العنقود، أظنها الرسام نفسه، فهى لا تشبه بقية الحبات فى شيء، أتري؟ إنها منعزلة وبعيدة عن غيرها، كأن الفنان ينأى بنفسه عن صخب الحبات الأخري، كما أنها تنبض بالحياة والأمل أكثر من الأخريات، أو على الأقل هذا رأيى ...

تنهدت الفتاة فى عمق قبل أن أعرب عن دهشتى وقالت: اسمى ياسمين حامد ..

- يعقوب عثمان .. قلت وأنا أصافحها.

ضغطت على يدى وصاحت: أنت الرسام إذن!

هززت رأسى بالإيجاب.

طفنا بجميع لوحات العرض الأخري، وأعطينا كلا منها ما تستحقه من الوقت. ورغم أن جميع لوحات الفنانين المشاركين كانت تندرج تحت مذهب الطبيعة الصامته، فإن ياسمين قد وجدت

دوما شيئا لتقرأه فى تفاصيلها الجامدة. أخذت تشاركنى أفكارها حول سلة فواكه أو إناء طهى أو حائط راسخ، وتنبئنى بأشياء لم تكن لتعرفها بمحض المصادفة أو التخمين.

اندمجت هى فى حديثى وذبت فى حديثها حتى خفتت مزامير السيارات فى الجسر الذى يمر فوق صالة العرض، وهدأ العالم فى أذنى بغتة، ولم أعد أسمع سوى صوت فتاة غريبة تعرف بواطن الأشياء كوسيطة روحية.

أخبرتنى ونحن نقف أمام "شباك المستحيل"، أننى لم أحس بالوحدة طوال حياتي، وأننى حين أحسست بها لأول مرة، رسمت "شباك المستحيل". قالت: إن الماضى يطل من لوحاتي، كما تطل فرجة التفاؤل لأنك لم تفقد الأمل فى المستقبل بعد. أضافت: أنت بارع فى استخدام الألوان المائية، رغم ظنى أن المشهد الحقيقى ليس براقا كهذا. أنت تحاول أن تجعل من التفاصيل العادية تفاصيل فوق العادية وأشبه بقصص الجنيات، وذلك ما يمنح أعمالك هذا التميز.

أشارت بيديها إلى مجمل لوحاتى قائلة: أستطيع أن أرى الأمل فى ألوانك لو أنا أردت ذلك. فكل إنسان يفتش عما يمنحه دافعا للتفاؤل.

سألتها عن نفسها لكنها لم تبح بالكثير. قالت إنها تكبرنى بثمانية أعوام إن افترضنا أن عمرى عشرون سنة. وأنها تقضى مرحلة مهمة فى حياتها المهنية. كانت مهتمة جدا بمعرفتى كأننى محور الليلة. ودفعنى ذلك لأن أمطرها بسيل من الأكاذيب. أى شخص غيرها كان ليسمعنى بتأثر، وربما بشيء من الإعجاب والتعاطف، أما هى فاكتفت بأن تهز رأسها وتغمغم: همم..

أغاظنى ذلك على نحو ما، فقررت أن أصدمها بتجربة اعتقالي. لكنها تفادتنى فى ذات اللحظة بسؤال غير متوقع: هل وقعت فى الحب قبلا ؟

لم أكن قد وقعت فى الحب، ولم أشأ إخبارها عن تلك الشهوة الغريبة التى انتابتنى نحو سلمي، واسألها إن كان ذاك هو الحب ...

لم أجب. أخبرتها أننى لاجئ سياسي. قلت: إن الانتظار قد أتعبني، لكننى لن أنهار الآن؛ لأننى أسعى نحو مصير مختلف. ثم بحت لها بشيء عبر ذهنى وهى تركز عينيها البنيتين على وتنصت فى إمعان، قلت: أنت جميلة للغاية.

مرة أخرى لم تتفاجأ، مسحت على وجنتى كأننى طفل رضيع وهى تقول: الجمال جمال الروح، فأنت أجمل منى إذن.

مشيت معها على رصيف الشارع طويلا. وفى آخر الليلة أعطتنى كارتها، وأعطيتها كتيب به نماذج من أعمال الفنانين المشاركين. ميزت أعمالى بعلامة، فأثنتنى عن ذلك؛لأنها تعرف أسلوبي. والتفتت نحوى قبل أن تركب سيارتها لتذكرنى بشيء لم أكن قد نسيته. قالت: لابد أن أراك غدا، أرجوك اتصل بي.

ثم انطلقت كما جاءت فجأة واختفت عن ناظرى، تاركةً إياى فى حيرة تشبه أحلام اليقظة. وبعد ان تبددت أضواء سيارتها الخلفية الحمراء عن مجال إبصارى، جلست على الرصيف المتسخ وحيدا، وأخذت أقرأ الكارت مرارا كمن يقرأ جواب غرام:

"ياسمين حامد.

طبيبة نفسية.

مركز الأمل لضحايا التعذيب"

❖❖❖❖❖❖❖

خرجت بعد تلك المكالمة، وكان الشارع قد ازدحم منذ الفجر بالمارة. تلك مدينة تستيقظ مبكرا. مدينة تقسو فى النهار وتحنو فى الليل حين ينام الناس. لم أعرف فيها غير الطريق إلى المنزل ومفوضية اللاجئين وبعض المقاهى والبارات. فالأهرامات والمطاعم النيلية والمتاحف ودار الأوبرا ليست لمن هم مثلنا من اللاجئين، ولا هى للعمال الذين يحضرون بالملايين من الضواحى والمدن الأخرى كل صباح، ويغادرون حين يحل المساء. لكنى عشقت فيها ميدان التحرير، حيث تنام المومياوات فى المتحف المصرى منذ آلاف السنين. ذلك مكان ليله حالم، يجعلنى أحس بأن المدينة ميتة، وأن فى الموت سلام.

وصلت إلى مركز الأمل لضحايا التعذيب، شقة صغيرة فى الدور الرابع بإحدى بنايات مدينة نصر. ركبت المصعد، فألفيته قطعة من الخردة أشبه بزنزانة تتأرجح بحبال بين السماء والأرض.

كانت مرآة المصعد فى مقابلتى قد فقدت بريقها، وتحطمت إلى عشرات القطع الصغيرة، التى لا تزال تتشبث بالصمغ إلى جدار المصعد. انعكست صورتى على كل واحدة من القطع الصغيرة، كأنما وجهى يتكسر فى المرآة نفسها إلى آلاف الوجوه، فلا أعلم أين الأصل وأين الوهم. بينما امتلأت الجدران الثلاثة الأخرى ببوسترات كثيرة، عليها آيات وأدعية، ومحاذير لتاركات الحجاب والصلاة والمقصرين فى دينهم. كأنهم يهيئونك بذلك لملاقاة ربك حين يسقط المصعد وتموت.

وصلت سالما وعدت إلى الواقع مجددا. بحثت عن المركز وسط الشقق السكنية، ودلفت من بابه المشرع.

كان المركز مختلفا عن بقية البناية، كأنه قد وضع هناك على سبيل الخطأ. على جدرانه صور كثيرة، ولوحات سريالية، سافرت فيها وأنا أجلس على مقاعد الانتظار فى الصالة.

لبثت أنتظر فترة من الزمان حتى حضرت ياسمين صوبي، تحمل فى يدها كوب قهوتها الصباحي. سألتنى عن أحوالى وهى تعد لى كوبا من الشاى فى مطبخ صغير يتصل بغرفة الانتظار، ثم قادتنى إلى مكتبها البسيط.

جلست فى مقابلتها، وكانت قد ازدادت غرابة فى الصباح. بدت كشخص غير الذى قابلته فى الليلة الماضية. وجهها خالٍ من مواد التجميل تماما، وترتدى ملابس رسمية. لكنها تبدو بهذا الجمال الرباني، وقد ربطت شعرها فى ضفيرة كذيل الحصان، أكثر سحرا من البارحة.

أخذت ترتشف القهوة فى هدوء وتلذذ، وسألتنى إن كان كوب الشاى قد أعجبني. بدا واضحا أن مزاجها حسن للحديث. سألتها عن نفسها. فقالت:

- أنا طبيبة نفسية، أحضّر الدكتوراه وأعمل فى هذا المركز حيث نساعد ضحايا التعذيب على تجاوز محنتهم.

لم يكن ذلك كافيا. قلت: كيف سمعتى عن معرضي، وما الذى دفعك للقدوم؟

قالت: أخبرنى زميل لى كان حاضرا يوم الافتتاح عنك، نقل لى تقديم رئيسة المنظمة لك، فذهبت لأراك.

ثم أدارت دفة الحديث. قالت: من علمك الرسم ؟

قلت: أخى فى الحقيقة، كنا نقرأ المجلات المصورة فى صغرنا، ونتخذ من شخوصها الوهميين أبطالا ومثلا عليا. لم نترك شخصية كرتونية فى التلفاز إلا ورسمناها، تلك كانت البداية.

- و أخوك، هل واصل الرسم ؟
- نعم، لكن فى أحيان قليلة وفى أوراق المنشورات فقط. حين كانت لوحاته تخضع للطباعة فى المطابع السرية، تخرج للناس فى هيئة خطوط سوداء وظلال بائخة، فلا يرون مهرجان الألوان المحتدم خلفها. هو يرضيه ذلك، أما أنا فأحب الألوان، وأضعها فى مرتبة أعلى من المضمون نفسه.

تحدثنا عن طفولتى وعائلتي. كنت أسألها بين الحين والآخر أيضا، وعرفت من إجاباتها المقتضبة أنها بنت أمها وأبيها الوحيدة. كانت لا تزال تتذكر الأكاذيب التى حكيتها لها فى المعرض، حين أغاظتنى بترديد: همم .. والآن فقط أدركت أنها أنصتت إلى جيدا وقتها؛ لأنها قادتنى عبر تلك الأكاذيب حتى وصلنا إلى المعتقل.

عندها سألتنى كمن يحسب كلماته: هل تذكر تفاصيل التعذيب؟

لم أجبها. كنت منجذبا إليها على نحو ما وكنت قد سئمت الكذب. ثم إن فى عيونها شيئا جعلنى أود لو أفتح قلبى وأبوح لها بحقيقة خوائي، لتقبلنى كما أنا أو تلقى بى خارج حياتها.

أضافت فى رقة لتقطع صمتي: ليس من الخطأ أن يكون لدى كل منا ذكريات سيئة، وليس من الخطأ كذلك أن ننظر إليها بين الحين والآخر.

- من لم يتعرض للتعذيب؟ قلت مراوغا. وأضفت بنفس النبرة: الإنسان فى العالم كله يتعرض للتعذيب يوميا دون أن يحس. العامل يفنى جسده لأجل رب العمل. والموظف يستنفد عقله فى أمور لا طائل من ورائها. الحياة نفسها لا تستوى إن لم يعذب

الكون بعضه. الشمس تستلذ بإذابة الجليد وسفك العرق، والبرد يقطع أطراف المشردين ويزيد جوعهم، والطالب يصبح جنديا، والجندى يقتل الأبرياء، والضمير يعذب كل إنسان.

قالت فى هدوء ينضح ثقة: الهروب من الواقع ليس جيدا فى مطلق الأحوال، أحيانا نحتاج لو نطيل النظر إلى الماضى كخطوة أولي، فقط فكر فيها كخطوة أولى نحو المستقبل.

استفزتنى ثقتها المطلقة، هى الأخرى مغرمة بتلك القصة اللعينة، وتضغط بثقلها على قلبى لأقصها عليها. حزمت أمرى على أن أصدقها القول. قلت: نعم. أستطيع أن أروى لك تفاصيل التعذيب، لكنه ليس ما تظنين، إنه تعذيب الضمير الذى يرهق قلبى !

ضغطت بصوتها على قلبى مزيدا: لماذا ؟

انفجرت فجأة: لأن فى داخلى مأساة أحملها حيثما حللت فتنفتح الأبواب فى وجهى لأجلها، وهى ليست مأساتي، إنها مأساة أخى !

ارتسم الاستغراب على وجهها ومالت للوراء قليلا، كأنها ترخى الحبل عن حصان هائج ليستكين. عندها أحسست بأننى تصرفت بغباء وحدت عن الطريق قليلا. تذكرت صوت أخى فى مكان وزمان غير هذا وهو يقول: إنها قصتك الآن، إحكها لهم وانتزع حقك فى الحياة. لكننى تجاهلته. قلت: إنس ما قلته يا ياسمين، أنا حضرت اليوم لأننى أردت رؤيتك فقط، وأرجوك لا تقلقى علي، فأنا لم أتعرض لأية تجربة غير سارة فى حياتي، فقط تعرضت للضرب فى مسيرة سلمية، هذا كل شيء.

قالت وقد انصرف اهتمامها إلى شيء آخر: حدثنى عن أخيك.

- لن أحدثك عنه، هو لا يشاء ذلك. يمكننى أن أكون صديقك، لكن ليس مريضك، فأنا معافى ولا أحمل ذرة حزن واحدة.

قالت: إن لم تشأ أن تتحدث عن الأمر فلن أضايقك، ولا بأس أن أكون صديقتك، يشرفنى ذلك.

قلت: نخرج هذا المساء إذن؟

و انتظرت إجابتها فلم تجب. ألححت بالسؤال وهى تفكر، ثم حزمت أمرها أخيرا وقالت: اليوم مشغولة، فى نهاية الأسبوع أستطيع الخروج معك.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

انتظرت موعدى مع ياسمين طوال الأسبوع، وكنت لم أزل فى انتظار مقابلتى لهيئة المحلفين أيضا. ولم تكن مقابلتى لهم أقل أهمية بالنسبة لى مما سبق، لكن الانتظار يضحى أقل وطأة حين يعترضه انتظار آخر، انتظار مشوب بالعاطفة.

بقيت فى المنزل لا أفكر فى شيء سواها. أقطع طعامى لأطوف حول المنزل بلا هدي، وأزرع الشرفة والمطبخ والصالة جيئة وذهابا.

كانت صورتها فى ذهنى صورتين، كل واحدة لوقتها. فى الليل أتذكرها بوجه غامض يختبئ خلف مكياج خفيف، وفى النهار أتخيلها أكثر فتنة بذلك الجمال الرباني.

و قبل ليلة من لقائنا ازداد تلهفى ولم يعد محتملا . وفتشت فى أرجاء المنزل عن أى شيء أطفئ به نار الترقب. زجاجة عرقى أو أقراص منوم. أظننى لو وجدت لفافة بنقو نسيها جبريل على سبيل الخطأ كنت سأدخنها .

دخنت علبة سجائر بأكملها وأنا مستلقى على سريري. وفتحت شباك المستحيل لأبدد سحب الدخان قليلا . كان الليل قد مضى نصفه، والنصف الآخر لن يأتى بشيء سوى مزيد من السهد . حاولت أن أشتت عقلى فى مروج أعد خرافها الوهمية لأنام، وفى ذكريات بعيدة، وأغانٍ سمعتها فى مكان ما. لكن يد السماء أنقذتنى من الصمت الذى أطبق بثقله على المكان وجعل صوت الهدوء فى أذنى أشبه بالطنين. رن جرس الهاتف.

لو كان المتصل قد أخطأ فى الرقم، كنت سأبذل ما فى وسعى ليحدثنى قليلا، لكنه كان شخصا آخر، شخص أحس بما أعانيه برغم المسافات التى تفصلنا .

جاءنى صوته غريبا من سماعة الهاتف، كهمهمة الرياح فى نقطة عند آخر العالم، يوم كنت أحتضن سلمى وأحس نحوها بانجذاب جنسى مريب. تلك الهمهمات الغريبة التى ملأت أذنى ماثلت صوت ياسر فى مثل ذلك الأرق حين سألني: هل أنت بخير؟ ... لماذا أنت صامت؟

تنبهت إلى صمتي، فقلت بعناء: أنا لا أستطيع النوم، أتمنى لو كنت معى يا ياسر ..

قال: أعلم يا أخي، أستطيع أن أتبين ذلك من نبرة صوتك المتعبة، ماذا هناك؟ هل أنت مريض؟

- كلا، هنالك سبب آخر.

اكتسى صوته بالقلق، فقلت موضحا: حتى أنا لا أصدق سبب أرقي، لكن أظنني قد وقعت في الحب.

صاح كمن يضع وزرا ثقيلا: حقا!

كان ذكيا فأعطيته رءوس أقلام عن القصة وكعادته فهم الباقي بنفسه.

صمت أخي قليلا كمن يستجمع نصيحة مهمة في ذهنه، ثم قال: لابد أن ترتاح قليلا إذن، لديك موعد مع الفتاة غدا، ماذا لو مضت الليلة كما تشتهي؟ هل فكرت في ذلك؟ سيكون أداؤك ضعيفا.

قهقه بالضحك بينما ابتسمت أنا في أسي، قلت له كمن يخاف مواجهة نفسه بالحقيقة: إنها تريدك أنت يا ياسر، دوما تسألني عنك، ليس لدى في حياتي شيء يثير اهتمامها.

قال: لديك حياتي.

قلت في غضب إنسان لم ينم منذ يومين: لقد سئمت من أن أستغل قصتك بهذا النحو، أنت من تعرض لتلك الأشياء الرهيبة وأنا أحصل على كل شيء، ألا تحس بأي نوع من الأسي؟

- كلا .. قال في برود.

علا صوتي: أنا لا أستحق هذه المحبة يا أخي.

قاطعني: كفي، أنت جزء مني وإن كنت لا تحس بذلك فهذا شيء يحزنني. لا تقلق، فأنت لا تفعل إلا ما طلبته منك، حين أخبرتني عن

معرضك الأخير وعن شهرتك الصغيرة سعدت بذلك للغاية؛ لأنك قد أثبت أخيرا أنك أكثر قوة منى الآن، وأنك قادر على أن تبوح للعالم بما فعلوه بي. أنت يا أخى فنان حقيقى قادر أن تروى لهم القصة بطريقتك الخاصة، هى قصتك الآن كما أخبرتك، قل لهم: لقد تركونى حطام إنسان، وسيصدقونك!

كان صوته قد أصبح أكثر وضوحا فى نهاية المكالمة، صار مفهوما تماما لا كهمهمات الرياح. صوت محدد وقوى لكنه ينضح بالآلام.

انقطع الخط فسمعت صفافير الهاتف المتصلة. ووضعت السماعة فى بطء، ولاتزال فى عقلى أصداء جملته الأخيرة. كنت لا أمانع الحديث إليه فى مثل هذه الأوقات الصعبة، حين يرفض اليوم أن ينتهى بسلام وتكون المخاطرة بالتفكير فى مأساته أقل وطأة، بينما كان الحديث إليه فى الأوقات السعيدة يثير فىَّ ذكرياته المريرة، ويزج بى فى متاهة من الحزن طوال اليوم. إن كان من شيء أحبه فعلا فى هذه الحياة الفانية، فذاك ياسر، وما فعلوه به يخنقنى بالغصة كلما سمعت صوته.

وكما يحدث بعد كل مرة حادثته فيها، تداخلت لوحات تنضح بالألم فى عقلى المؤرق طوال الليل. ولم تتوقف حتى بواكير الصباح، وحتى أشرقت الشمس من شباك المستحيل قليلا. ثم نمت لساعة من الزمان، واستيقظت فجأة، ولم أعد إلى النوم حتى غابت الشمس وحان موعد اللقاء.

كانت الأمطار تتساقط فى الخارج، والماء قد تجمع فى برك صغيرة. خدعت الأرق بحمام دافئ فى المنزل، وبملابس أنيقة تناسب السهرة. وجلست أسفل مظلة الدكان القابع أسفل عمارتنا أحدق فى الشارع الماطر، فى حالة من الصحو تشبه المنام.

لمسنى الحاج خيرى صاحب الدكان فى كتفي، فانتفضت فجأة. سألني: هل هذه السيارة تنتظرك؟

انتبهت إلى سيارة ياسمين تقف فى الناحية المقابلة للشارع، وهى تزمر وتنادى بأعلى صوتها ويضيع ذلك كله فى ضوضاء المطر الذى أصبح عنيفا. قمت وعبرت الشارع نحوها على عجل. وقفت بجانب نافذتها لألقى التحية، لكنها قالت: اركب الآن، هذا المطر سيصيبك بالبرد.

ركبت وأغلقت الباب، فهدأ العالم بغتة، ولم يتبقَ سوى صوت مصطفى سيد أحمد يملأ السيارة بالدفء. نظرت ياسمين نحوى بابتسامة، وكانت فى هيئتها المسائية، بأحمر الشفاه اللامع كثمرة الكرز، وظلال العيون الداكنة، والحواجب التى خططتها بعناية فائقة، وجفونها ذات اللون الأخضر الفيروزى الخفيف، ثم تصفيفة الشعر الذى توجت به استدارة جبهتها فبدا كمجموعة من أشجار متناسقة فى حديقة منزلية. قالت وهى تمسح المطر عن وجهى بمنديل: هل تأخرت عليك؟

- كلا، على الإطلاق ..

أمسكت عجلة القيادة فى رفق بيديها الناعمتين، ضغطت دواسة الوقود، فتحركت السيارة فى بطء عبر بركة صغيرة. سألتنى وهى ترمقنى بنظرة مرحة: هل لديك مكان تحبه أم أختاره لك؟

- أنا أثق فى ذوقك.

- حسنا إذن.

بقينا فى السيارة لنصف ساعة أو يزيد. وكان الخروج من المنزل قد أثار ذكريات النعاس فىّ مجددا، ذلك النعاس الذى يأتى

فى الأوقات الخاطئة. آخذت أغالب النوم بالنظر إلى انعكاس أضواء السيارات وأعمدة الإنارة على مياه المطر فى الشارع، وإلى ياسمين وهى تميل بالمقود فتتفادى السيارات المسرعة، والسيارات التى كانت تدخل إلى خط سيرنا فجأة بمهارة فائقة طوال الطريق. وبشكل غريب، كما كان قلبى ينقبض بإحساس فطرى بالخطر أحسست معها بالأمان المطلق، وتداخل ذلك إحساس بالتحفز آخذ ينتابنى كلما مدت ياسمين يدها اليمنى لتبدل السرعة فى عصا القيادة، وكنت أظنها تمدها نحوي، فأتهيأ لثوان فى انتظارها، ثم لا ألبث أن أنتبه إلى أنها قد أعادتها مجددا إلى المقود. فأنتقل بنظرى من المقود، إلى الأظافر المصقولة بألوان متمازجة براقة، إلى الكتف الأملس الذى ارتاح لفاع البرد عليه. وبينما نحن وحدنا نعيش صوت الأغانى الحنينة ودفء السيارة، ونمضى فى نعومة عبر المطر العنيف فى الجسر المعلق بسرعة خطره، كان إحساس النعاس يمتزج فى قلبى بإحساس الأمان المطلق، حتى ملت نحوها فى هدوء، وضعت رأسى على كتفها فى استسلام ثم على حجرها وغفوت.

وصلنا إلى مطعم عائم على نهر النيل، والنهر فى القاهرة لا يشبه ذلك الذى اعتاد أخى أن يعبره ويفض دواماته. كان ساكنا تحت الجسر، لايزيد عرضه عن رافد صغير. يحمل فى ظهره المطاعم العائمة، والنوادى الليلية الصاخبة، ويستقبل لطمات رذاذ المطر فى تسامح عجيب.

جلسنا حول طاولة تطل على النهر. وكانت مياهه مزيجاً من الألوان، هى انعكاس أنوار المطاعم والكابريهات على مرآته الداكنة بفعل الغمام الأسود فى السماء. وكان المطر قد أضحى رذاذا، فصار الجو باردا ينظف بهوائه رئتى مع كل نفس أشهقه. حضر النادل

يحمل فى يديه قائمتين، وخاطب رفيقتى بلقبها العلمي: د. ياسمين، نورتينا.

اخترنا ما يلائمنا، وردد النادل على مسامعنا ما قلناه ليتأكد قبل أن يغيب عن أنظارنا.

عاد علينا بعد مدة قصيرة بزجاجة من النبيذ الإيطالى طلبتها ياسمين. كنت أعلم أنها تمثل الجيل الأول من عائلتها الغنية برمته، فهى وحيدة أمها وأبيها، مما أتاح لها مساحة واسعة من الفرص. حتى أن كل واحدة من الشهادات التى علقتها على جدران مكتبها جاءت من قارة مختلفة. يعنى أنها طافت العالم وخاضت تجاربها بنفسها. وربما أحست أنه من الأسهل عليها أن تتبنى مثل هذا الذوق الغالى وتماشينى فيه كأى إنسان ناضج، بدلا من أن تحس بالوحدة جراء معاملتها لى كشخص يصغرها سنا.

أخذت الموسيقى الشرقية تنهمر من البيانو كرذاذ الأمطار على سطح النهر، حانية ومتتالية. راقبتها ترتشف من النبيذ الإيطالي، وتستهل عشائها بالخضروات فاتحة الشهية.

بدت الليلة فى أحسن حال. أو على الأقل حتى قالت ياسمين وهى تضع كوب النبيذ عن يدها فجأة: حدثنى عن أخيك.

قلت مخذولا: سأحدثك عنه حين أكتفى من روعة المكان، وفقط بعد أن أرتشف من هذا النبيذ الفاخر.

لم تمنعنى ولا سألتنى مجددا، بل اكتفت بمراقبتى أرتشف النبيذ كأسا وراء الآخر، حتى امتزج إحساس الأرق المنهك بإحساس النشوة ولم يعد يهمنى من الكون سواها. ذاب ذلك الخجل غير المبرر منى بين رشفات النبيذ وهدهدة الأمواج للمطعم

النهرى العائم. وبينما ترفعنا موجة وتنزلنا أخرى فى حنان يماثل هز الأم لمهد الطفل، وجدت نفسى أتغزل دون عناء فى وجهها المسائى كثيرا. لاحظتها تستجيب ببطء فى اضطراب جلستها، وفى عينيها التى أضحت خجولة وناعسة. تحول فمى عند نقطة ما إلى إسفنجة تنقط العسل، وأخذت أبوح عن إعجابى بالعقد حول رقبتها، وبابتسامتها البيضاء. قلت لها فى جراة لم تعهدها فىّ من قبل: عشقت غموضك منذ رأيتك أول مرة.

راقبتها فى لحظة صمت قصيرة، ترتشف النبيذ وترتوى بنشوة حديثى الذى لم يزل يدغدغ حواسها فتبين أسنانها اللؤلؤية خلف شفاهها المكتنزة. قطعت الصمت قائلا لها: أنت ملاكى الحارس، أين كنت حين احتجتك فى الماضي؟

حلقت عاليا ووجدت نفسى أندفع للحديث عن الماضي، وأحكى الأكذوبة من جديد. إلا أنها، لم تهمهم فى حياد هذه المرة. كما لم تختبئ خلف نظاراتها الطبية التى نزعتها عن وجهها، ووضعتها على الطاولة لأراقب شيئا يشبه الاستمتاع أخذ ينبع من عينيها. وأخذت أحس بقدمها تداعب قدمى أسفل الطاوله، فأضفت تفاصيل لم تحدث، لأجعل من تلك لاعمال الضئيلة ملحمة كبيرة، وأضحيت بطلا فى نظرها، وربما فى نظر نفسى أيضا. إن فى تلك الأكذوبة سحرا يروى القلوب.

مدت يدها بكأس النبيذ نحوى وقالت فى حب أحسسته: نخب الفنان.

قلت: نخب ملاكى الحارس.

هى أيضا أحست بالحب الذى باح به صوتي؛ لأنها مسحت بيدها الأخرى على خدي، ثم مررتها على يدى واعتصرتها بقوة حتى عاد العالم بخير.

دخلنا إلى السينما بعد منتصف الليل، وشاهدنا فيلما رومانسيا لحقنا آخره. لكن دقائق النهاية القليلة، ويدانا التى تشابكت وأسفرت عن قبلة صغيرة، كانت كفيلة بأن تثير مشاعرنا فى ذلك المساء الجميل. تسللنا إلى منزلها خلسه عن أعين الجيران. قالت ياسمين: الجميع يحب ممارسة دور الشرطى هنا، لو رأونا معا فجأة سيتحول كل واحد من الجيران إلى "الشريف الرضيّ" ويبلغ عنا شرطة الآداب. إلحقنى بعد دقائق، أكون قد رتبت المكان بالمرة.

فى سريرها قبلت رقبتها وشفتيها، ونزعت ملابسها عنها فى رفق، دفعتنى فاستلقيت على ظهري، وتولت هى الأمر من هناك. تسارعت دقات قلبها ولهثت باسمي. ثم نعست عيونها، واكتسى وجهها بتعابير لم أرها فى امرأة من قبل. ولم يعد فى العالم من شيء يهم سوى أن تعبر فتاتى الليلة عبر قمم التلال إلى القمة الشاهقة، وأن أسلك معها طريق السهول إلى نفس المكان. ثم خبرت الطريق وصرت أقودها إليه بطرق عديدة.

و فى آخر الليلة، فى تلك اللحظة الكونية الرائعة، حين احتضنا بعضنا فى القمة الشاهقة، وأخذت أنفاسنا تمور بالانشراح. صاحت بحدة: أحبك يا يعقوب.

قبلتها بعاطفة دافئة فتأوهت. قلت فى صوت ينضح بالمشاعر: لسانى يا حبيبتى للهمس فى أذنيك وتقبيل شفتيك.

قالت: هل ستهمس لى الآن؟ أريد أن أعرف ...

حدست مقصدها فتملكنى أرق الأيام الماضية دفعة واحدة. كانت تبحث عن ذلك الخيط الأخير فى أكذوبة حياتى المحكمة الذى لم أقصه عليها بعد. وأحسست به فى مثل ذلك المكان والزمان عائقا بينى وبين امرأتى الأولي. وربما لم أكن لأدنس أحزان آخى لولا ذلك الأرق الذى تراكم فى جسدى على مر الأيام السابقة، وتلك المكالمة الهاتفية فى الليلة الماضية التى حسبتها بمثابة إشارة كى لا أحيد عن الطريق الذى رسمه لي. لكننى فى مطلق الأحوال همست وأنا أنظر فى قاع عينيها بثقة مطلقة: كان أخى يكره النازحين، ويحب الحياة السهلة، كان منعزلا عن قضايا الناس، وأنانيا يحب نفسه.

ثم تركتها للصمت دهرا من الزمان. حتى تباطأ تنفسها واتزن وعادت دقات قلبها هادئة مستقرة، وهمست فى أذنها: لكن من تعرض للتعذيب يا حبيبتى كان أنا.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

مرت تلك الأوقات سريعا، شأن ذكريات الطفولة، وفصل الربيع، وأحاجى الجدات فى الليالى الصيفية، وانقضت كالأحلام الجميلة التى لا تروى بالنهار.

فى صومعة منزلها عرفت معنى الحب الذى يملأ القلب بالشجاعة، ويضفى على العالم صفة التماسك. الحب الذى ألغى المستحيل وأيقظ مارد الرسم فى روحى فهب واقفا. أخذت ريش الرسم والألوان تنتقل من منزلى إلى منزلها يوما بعد الآخر. وفى أحيان أخرى كنا نسرق الوقت ونهرب إلى الريف معا، فأغرس مسندى الثلاثى وأرسم حقول البرتقال وشفق الغروب، وضفة النيل

وشاطئ البحر المتوسط. ثم نعود إلى المنزل وأنقب عن أفكار أخرى فى خزانات ذاكرتى ومخيلتى المحضة لأبث فيها بريشتى الحياة. تفجر عالمي بالحياة فجأة. كان يحمل بعداً واحداً، ثم صار مع الأيام مادياً ومحسوس التفاصيل وذا أبعاد ثلاثة: فيه الماضى الذى امتلكته دون أن يمتلكني، والحاضر الذى انساب الحب فى أرجائه، والمستقبل الذى لم يقل توقى إليه شبرا واحدا. فاتسعت حدودى حتى تلاشت وانتفت، وخرجت إلى معارفى القدماء وأصبتهم بعدوى السعادة الوليدة.

و ذات ليلة، كنا نرقد متلاصقين وقد تشابكت أصابعنا، لمعت فى ذهن ياسمين حقيقة تحاشيت التفكير فيها مرارا. قالت لي: هل فكرت أن ليالينا معا على وشك أن تنقضي؟

لا أذكر ردى عليها، لأن مشهدا وحيدا من تلك الليلة طغى على ما سواه. مشهد لن أنساه ما حييت، كوجه أمى على رصيف المحطة.

أذكرها تجلس فى كامل زينتها عند زاوية بعينها وضوء الشمعدان الناعم يمحو التفاصيل عما سواها ويدقق النظر عليها، فكأننى أرى الحزن على وجهها عبر زجاج مجلي. لو تأملت وجهها كثيرا أيضا، فإن خيطا من الذكريات سيسحبنى بعيدا. قالت لى بعد صمت: هل سترسمنى إذن؟ ولوت شفتيها بابتسامة باهتة، تخبئ من خلفها أحاسيس كثيرة.

رسمتها بعناية طوال الليل، لأجل عينيها الواسعتين، وثغرها الذى همس فى أذنى كثيرا وجعل منى إنسانا جديدا. ولأجل اليوم الذى أمسكت يدى أسفل الشلال، واليوم الذى اطفأنا شمعة ميلادها

وتخاصرنا وسهرنا ورقصنا حتى الفجر بعد أن انفض الناس. ولأجل قبلتنا الأولى فى السينما. ولأجل أشياء كثيرة لا تحصي، وحتى تترسخ صورتها فى ذهنى دون تبديل أو تشويه، وأتذكر فى يوم كهذا بعد سنوات طويلة أنها كانت حقيقة لامستها كما تلامس الأنامل حقل الورود.

غسلتنى من رأسى حتى أخمص قدمى بالماء الدافئ فى الصباح الباكر. ألبستنى ثيابى وعقدت لى ربطة العنق بإحكام. ثم أوصلتنى قبل موعدى بوقت كاف إلى مقابلتى فى حى الزمالك. قبلت خدى قبل أن أبارح السيارة وتمنت لى من قلبها التوفيق.

وحين مضت، وقفت طويلاً أمام مبنى منظمة الهجرة، وعبرت عقلى أفكار سوداء. لقد كنت فى انتظار تلك المقابلة منذ أكثر من عامين، والآن أتمنى لو أننى ما بارحت منزل ياسمين فى الصباح. شيء ما يشدنى أن أقنع بالحاضر، لكن توقى إلى المستقبل كبير أيضا، أنا إنسان ضائع بين الماضى وبين طموح كبير. بلل العرق كل مسامى وانتابنى قلق شديد، ثم أصابتنى صحوة مفاجئه، فكرت بعدها بتعقل وخطوت إلى الداخل.

دلفت إلى القاعة وجلست فى مواجهة هيئة المحلفين. عامان وصورتهم فى ذهني. صورة أناس بملابس رسمية ونظرات ثاقبة متجهمة، ليست هذه السيدة العجوز التى اكتسى وجهها بالإثارة ماأن دخلت عليها، وكأن وجودها فى ذلك المكان والزمان هو ضرب من سياحة المخاطر، كالقفز بالمظلة، أو تسلق الجبال.

أخذت العجوز تراقبنى بعينيها الخضراوين فى عطف وتضامن مسبق، بينما جلست عن يمينها شابة بسيطة الملبس، وعن يسارها شاب أسود مربوع القامة.

رفعت يدى اليمنى وأديت القسم. سألونى أسئلة كثيرة أجبت عليها فى رصانة مصطنعة نفيت بها قلقي. وحين حان دورى فى الحديث، أخذت أحكى لهم قصة التعذيب التى أحفظها منذ زمن بعيد، والتى راجعتها طوال الشتاء فى أذن ياسمين، ورأيتها تتأثر وتحتضننى حتى أحس بالحب يتسرب من مسامي.

حمل المترجم إليهم صوتى بلغة يفهمونها، وأخذت أتوغل فى الوصف وأرفع جرعات الألم رويدا رويدا، وبدأت أتخيل أخى حاضرا معنا يربت على كتفى ويقول: أحسنت ! امنحهم المزيد.

دمعت عينا الشابة فجأة واكفهر وجه الشاب، ثم وصلت بهم إلى قمة الألم وجعلت السرد فى أذهانهم أشبه بلوحة الإعدام لفرانسيسكو دى غويا. كدت أن أبتسم وأنا أرى السيدة العجوز فى مقابلتي، تبحث فى صدرها عن الصليب المعلق هناك. لأن قصتى لم تعد بالنسبة لها مجرد سياحة للمخاطر، لكنها القصة التى من ظلمتها عادت روح رئيسة المنظمة العجوز شابة. وأغلب الظن أن وجهها سيشرق بالأمل أيضا لو أنها رأت لوحاتى وربما وجدت فى خواء الألوان معنى للسنوات المتبقية من حياتها. لكن يا لحظها التعس الذى جلبها إلى هذا المكان، حتى أضع فى ذهنها صورا بائسة لا لون ولا امتداد لها.

كان صوت المترجم المحايد هو صوتي، وصوتى الناضح بالألم صوت ياسر، وجميع من فى القاعة يريدنى أن أواصل سرد الأكذوبة وإن كانت ثقيلة على القلوب. حتى أنا، شربت كوب الماء أمامي، ثم بكيت بعاطفة محسوبة. قلت: أنا بحاجة إلى وطن جديد ونبع صوت من أصدق أعماق نفسى يقول: افتحوا الباب وأدخلونى إلى أرض أنثر فيها ألوانى الكثيرة، أنا فنان!

شربت كالمجنون فى تلك الليلة، سكرت حتى نسيت من أكون، وعدت إلى المنزل أقلب فى الصور العائلية. نزلت إلى الشارع ونظرت إلى وجوه الناس فى الطريق. تبدى طريقى طريقا غير الذى يمشون فيه، وقد انفتح فجأة وتكشفت فيه معالم جديدة، تؤدى إلى مدن لا أعرف عنها شيئاً. مدن ما قابلت فى حياتى من أهلها غير هيئة المحلفين، ولم تزرنى غير مرة واحدة كوهج أحمر غريب أضاء فى السماء ثم اختفي. فكرت وأنا أترنح من السكر على الجميع دون استثناء.

حضرت ياسمين إلى منزلى وساعدتنى على توضيب الحقائب. لم تقدر أن تتمالك نفسها حين أخبرتها أن موعد سفرى قد تحدد، حتى أنها بكت من الفرح وهى تقول: غدا نلتقى فى واقع أجمل .. لن أنظر إلى المرآة كثيرا، لكننى سأنظر إلى انعكاسى فى لوحتك لأحس بالتفاؤل، وسأكتب عنك ذات يوم؛ لأنك قد علمتنى معنى الفرح.

قلت: كان الفرح ينبع من ابتسامتك فى كل ليلة فيملؤنى بالدفء والأمان، فقط واظبى على الابتسام فأنت جميلة.

كان هذا وداعنا. اختفت ياسمين عن عالمى تماما. لم أبحث عنها، لكن فى ذاكرتى بُنى لها نصب كأجمل التقاطعات فى الطريق الذى وضعنى فيه ياسر.

حدثنى الأخير فى ليلة السفر، وتصورت المعجم مفتوحاً أمامه وهو يشرح لى عن معنى الخلاص. زغردت أمي، وذبح أبى قربانا للسماء. تذكرت جبريل، وثقته المطلقة بأن هذا اليوم سيأتي. نقبت وسط الأشياء عن الهدية التى أهدانى إياها يوم سافر، وقال: اسمعه حين يحين دورك.

و قبل منتصف الليل قليلا، انفتح طريقى إلى مدينة تدعى "فيلادلفيا". حملت أمتعتى ولوحاتي، وقلبى يمتلئ بالأمل ولا يحمل لمحة خوف ضئيلة. لم يحضر لوداعى أحد، ولا فكرت فى أحد طوال الطريق سوى ياسمين. أحسستها تبتسم لأجلى فى تلك اللحظات الأخيرة، بينما سيارة الأجرة تشق الطريق نحو المطار، وينساب صوت بوب مارلى من سماعات مذياعها القديم بأغنية اسمها "أغنية الخلاص":

سرقنى القراصنة القدماء
ثم باعونى لسفن التجار
بعد دقائق من انتشالهم لي
من قاع الهوة السحيقة
لكن يدى قد صنعت قوية
بيد الخالق القوي
إننا نتقدم فى هذا الجيل
تملؤنا نشوة الانتصار.
ألن تساعدنى
على الشدو بأغانى الحرية تلك؟
فكل ما لدى على الإطلاق
هى أغانى الخلاص
هى أغانى الخلاص ...

- ٥ -

تقلبت يمنة ويسرى فى انتظار أن يخفت ذلك الصوت المزعج، لكنه ظل يرن ويكبر ويحتد على مسامعي. آخيرا، فتحت عينى، ثم أخذت أستوعب ببطء بضعة أصوات أخري: المطر ينهمر فى عنف بلا شك، وهزيم الرعد يقصف عدة مرات. ستائر النافذة الكبيرة مشرعة، والضوء شحيح ينفذ عبر سماء رصاصية، يلتمع البرق فيها بين الحين والآخر. هذا المناخ لايليق بأول أيام السنة الجديدة.

كان التعب والدوار لازالا يتملكانى من عناء سهر ليلة البارحة. رفعت الغطاء عن نفسي، وقمت ببطء عن الكنبة الحمراء حيث نمت ليلة البارحة. سعيت إلى هاتفى المحمول فوق طاولة المهوقنى التى تغير موقعها وأصبحت قريبة من النافذة. كان لا يزال يرن، قربته إلى عينى فقرأت فى شاشته "كاثرين تتصل".

فكرت فى مزاج عبثى كعبث الطقس أن تدفق الأدرينالين فى عروقها قد أثارها آخر مرة، هاهى أول من يتصل بى فى السنة الجديدة. ضغطت زر الهاتف وأجبت عليها: نعم.

قالت فى أدب جم: أرجو ألا أكون قد اتصلت بك فى وقت غير مناسب.

- كلا، ماذا هناك؟
- سنة جديدة سعيدة.
- شكرا، ولك أيضا.
- هل أنت قريب من نورث بروود؟
- أنا فى منزلكم الآن.
- حسناً، ما رأيك لو نتقابل قرب المنزل؟

قلت لها وقد أتعبتنى الحركة وانقطاع سباتي: لا أظن أننى قادر على مقابلتك حتى بضع ساعات من الآن، البارحة احتفلنا ولم أنم جيدا. يمكننى أن أرتب مع يعقوب أمر أخذك لحاجياتك لاحقا.

قالت مستدركة: لم أقصد الآن، لكننى سأكون فى شارع براوود طوال اليوم لحضور استعراض المهرجين السنوي، لذا يمكنك الاتصال بى متى ماستعدت طاقتك.

نظرت إلى الشارع فضحكت. لم يكن فى مقدور الاستعراض أن يتم فى أجواء كتلك. كان الشارع خاليا إلا من سيارات موصدة النوافذ، وبعض المارة يمشون على عجل قريبا من حوائط المباني، ويحتمون من وابل الأمطار بأوراق الصحف والمظلات.

قلت لها: على غير العادة السنوية، لن يكون هناك احتفال، ألا ترين كيف هو الطقس؟

قالت: يحزننى سماع ذلك، كنت على استعداد لأن أحضر حتى فى مثل هذا المطر..

تنهدت وأضافت: لا بأس. متى تستيقظ اتصل بي، ربما نتقابل لو كان وقتك يسمح. أنت تبدو كشخص ودود، وأعتذر لك عن سوء الفهم الذى حدث فى آخر مرة. إن هذا لا يتعلق بأمر آخذى لحاجياتى كثيرا، أنا فقط فى حاجة للحديث إليك، ولو استطعت أن تقابلنى اليوم، فان ذلك سيعنى لى الكثير.

تمطيت أمام النافذة وأنا أنظر إلى الشارع مجددا. من كان يضع كل ذلك فى الحسبان؟ من توقع مثل هذا الطقس فى يوم كهذا؟

عدت إلى الكنبة الحمراء، لكننى لم أعد للنوم وأخذت أفكر فى تلك المكالمة الغريبة. خطوت نحو غرفة يعقوب بعد محاولات يائسة للنوم، أردت أن أوقظه وأخبره عمن كنت أتحدث اليها للتو، لكننى لم أشأ أن أقلق سباته حين رأيت أثر الراحة العميق على وجهه. تسللت إلى الغرفة الأخرى فى هدوء حتى لا أزعج بيرسى وبريندا وتناولت منشفة. وبعد طقوس الحمام الصباحية، ارتديت ملابسى واتصلت بكاثرين. وبما أنها كانت تتسوق فى المحلات الفاخرة التى تتناثر على جانبى سانسوم ستريت الضيق، فقد استقر رأينا أن نلتقى فى ميدان ريتنهاوس.

كانت معظم الأشجار فى ميدان ريتنهاوس يابسة وعارية، وقد طرحت أوراقها فى الخريف فأضحت شبيهة بخيوط الشموع المنطفئة، بينما كانت الأخرى مؤرقة وسعيدة بالمطر. عبرت بين صفين من

الأزهار المتوردة، أشق بحذائى العالى قطرات المطر وهى تنهمر وتتجمع على شكل برك صغيرة لا تلبث أن تختفي. رأيتها عن بعد وهى تجلس أمام تمثال "ليون كرشنج" القديم عند وسط الميدان الشاسع تماما، والأسد يميل نحوها كأنه على وشك الانقضاض. حدست إلى أنها تستمتع بقطرات المطر، وقد وضعت مظلتها البرتقالية فوق أكياس التسوق بجوارها على الكنبة الفارغة.

كان الميدان الذى يكتظ فى العادة بالمتنزهين خاليا عمن سواها. جلست بجوارها وهممت بالحديث، لكنها أشارت نحوى بلطف تطالبنى أن أصمت. بدا أنها تستحث حالة من التأمل، فتحليت بالصبر قليلا.

ما لبثت بعد دقائق أن التفتت نحوى فى بطء، وقالت كممثل يؤدى دورا فى مسرحية كلاسيكية، بنبرة إنجليزية واضحة كنبرة الفرسان القدماء: أحب هذا المكان حتى حين يكون ممطرا، كانت هذه بقعتى وبقعة يعقوب. هل رأيت "ريتنهاوس نايت"؟

ربما أرادتنى أن أجاريها فى تأملاتها، وأن أظهر بعض الحب نحو الميدان الممطر، لكننى قلت وقد ضايقنى البرد والمطر حقيقة: ماذا قلت؟

— لم ترها إذن. إنظر هناك وتخيل المكان فى الليل من منظور يعقوب.

أشارت بسبابتها نحو ممر تحفُّه أشجار هرمة، وتتراص فيه أعمدة الإنارة الأنيقة على مسافات متساوية. أضافت: كنت أفكر فيه قبل قليل، تذكرته فى تلك الليلة الصيفية من أيام شهر يونيو، وقد أسند لوحة الكتان البيضاء إلى الحامل الخشبي، ونثر من حوله ريش الألوان، وعلب الزيت والتربنتين، وكيف أن الناس قد تجمعوا فى

فضول حوله وهو يمزج أمشجة الألوان البراقة. هل تعلم أنه مثل رامبرانت يحب اللون الأصفر؟ لو رأيت تلك الأعمدة وهى تنير اللوحة بأكملها فى تلك الليلة الدافئة فستفهم قصدي.

قلت لها: ما الذى يدفعك لهذا الحديث؟

- فى المصعد سألتنى عمًا حدث، لكننى لا أدرى من أين أبدأ... هناك أشياء كثيرة حقا، إن يعقوب مثل الرمال المتحركة، لو بدأت أحكى عنه سأغرق فى الذكريات.

تخيلت من صوتها المترقرق أنها تبكى دون أن أرى دموعها فوق وجهها المبتل أصلا برذاذ المطر. قلت لها فى لطف لم أدر مبعثه: ما رأيك لو نتمشى قليلا؟

حملت كاثرين أكياسها ومشت بقربى، بينما نثرت المظلة بحيث أغطيها من رذاذ المطر الذى أخذ يخف أكثر. كانت البنايات الأنيقة تحيط بالميدان كحائط من التاريخ يمتد لقرن كامل. جلسنا فى مقهى يتبوأ الطابق الأرضى لإحداها، وطلبنا إفطارا صغيرا وقهوة.

قالت لى وهى تنهل من فنجانها وتشعل سيجارا رهيفا تفضله النساء: أعلم أنك ترانى كامرأة كريهة.. أنا فعلا أستحق هذا الوصف، لقد كان من الأحرى بى ألا أتبع حماقاتى ونزواتي.

تركتنى للصمت وأخذت تنفث دخان سجائرها فى عمق ثم عادت لتقول: لم أشأ رؤيته آخر مرة لأننى أحس بنفسى ضعيفة فى حضرته، كان قادرا على أن يطفئ تمردى كله بابتسامة أو كلمة صغيرة.

لم أقاطعها فأكملت: يوم اتصلوا بى وأخبرونى عن الحادث بكيت طوال الليل، لكننى لم أكن قادرة على رؤيته بعد أن دمرت حياته. لو رأيته عاجزا لن أقدر على التعايش مع تلك الحقيقة طوال حياتي.

قلت لها: لديك منطق غريب للغاية، كان من باب أولى أن تكونى بجانبه فى هذه المحنة، بدلا من تحاشيه ومحاولة استبداله برجل آخر.

- أعلم ذلك، لكننا حين نتمادى فى خطأ ما، يصبح طريق الرجوع صعبا.
- هل لديك رغبة فى مشاركتى ما حدث؟

كانت السيجارة النحيلة لم تزل على المنفضة مشتعلة، لكنها أشعلت واحدة أخرى دون انتباه، وقالت بعد عدة أنفاس:

كنت على استعداد لأن أستمر فى خداع نفسى حتى ليلة البارحة، لكن شيئا قد حدث وجعلنى أقضى ليله السنة الجديدة هائمة أبكى فى الشوارع. لم أبك لأن شريف، الرجل الذى رأيتنى برفقته فى المرة السابقة، قد تركنى ومضى يبحث عن صيد جديد بقدر ما كنت أبكى على زوجى الذى خسرته.

يعقوب لم يحب ذلك الرجل منذ البداية، أما أنا فقد كنت ساذجة وسهلة الخداع. يوم عرفتهم على بعضهم البعض أول مرة، أحسست بأنهما يعرفان بعضهما أصلا. لا أدرى حقا، لأن يعقوب لم يتحدث عن ماضيه يوما. كنت أنا من يبادر بالحكى وإثارة النقاش، وكان يتهرب دوما من الحديث عن نفسه. لذا لم يقل غموضه حتى بعد زواجنا عن اليوم الذى قابلته فيه أول مرة، فى الطابق الثانى من محل (بيرل آرت آند كرافت) بساوث ستربيت.

كان يزور ذلك المتجر بانتظام ليشترى أدوات الرسم، وكنت أذهب بين الحين والآخر لشراء أدوات أحتاجها فى عملي، فأنا أعمل فى مجال الدعاية والإعلان.

هززت رأسى لتواصل سردها. قالت: دعانى فى أول موعد لنا إلى معرض للصور الفوتوغرافية، ويومها عرفت أننى سأحبه! رأيت فيه إنسانا غريبا ونادر الوجود فى هذا الزمان. رجل ترى فى عينيه صرامة الجنود وقسوتهم، وفى اتساعهما بريقاً غريباً كبريق أعين الشعراء. كانت صور المعرض حزينة وبائسة، فيها أطفال عراة وجائعون من مجاعات ضربت بقاعا مختلفة من العالم. لكن عينيه العميقتين ترى ما لا تراه أعين الآخرين، لم يبصر فى تلك الصور سوى الأمل!

فتح عالما متكاملا لكلينا يختبئ فى أشياء لا تلحظها العين فى ظلال كل صورة. يومها عرفت أننى أقف أمام شخص مختلف، أمام فنان. لقد أحببت تلك الفكرة عن يعقوب؛ لأننى فى حياتى لم أكن قد رأيت شخصاً مثله. ثم وقعت فى غرامه تماما لما رأيت لوحاته فى المنزل أول مرة. كنت قد وجدت فى ألوانها ما بحثت عنه طوال حياتى دون جدوى.

غيرت موضع عيناى عن وجهها ونظرت فى البعيد حتى تحس بالراحة أكثر. فمضت تقول:

لم يحكِ لى يوما عن طفولته أو عن مطلع شبابه، كان كتوما فى هذه الناحية. جل ما عرفته، عرفته من أوراقه الرسميه، أو سمعته من روايات أناس آخرين.

عرفته وقد تخرج لتوه من جامعة (دريكسيل). وذات يوم خرجنا من مركز كيميل للفنون، بعد ليلة رائعة امتلأت فيها مقاعد الصالة بآلاف الناس، أخذوا يتمايلون فى هدوء كالأطياف. عزفت الأوركسترا فى تلك الليلة ألحانا تنزع القلوب من ضلوعها. وبعد العرض كنا نمشى فى شارع بروود، وسألنى يعقوب: هل تتزوجيننى ونسكن هنا؟ إننى أحس بأن هذا الشارع مألوف، هذا القمر مألوف، أنتِ مألوفة أيضا. كل

أحداث حياتى السابقة كانت إرهاصاً يقود إلى هذا الشارع، كأنه شيء حتمى أن ينتهى دربى هنا، إننى أعشق الشرفات والأنوار والمباني، إننى أعشقك يا كاثرين!

فى حفل زفافنا، تقدم نحوى رجل عجوز فى ملامحه هيبة. يرتدى بذلة رسمية وقبعة، ويحمل غليونا بين شفتيه. عرفنى يعقوب عليه بأنه بروفيسور توم إليوت، أستاذه فى الجامعة. هنأنى بأننى سأتزوج على حد قوله رجلا عبقريا، وقال: كان زوجك أكثر طلابى نبوغا، لدرجة أنه ظل يدفع مصاريف الجامعة من أرباح لوحاته وهو لا يزال طالبا فى السنة الثانية. لقد عاش حياة فنان وهو غريب عن المدينة.

كانت تتحدث بشغف عن ذكرياتها فحثثتها بهزة رأسى أن تكمل. أكملت قائلة: كان من السهل على أن أتتبع حياته بعد وصوله إلى هنا، لكن ما سبق ذلك ظل مجهولا بالنسبة لي. كل ما عرفته أنه حضر إلى أمريكا كلاجئ سياسي. لكنه لم يحكِ لى تفاصيل ذلك أبدا، كان كخزانة مصمتة على أسرار كبيرة، وجعلنى ذلك أتعلق به أكثر.

لم أرَ إنسانا متكاملا ومكتفيا بذاته أكثر منه. كان وجود الناس من حوله أو عدمه سواء لديه. وعلى الرغم من ذلك، فإنه قال لى وهو يلبسنى خاتم الزفاف، ما أردت أن أعبر به يوم وقفت أمام لوحاته أول مرة. قال لي: لقد اكتملت حياتى اليوم، وكل معطيات حياتى السابقة كان لابد أن تنتهى إلى شيء رائع مثلك، شيء بحثت عنه طوال حياتى وتزوجته الليلة.

تلك الجملة، وإن كان يقصد بها نفسه، فقد لخصت بشكل ما مجمل حياتى أيضا. فى طفولتى لم يحدث أى شيء غريب. لم انشأ فى عائلة مفككة، ولا تعرضت لتجارب رهيبة. عشت كأية أميرة فى منزل أبيها تنال كل الاهتمام من الكون المحيط بها. هذا كل شيء.

صمتت كاثرين قليلا لتملأ رئتيها بنسمات ما بعد المطر، ورفعت يديها كمن يلوح للسحاب وهى تقول: منزل أسرتى ليس بعيداً عن هنا، إنه فى شارع ديلانسى هناك. وهذا الميدان الذى أعشقه، كان فى صغرى بمثابة شرنقة تفصلنا عن الأسواق الصاخبة فى شارعى تشتنت ووالنت، وتجعلنا بمنأى عن خطر المدينة. نشأت بين أفراد أسرة محبة فى منزل قديم من الطراز الفيكتورى الارستقراطي، يقع على جانب شارع وارف الظلال. منزل حافظ على كيانه فى وجه زحف الشقق التى أخذت منذ مئة عام تزيل بيوت جيراننا وتحل محلها. رأيت جدتى فيه، وكنت أنام على صوت البيانو المنبعث عبر أنامل أمى من غرفة المعيشة، أو على كتف أبى حين يحملنى إلى سريرى ليتأكد من وضع الدثار الصوفى فوقي. رسم القدر كل مافى حياتى بعناية شديدة، وحققت ذاتى كما ينبغى لمن وجد ظروفا مثلى طوال المشوار من المدرسة إلى الجامعة إلى العمل. إلا أننى ... لم أحس أبدًا بأننى سعيدة!

لكنه كان يقصد نفسه وهو يضع الخاتم فى يدي. لطالما أحسست أن جسده معى هنا وعقله هناك. فى المنزل يحادث نفسه أكثر مما يحادثني، وسمعته أكثر من ذى مرة يردد اسم فتاة بعينها. سمعته يردد "جاسمين" حين يسرح فى الرسم. تضايقت فى واقع الأمر من ذلك كثيرا ولا أزال أحس بالغيرة من فتاة لم أقابلها فى حياتي. إلا أننى لن أجحفه حقه الآن وسأعترف لك: يعقوب لم يخنى أبدا. كان زوجا فاضلا، وإن ظل يجتهد للتقرب منى بطريقة خاطئة.

حاول جاهدا أن ينغمس معى فى عالمى الذى وجدنى عليه. فتراه يخرج معى إلى الأسواق، ينتقى أغلى ماركات الملابس والعطور،

يرافقنى فى الكرنفالات والاحتفالات، يشترى أثاثا فاخرا للمنزل، حتى أنه ركض معى فى ماراثون الصليب الأزرق فى صيف السنة الماضية. إلا أننى كنت فى غنى عن ذلك كله. أحسست بأننى أعيد شريط حياتى معه، وأخذت سعادتى تذبل من جديد.

فى البدء، عندما قابلت شريف كنت فى حاجة إلى صديق لا أكثر. لكنه أخذ يسحبنى ببطء إلى ملحمة حياته وينال اهتمامي، وبدأت أحتضنه بين الحين والآخر حين تجرفه رواياته بعيدا. أخذ يرتل الأشعار فى أذني باللغة العربية فأطرب لرنين الكلمات، ويتقرب منى بالأزهار والأوراق. يعقوب لم يكن ساذجا طوال هذا الوقت، كان يكرهه منذ التقيا أول مرة. الآن أنا أيضا أمقته، ولكن بعد فوات الأوان.

مضت كاثرين تبكي، وتمسح دموعها بمنديل حريري، وأخذ ينتابنى نحوها ذلك العطف الذى نحسه نحو امرأة حزينة تبكي.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وجدت نفسى أنحاز قليلا إلى صف كاثرين، وقد بدا ذلك جليا حين سردت على يعقوب بنوع من التواطؤ كيف أننى قد طيبت خاطرها، وربت على ظهرها، وفسرت أنها على الرغم من كل شيء قد وقعت ضحية لكلام معسول. طفا تضامنى معها على ملامحى وبان فى نبرتي، لكنه لم يكن بمثل تأثري، واكتفى بأن قال: مسكينة! لو أنها ارتضت بما قدمته له حياتها ولم تسع خلف الأحزان لما أصابها كل ذلك. أنا متأكد أنها الآن سعيدة بحزنها!

بان على وجهى عدم الفهم، فقال: هذا هو ما أرادته من ورائى على أى حال: الحزن. أرادتنى أن أبكى فى حضنها طوال الليل حتى تطيب خاطري. لم تعرف أنها مع الإنسان الخطأ وظلت تسألنى كثيرا وتتصور أن فى حياتى الخاوية ملاحما من المعاناة، أو أننى سأنبئها بأحاسيس مرهفة لا يحسها سوى الفنانين من أمثالي. لكن ذلك لم يكن بمقدورى وأنت أعلم الناس بذلك. كنت قويا طوال حياتي، وحين استنزفت قصة ياسر وفتحت بها كل الأبواب المغلقة، لم أعد فى حاجة إليها فطرحتها ومضيت أبحث عن شيء جديد.

لكنها ظلت تطاردنى وتقول: أنا زوجتك، وأريد أن أكمل نصفك الآخر. إننى أراك ساهما وحزينا. إننى سمعت نتفاً من حياتك وأعلم أنها لم تكن سعيدة بأى حال. أرجوك حدثني، دعنى أحمل بعض العبء عنك، أرجوك.

وجدت نفسى أبتعد عنها شيئا فشيئاً وأنزوى إلى نفسي. بطريقتها تلك دفعتنى مجددا للتفكير فى الماضى وفيمن تركتهم خلفى هناك. وأخذ النصب الذى بنيته لياسمين وانطمس مع توغلى فى تفاصيل حياتى الجديدة ينبنى فى مخيلتى من جديد. لكن أرجو ألاّ يتبادر إلى ذهنك أننى نسيت زوجتى وعشت فى خيالى مع امرأة أخري، فأنا أحب كاثرين من كل قلبي... إنها مثلى وأنا أعرفها جيدا، أكثر ما أحببت فيها أن لديها نفس ذلك العنفوان، وتسمع نفس تلك الأصوات التى تنادى بداخل الإنسان، وتجعله يسعى نحو أى تغيير ولو كان للأسوأ.

لاحظت فجأة أن وجه يعقوب تلبس تلك الهيئة حين يستحضر شيئا ما. وأن يداً إلهية قد رتبت المكان فوضعتنى فى مقابلته. وفتحت ستائر الصالة تماما كما يكون الحال حين تحمله يد الذكريات بعيدا. تركته كشىء عائم دون دفة بعد جملته الأخيرة وراقبت وجهه يصفو

وعيناه تتركزان فى أعماق عينى فتنحيت له جانبا لينسحب بعيدا...
قال بعد تفكير:

كنت قد طرحت قصة ياسر عن كاهلى قبل لقائى بكاثرين منذ زمن بعيد، بالتحديد فى اللحظة التى لامست فيها عجلات الطائرة آرض مطار جون كيندى بنيويورك. أنا أيضا اتبعت ذلك الصوت الذى لم يصمت فى دواخلي، وقررت آن أسعى نحو إثبات نفسى كرسام لا غير.

وقفت فى صف الجوازات الطويل، أمامى رجل آسيوى الملامح، وخلفى امرأة أوروبية، وعلى امتداد الصفوف الأخرى رأيت كل جنس من البشر. وفى قاعة الوصول، رأيت الناس يمشون على عجل كأن أمرا مهما قد حدث. يحتضنون بعضهم على عجل أيضا. ويطفو صوت جماعى رخيم على سقف القاعة الكبيرة ثم يتبدد فى أرجاء المكان، ويداخله بين الحين والآخر صوت يعلن عن طائرة قادمة أو مغادرة عبر مكبرات الصوت. ترى أطقم الطائرات والمسافرين يدفعون أمتعتهم ويركضون على نحو فوضوى يتبدد فى براح القاعة الكبيرة. بعضهم يصعد أو ينزل على السلالم المتحركة، وتمر بين الحين والآخر سيارات التنظيف الصغيرة فيفسح الناس لها، وعمال جمع الحاملات المتحركة يدفعونها على شكل صفوف طويلة، بينما ينكب عمال التنظيف على الأرضيه الرخامية فى عدد من الأماكن التى يحيطونها بشرائط من البلاستيك ويجعلونها فى دقائق معدودة تبرق.

وقفت عند بوابة المطار العالية العريضة ونظرت إلى الشارع فألفيته لا يقل صخبا عما فى الداخل. سيارات الأجرة الصفراء ترتص فى صف وراء بعضها لتمتلئ بالحقائب والناس ثم تغادر على عجل. ذلك النوع

من الصخب الذى يجعلك تنأى إلى نفسك. تنهدت مخاوفى بعمق ولم أقوَ فى البدء على مبارحة البوابة . ثم حدث شىء لا أدرى كيف أصفه، سوى بأن المناخ قد تآمر معى ليشد من أزرى قليلا. كان الجو دافئا كما هو الحال أثناء تساقط حبات الجليد، وحين نامت الثلوج على الأرصفة، ذهب الدفء الكاذب وفرض البرد سطوته مجددا!! ألهمنى ذلك كثيرا.

فكرت أن حياتى كذبة محكمة هى الأخري، لذا فهى أيضا لا تعدو كونها حقيقة من حقائق الحياة نفسها. وإن كان هروبى مبعثه الخوف، فهو عمل إنسانى فى عالم تملؤه أنصاف الحقائق حتى فى أبجديات الطبيعة، ولا يعدو أن يكون كدفء الثلوج وسيول الصحراء. هو بحث مشروع عن السعادة وهروب من الألم. وجدت نفسى وقد استقويت بهذا الخاطر أبارح بوابة المطار المشرعة وأخطو للخارج.

حضرت موظفة لاستقبالى خصيصا. أخذت تحنو على بشكل مبتذل وتشدد على مخارج اللغة لأفهم. سيدة تسمى الأشياء على هواها. قالت: أنا سعيدة باستقبال "أحد الناجين" مجددا. وحين تحدثت فى وقت لاحق عن أطفال إفريقيا أسمتهم "الأطفال الأقل حظاً".

أحسست بملمس جلدها فى يدى كملمس الورق حين صافحتني. ورأيت فى يدها عروقا نافرة كسيقان الورود الخضراء.

نصحتنى وأنا أجلس بجوارها أن أربط حزام الأمان، وألا أخرج فى المساء وحيدا، ولا أنظر لمجرم فى وجهه. قالت أن الفصول فى فيلادلفيا كاملة. الصيف يشوى الأدمغة، والشتاء يقطع الأطراف، وبعض الأشجار تطرح أوراقها فى الخريف، لكن الأزهار بهيجة فى الربيع.

ثرثرت دون توقف وأضاعت على أن أطيل النظر فى عدة مشاهد رأيتها أثناء الطريق الطويل. ثم أنزلتنى فى شقة ضيقة عند ضواحى فيلادلفيا، وقالت قبل أن تناولنى المفاتيح: هل أعجبتك أمريكا؟ أجل بالطبع دون شك. استمتع بليلتك الأولى فى الولايات المتحدة يا مستر يعقوب.

بيد أنى يا سيدتي، لم أحضر طوال هذا الطريق للاستمتاع. حضرت وفى سيرتى تجارب لا تنضب، وفى قصتى قصص أناس آخرين ومشاهدات وأحاديث كثيرة، وفى عقلى معرفة لا أدرى من أين أستقيتها. حضرت غريبا وفقيرا وفى ذهنى لوحات كثيرة تتدافع بحثا عن مخرج. أعانتنى الأمم المتحدة ماليا لفترة من الزمان، درست خلالها لامتحان القابلية الدراسية فى المنزل، ونجحت فيه، عندها انفتحت فى وجهى أبواب لم أحلم ببلوغها ذات يوم وأفرغت جيوبى دون مرارة فى كلية الفنون الجميلة بجامعة دريكسيل.

كل شىء فى حياتى آخذ يمضى بنعومة كأننى خططت له مسبقا. لم أعلم ما سيأتى غدا لكننى وثقت من وصولى فى النهاية، كالسفينة حين تسافر ولا يرى قبطانها الرياح بعينيه، لكنه يعرف بحنكته، أنها هى التى ستدفعه إلى الميناء المنشود. ورغم أن زملائى فى كلية الفنون الجميلة قد قبلونى إلى مجتمعهم البوهيمى وأحبونى وذاع صيتى بينهم، فإن أى منهم لم يكن ليلحظنى فى واقع الأمر لولا بروفيسور توم إليوت الذى وضعه القدر فى طريقي.

أذكره فى أولى حصصه ببداية كل سنة جديدة، وهو يقول لطلابه المتكدسين حول موديل ما: سأعلمكم الرسم! نعم سأعلمكم

إياه؛ لأن الرسم ليس موهبة بأى حال! إنه مجموعة من القواعد والأسس وبعض الصور. الموهبة تكمن فى معرفة كل تلك الأشياء بالفطرة كما عرفها زميلكم يعقوب.

تكونت تلك الفكرة الحسنة لديه حين عرضت "شباك المستحيل" فى استحياء عليه، وكانت معرفتى به غضة حينها. نفخ الدخان من غليونه وسألنى عن المعاهد التى ارتدتها قبل التحاقى بالجامعه، والكتب التى قرأتها، وعن الفنانين الذين أحبذ أسلوبهم. ولما أجبته دون

محاولة لإخفاء جهلي: رسمت ما أراه وهذا كل شيء.. قال فى دهشة كادت أن تقلل من رصانته: بل إنك عرفت كيف تهيئ المكان جيدا فى ذلك اليوم! إنه من الأفضل دوما لو جعلنا الضوء يتسرب إلينا من مصدر واحد لنزيد من جمال الموضوع ونظهر تفاصيله، لابد أنك قد فعلت ذلك عن عمد وإلا كيف تفسر انتقائك لأجمل زوايا سقوط الضوء؟

استمتعت بالإنصات إليه فى شتى الأوقات. كان مبدعا، يدع عقول طلابه على حالها لتبحر فى اتجاهات مختلفه وتسلك مسالكا جديده. يقول لهم: الانسجام يا أعزائى هو ترتيب القطع بشكل يرضينا، سواء أكان ذلك فى الموسيقى أو الشعر أو الألوان أو حتى فى سلطة الفواكه.. يمكنكم أن تجدوه فى الطبيعة لو خرجتم فى نزهات خلوية، أو فى لبسة عشيقتكم ، يمكنكم أن تجدوا ذلك الانسجام الرائع فى حياتكم لو أنكم قررتم ذلك.

كان ينظر نحوى فى لطف فأحسه يقصدنى بجملته الأخيرة. وبنفس طريقتة الساحرة تلك، كان يحثنا أن ننظر فى عمق الأشياء

لا فى سطحها. أكثر من ذى مرة سحب نفسا عميقا من غليونه ثم بدد دخانه على دفعات متأنية، وردد قول الرسام رافائيل: لا ترسم الأشياء كما هي، بل كما تراها عيناك! .. وأيام كان يجمعنا فى قاعة المرسم الكبيرة، ليعلمنا رسم البشر فى هيئاتهم ووضعياتهم وخلجاتهم المختلفه، كان يمر على بين الحين والآخر، ويثنى على الطريقة التى أنظر بها فى عمق النموذج البشري. يقول لي: أحسنت يا يعقوب .. انظر كما ترى حبيباً عزيزاً عليك لآخر مرة!

نشأت بيننا علاقة قوية منذ السنة الثانية، وصرت أزوره وأقضى معه الساعة والساعتين. الحق أنه آثرنى خارج الجامعة أيضا، وأخذنى معه إلى المعارض التى لم يتح موقعى حضورها، وعرفنى على أناس من صفوة المجتمع، كان يقول لهم: هذا طالبى الذى لا يرى الأشياء بعينيه كما هي، بل كما ينبغى لها أن تكون! ويناديني بفان جوخ الأسمر ويشبه أسلوبى فى استخدام الألوان به فتلتفت الأنظار نحوى فى مثل تلك المحافل ويمد الرجال سواعدهم لمصافحتي، وتبتسم النساء فى وجهى ...

قال لى ونحن نقف فى متحف نيويورك للفن المعاصر، أمام لوحة "ليلة مزدانة بالنجوم": فان جوخ يبدو حالما، لكنه ليس كذلك، لقد سمح للحزن أن يتسلل خلسة إلى لوحاته. أما أنت فحتى بعد مئة عام لن تضايق أحدا بأحزانك! هذا هو المغزى من الفن أصلا، أن تفتح نافذة تطل على الجانب السامى فقط من النفس البشريه..

قلت له: لو أننى أردت أن أكون فان جوخ سأكونه، لكننى لست كذلك. لست الفنان الذى يكتفى ببيع لوحة واحدة طوال حياته

ويقاسى الفقر والألم النفسي. إننى أحبذ حياة كحياة بيكاسو المترفة، وهذه أرض الفرص !

أول ما فعله حين عدنا إلى فيلادلفيا أن علمنى كيف أجنى قوتى من الرسم، دون أن أستنفد مالى فى شراء أدواته الباهظة. كان أن دعانى إلى مرسمه الخاص فى سقيفة منزله وناولنى قطعة من الخيش وإطارا خشبيا صنعه بنفسه. جعلنى اثبت قطعة الخيش على الإطار، ثم ناولنى جرة من الغراء المنقوع فى الماء ليوم كامل وأمرنى أن أسخنها فى النار، وحين برد المزيج أحضر فرشاة كبيرة، قال وهو يدهن سطح الخيش بالمزيج: حرك يديك بنعومة هكذا .

أضاف بعض الأسبيداج والزنك إلى ما تبقى من المزيج، وراقب حركة يدى وأنا أدهن ما بداخل الإطار من بعده مرة ومرتين حتى انغلقت المسامات تماما. ثم أزلنا الزوائد عن سطح الخيش بورق الصنفرة بعد أن جفت. قال وهو يمرر إصبعه على صنع أيدينا: الآن لديك لوح للرسم يفوق فى جودته اللوحات الجاهزة باهظة الثمن، لتجنى قوتك من الرسم لابد أن تتعلم مثل هذه الأمور، يمكننى أن أدلك من أين تبدأ .

صرت أتحين المناسبات وأشد رحالى إليها، وأعرض لوحاتى على جدران المقاهي، وفى كرنفالات الرسامين، وأبيعها فى المزادات والمعارض الصغيرة. قد تجد بعض لوحاتى معروضة فى أوائل شهر أكتوبر فى أحد أكشاك مهرجان الفنون السبعة بساوث ستريت، وتجد بعضها الآخر حاضرة فى آخر الشهر نفسه فى استعراض فيلادلفيا للحرف. أو تجدنى على سطح المعدية التى تعبر نهر ديلاوير لأرسم السياح أثناء الرحلة، أو أصطادهم فى حديقة الاستقلال، وأمام ضريح الجندى

المجهول فى ميدان واشنطن، أو أعلق لوحاتى أمامهم كثياب الغسيل فى ميدان ريتنهاوس. وفى السنة الثالثة، أجدت بكثرة الممارسة، التحكم بألوان الزيت أيضاً، وارتفعت بأسلوبى إلى مستوى جديد. صارت أمشجة الألوان حين أخففها بزيت بذر الكتان النيئ تماثل ألوان الواقع تماما، ونجحت أخيرا فى إقامة معرض صغير من ست لوحات فى الطابق الثانى من مكتبة للكتب المستعملة.

دعا بروفيسور توم إليوت كل معارفه إلى المعرض، كما دعا صحفيا فى جريدة محلية، كتب مقالا حسنا عن معرضى فى الصفحة الخامسة. يومها قابلت من معارف أستاذى بعض ملاك الجاليريهات الغالية قرب دار ضرب العملة ودفعهم أسلوبى فى استخدام الألوان للحديث عن تسويق لوحاتى لديهم. ثم توالت المعارض وأخذ بعضها يتخذ طابعا من الفخامة. وفجأة وجدت لوحاتى تباع بأسعار لم أحلم بسماعها، وإذا بجميع من يهتم بالفن يتحدث عن أسلوبي، وزارنى صحفى لمجلة مرموقة وأجرى معى حوارا من صفحتين. كانت تباشير النجاح قد بدأت تطل برأسها عندما قابلت كاثرين لأول مرة!

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وجدت فيها كل ما أردته يوما. ذلك الهدوء الذى تمنيت أن يملأ عالمى قد أصبح واقعا محسوسا، ألمسه بيدى وتستشعره نفسي. ما إن أدخل من باب المنزل حتى يحيطنى الكمال من كل صوب. طلينا جدران غرفة الطعام بلون أرجوانى زاهي، وغرف النوم بالبنفسحى الهادئ، وخصصنا لى مرسما ومكتبة فى غرفة منفصلة طليناها بالرمادى الباهت. لم نترك شيئا للصدف وجعلنا من عشنا آيةً فى روعة

التصميم. راجعنا كتيبات إيكيا وكل شركات الأثاث الأخرى وانتقينا ألوان كل قطعة بعناية شديدة. للغرف الباردة وضعنا أثاثات ذات ألوان حارة، بينما فضلنا الألوان الباردة للغرف التى تتجه نوافذها نحو الجنوب. كان البيت دافئا فى الشتاء والصيف على حد سواء. ورغم أن مثل هذه الأشياء بمفردها لا تحقق سعادة الإنسان فقد تحققت سعادتى بها، وبماركات الملابس والعطور والسجائر والخمر. أحببت الماركات والأسواق وأساليب الدعايات والعلامات التجارية، وكنت أخرج مع كاثرين إلى السوق فى الأسبوع مرات عديدة. ولم يهمنى إطلاقا كون تلك الماركات أكذوبة كبيرة، إذ إن فى حياتى أيضا أكاذيب عايشتها..

بدت علاقتنا فى بادئ الأمر من الروعة بحيث صرنا هدفا لحسد الكثيرين، وغبطة أصدقائنا القلائل. نقضى ليلة فى بار داونيس الأيرلندى القديم، أو نحضر مسرحية فى مسرح والنت ستربيت، حيث تتراقص لمبات الغاز القديمة كما كانت تفعل فى الأيام الخوالي. وأظل أرافقها على امتداد العام إلى كرنفالات المدينة التى تعرف أخبارها جيدا. فتجدنا فى منتصف فبراير نرقص فى كل أرجائها على أنغام البيانو والساكسفون فى مهرجان الجاز السنوى ثم تأخذنى إلى أكبر معارض الأزهار فى العالم فى مارس، وفى الشهر التالى نغطى كل أفلام مهرجان فيلادلفيا للسينما العالمية، وهكذا عشقت عبرها المدينة وحاولت أن أسعدها بشتى السبل، منحتها من الهدايا والحب ما تحسدها النساء عليه. وكانت حين تعود إلى المنزل ألقى بالريشة وأهب لمقابلتها. أقبلها حين تغدو وحين تجىء وأجعلها تحلق فى فضاء الغرفة حين نمارس الحب. لكن ذلك لم يكفها؛ لأنها أحبت الفكرة التى تحيطنى أكثر مما أحبتني، وكانت تبحث عن الحزن فى أعماق رجل سعيد.

بعد أن خانتني، انهار العالم تحت أقدامي. وكانت بوادر الانهيار قد بدأت تتضح شيئا ف شيئاً قبل ذلك بشهور. صاحت فى وجهي: حياتى معك لم تعد تطاق، أنت لم تعد تحدثني.

لو أننى حكيت لها الأكذوبة لارتوى قلبها بالأمل كسائر الناس، إلا أننى حققت ذاتى كفنان وكإنسان متفرد لا يمت إلى ياسر بصلة، ولم يكن لدى بد من الانغماس فى مرسمى والهرب من اسئلتها، فأصيب المنزل بالصمم.

أحيانا كانت تقطع الصمت المطبق وتقتحم صومعة مرسمى فجأة، فقط لتصيبنى بالغيرة وتنال منى بعض الإهتمام. تجلس بينى وبين ما أرسمه حتى تكون مركز إهتمامي، وتحكى لى عن رجل قابلته فى المترو ودعاها لفنجان قهوة، أو عن عارض أزياء وسيم يعمل فى شركتهم. صار جل إهتمامها مضايقتي، لكن شخصيتى الباردة قد وفرت علينا كثيراً من المشاكل. وذات يوم رن جرس الهاتف بعد منتصف الليل ورفعت السماعة. جاءنى من الجهة المقابلة صوت رجل يتحدث الإنجليزية بأسلوب المبتدئين ويسألنى عن كاثرين. ناديتها مخفيًا إمتعاضى فحضرت ركضًا وتحدثت معه حتى اقترب الصباح...

حين عرفتنى على ذلك الرجل لاحقا تذكرته بعد عناء، وكنت قد قابلته أكثر من مرة فى مجتمعات اللاجئين فى مصر ونسيت مع الوقت إسمه، وإن ظللت أتذكر هيئته أيامها وهو مدمن على الكحول الرخيصة ومنبوذ من أى مجتمع، يوزع ديوانا رديئ الطباعة والمضمون ليلفت الإنتباه. وكنت أعلم من أحاديث اللاجئين أن لديه زوجة وثلاثة أبناء هجرهم من خلفه فى السودان..

قالت كاثرين ببلاهة: هذا صديقى شريف .. وهذا زوجى يعقوب ..

صافحنا بعضنا فى تواطؤ. بينما مضت تصف لى عن لقائهما فى

مظاهرة ما، وتحكى عنه حتى أصابنى الضجر وسرحت عنها بعيداً. الآن أتمنى لو أننى أنصت إليها، ربما لو فعلت ذلك كنت سأستقرئ ما سيسفر عنه الموقف وأتفادى بعضاً مما حدث. إلا أن ثقتى فيها كانت عمياء، وتعاملت مع الموقف بأكمله على أنه مرحلة ستمضي.

لكنه أصبح شغلها الشاغل، حتى إنها صممت غلاف ديوانه الجديد بنفسها وزارت المطبعة عدة مرات معه، وكله فى الحقيقة خطأى، فقد عرفت معدن الرجل قبل زمن بعيد وكنت ملماً بسذاجة زوجتى ولم أفعل شيئاً؛ ربما لأننى قد جنيت بعض الفوائد من وراء معرفتها به. إذ تركتنى لحالى قليلاً وانشغلت به فلم تعد تسألنى وبدت فوق كل ذلك سعيدة بشكل واضح للآخرين.

كل ذلك مضى مرور الكرام. حتى حدث أمر دق ناقوس الخطر بشدة. عدت إلى المنزل بعد يومين قضيتهما فى فندق حياة ريجينسي، أرسم لوحة أسميتها: "قرية على ضفاف النيل" من نافذة جناحى المطل على نهر ديلاوير. رسمت القطيات (بيوت القش) والنساء القرويات من صورة فوتوغرافية، ثم رسمت مجرى النيل ولونته بلون نهر ديلاوير. وقد نجحت فى ذلك نجاحا باهرًا، واستخدمت اللون النيلى بكفاءة غير معهودة، وهو لون حالم يتجاهله الناس عادة، ويصعب عليهم تمييزه فى ألوان الطيف، هو أزرق مشرب بالحمرة، يقع فى المنطقة بين اللون الأزرق واللون البنفسجي. المهم، عدت إلى المنزل ووجدت كاثرين قد وضبت المائدة فى غرفة الطعام، ووضعت فى وسطها حاملات الشموع وزجاجة نبيذ فاخرة. دلفت إلى المطبخ وقبلتها، ثم انتظرتها على مقعد رب الأسرة حول المائدة. بدا واضحا أنها تود الاحتفال معى بلوحتى الجديدة. هممت بفتح زجاجة النبيذ لكنها طلبت منى أن أنتظر قليلا. فجأة رن جرس الباب وهرعت كاثرين لتفتحه. وصل صوتها من صالة المنزل إلى

مسامعى وهى تلقى التحية بحماس على أحدهم وصوت قبلتين، وعدة كلمات شكر وامتنان. عادت بباقة من الأزهار بين يديها، وضعتها فى فازة عند منتصف المائدة تماما وقالت: أحضرها شريف، أليست جميلة؟

فى هذه اللحظة انتبهت أن علاقتها به قد توطدت حتى سمح لنفسه بالحضور إلى منزلنا ليقتحم احتفالا خاصا لزوجين دون غضاضة. جلس على الفور عند الناحية المواجهة من المائدة، ولم يخل الموقف من سخرية أن أضطر للنظر إلى غريمى طوال الليلة عبر الورود الحمراء فى الفازة. برغم ذلك، تحليت ببعض البرود وسألته عن حاله.

أجاب على الفور: حالى رائع للغاية..

كنت أستشعر منذ مجيئه فى كل حركة وكل كلمة يقولها أننى واقع تحت مكيدة مغرضة. لذا أثار مثل ذلك الرد الممعن فى التفاؤل آلاف الشكوك فى داخلى. تركتنا كاثرين قليلا لتحضر الطعام، فانتهزت الفرصة وسألته بطريقة مباشرة ومحددة: ما جاء بك اليوم إلى منزلنا؟

- اسأل زوجتك، هى التى دعتني.
- أحقا ذلك؟

مضى العشاء بإيقاع أشبه بالحركة البطيئة. احتفالى مع زوجتى قد أصبح وبالا علي. وغدا شيئا ثقيلا وغير محتمل. أما هو، فأخذ يجترع من قارورة نبيذى الإيطالى المعتق كما يجترع الماء. لابد وأنه لم يتخلص من حبه المريض للكحول بعد، فقط انتبه إلى نظافته قليلا وهذب لحيته الكثة وصار يهتم بهندامه بعض الشىء. يتحدث والطعام متكدس فى فمه فتنصت زوجتى باهتمام، يضحك فتضحك أيضا. أطبقت على أسنانى من الغيظ، حين سألتنى زوجتي: ما رأيك لو

ترجمت قصائده للغة الإنجليزية؟ وأضاف هو: نعم ما رأيك؟ أنت شاعر أيضا وتستطيع أن توصل للناس أحاسيسى ..

صار الأمر عند هذه النقطه مهزلة متكاملة. ها هو يتحدث عن أحاسيسه وهو لم يفق لحظة من سكره بأموال الآخرين فى القاهرة، ولم يتوانَ عن هجر أسرته دون وداع.

وزوجتى تؤكد: لقد كتب كل قصائد ديوانه عبر تجربة شعورية صادقة وهو يحارب مع جيش التحرير فى شرق السودان ..

و هو يدعى التواضع: تلك كانت تجربة ثرية، رغم كل العنف الذى أحاطها، لقد ...

لم أحتمل مزيدا من المهازل وقاطعته فى عنف دون أن أحس بنفسي: أى عنف؟ هل قتلت أحدهم هناك؟

أسقطت كاثرين شوكة الطعام ونظرت بدهشة نحوي، بينما انكمش الآخر فجأة وغاص فى مقعده قليلا ليخفى وجهه عنى خلف الورود الحمراء. سادت المكان فجوة من الصمت.

تحدثت كاثرين أولا، قالت بنبرة فيها لوم: ليس هذا سؤال تسأله ونحن نتناول العشاء يا عزيزى ..

قلت ببرود: أعلم ذلك.. ثم هاجمته مجددا: قل لى إذن .. أى أحد؟ هل رأيت أحد أصدقائك يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

عرفت عنه من قصص اللاجئين الذين انضموا لجيش التحرير أنه قد تدرب على القتال، لكنه لم يخض أى معركة طوال مكوثه معهم. كان جل اهتمامه أن يحظى ببعض الصور الفوتوغرافية وهو يرتدى بدلة جيش التحرير العسكرية. لكنه رفع رأسه فجأة ورمقنى بنظرة متحدية. قال: نعم. قتلت الكثيرين، ورأيت أكثر منهم يموتون ..

نظرت نحو كاثرين فرأيتها فاغرة الفم، مددت يدى بشكل تلقائى

لأربت على يدها، لكنها انتفضت عنى وصرخت: لم أعلم أنك قاس وكريه على هذا النحو.

تدخل شريف: لا بأس يا كاثرين، لا أمانع الحديث عن هذه الأمور، لقد تجاوزتها بقوة عزيمتي.

تحولت المعركة إلى صالحه. أخذ يحكى عن قسوة التدريب، وعن روحه القتالية العالية التى جعلته يجتاز جميع الاختبارات والمصاعب. ثم سرد قصصا خيالية عن ضابط ذى رتبة كبيرة انتقاه من وسط جنود الأعداء، ووضع ببندقية القناصة رصاصة عند منتصف جبهته، وكل ذلك قد حدث من على بعد ميل كامل. رأيت زوجتى تنصت للحديث باهتمام، ينكمش وجهها فى لحظة وينفرج فى اللحظة التالية. حكى قصصا أخرى عن صديق له مات بين يديه، وحين احتار فى تسميته، قال: كان اسمه كاسم زوجك ..

هكذا قتلنى بين يديه بكل بساطة.

أخذت عينا كاثرين الزرقاء تمتلئ بدموع تصب على خدها كلما رمشت أجفانها. انهارت تطلعاتها لعشاء رومانسى وتوقفت عن الأكل والشرب تماما. بدت بريئة لا ذنب لها، فجمعت عتاد كلماتى وهجمت فى ضراوة عليه.

قلت له: الجندى الشجاع لا يتحدث عن بطولته فى المعركة بمثل هذه السهولة لأن الشجاعة لا تولد سوى تأنيب الضمير. أولئك الذين تقتلهم يطاردونك فى الظلام، ولأنك فى الحرب تَقتُل ولا تُقتَل فإنك تموت كل ليلة.

استشعر شريف أننى سأقلب المعركه لصالحى مجددا وأبدأ فى دحض أكاذيبه. ولولا ذلك لما شكرنا على العشاء والنبيذ الطيب وخرج.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

كرهتنى كاثرين منذ ذلك اليوم، وتحول زواجنا إلى طلاق صامت. كنا فى منظور الناس لا نزال زوجين، لكن الحقيقة أنه لم يعد بيننا أى من تفاصيل الأزواج اليومية. استقل كل واحد بحياته على نحو أو آخر. صرت أستيقظ فى الصباح متأخرا بعد أن تذهب للعمل وأنام مبكرا قبل أن تعود ثم أستيقظ لأرسم مجددا عند منتصف الليل حين تنام. كنت مشغولا بالإعداد لمعرض كبير فى واشنطن العاصمة وبتلك الطريقه لم أقابلها إلا بمحض الصدفة، عندها كنا نلقى التحية على بعضنا على مضض ثم يغلق كل واحد باب حجرة من حجرات المنزل عليه. إلا أننى فى واقع الأمر كنت ضجرا من تلك الحال، ومنتظرا لبوادر خطوة إيجابية من ناحيتها.

وفى يوم ما، وأنا فى تلك الحالة بين الصحو والمنام، أغرق فى حلم فوضوى، بدأت أسمع فى نفس الوقت أصوات السيارات فى الشارع وخطوات كاثرين وهى تتحرك فى المنزل. انشدت حواسى إلى أرض الواقع أكثر وأنا أسمع صوت خطواتها ينتهى عند باب حجرتى وتحفز عقلى للاستيقاظ. دقت الباب فقفزت من سريرى على الفور وفتحت لها.

سألتنى بأدبها المعهود: هل أزعجتك؟

قلت لها بلطف بالغ: كلا يا عزيزتي، على العكس... لقد انتظرتك منذ زمن طويل..

– أنا أيضا انتظرتك لكنك لم تأت ما الذى أصابنا؟

لزمت الصمت ودعوتها للدخول. تربعنا على سجاد الغرفة، وبدأنا نسأل عن أخبار بعضنا حتى كدنا أن نبتذل أنفسنا فى سبيل ذلك. أخذت أسألها عن أخبارها فى العمل وعن أسرتها، ثم أكرر نفس

الاسئلة مرارا لأظهر اهتماما مضاعفا، أمرر يدى على خدها فتسألنى إن كان الجلوس على الأرض يضايقني. لا أدرى من أين نبع ذلك الحرص الهائل فجأة، حتى أنها قالت لي: لاحظت أنك لا تخرج من مرسمك مطلقا حتى حين أكون فى العمل.

- كيف عرفت ذلك؟
- لأنك فى العادة تتأكد من صندوق البريد فى الطابق السفلى، وحين فتحته وجدته متكدسا بالرسائل ..

نثرت كاثرين على الأرض كومة من الرسائل. وأخذنا نفتحها معا. معظمها رسائل دورية من البنك وشركة التأمين، وبعض النشرات الإعلانية، وفى وسطها شيك أرسلته إحدى الجاليريهات، ورسالة شكر من أبى. قرأت كاثرين إحدى الرسائل بتمعن قبل أن تناولنى إياها قائلة: هذه الدعوة تخصك، يدعونك لاجتماع الجالية السودانية الثالث فى مسرح مدرسة بيتسى روس الثانوية.

قرأت الدعوة على عجل ثم ألقيتها جانبا وانتقلت إلى رسالة أخري. لكن كاثرين توقفت عندها، قالت وهى تعيدها إلى المظروف: لابد أن تذهب، لقد وضعوك فى قائمة المشاركين، وهم يتحدثون عنك بفخر حقيقي.

- إنهم يتحدثون بفخر عن كل من هب ودب، لقد حضرت مثل هذه الإجتماعات من قبل وهى مضيعة للوقت.

قالت لتغرينى بالذهاب: هذه فرصة حسنة لنخرج معا، لقد طال بقاؤك فى المنزل وأنا أشتاق لرفقتك.

لم أفهم سبب إصرارها على الذهاب. لكن الأرجح أنها لم تكل من البحث عن أى خيط يصلها بحياتى الماضية، ولما كان فى الرسالة

إشارات لنضالى وحياتى وأعمالي، فإن أية زوجة لا تعلم الكثير عن ماضى زوجها كانت لتهرع إلى مثل ذلك الاجتماع آملة فى الحصول على بضع إجابات.

وصلنا متأخرين قليلا، وكان المقعد المحجوز باسمى فى الصف الأول قد شغل فجلسنا فى آخر القاعة. ألفينا أحد الشعراء المشهورين على المسرح يتلو مجموعة من الكلمات الضخمة التى لم يمسها أحد منذ قرون وقد ألصقها ببعضها البعض فأنشأ قصيدة مضجرة وصعبة، لا تحمل بين طياتها أى معني. لكن الجمهور أخذ يصفق له بشدة بين الحين والآخر فتصفق كاثرين معهم. قلت لها: لماذا تصفقين؟ أجابت: الشعر لغة عالمية كالموسيقي، ليس من المهم أن أفهم الكلمات لأحسها.

تذكرت محمود الذى كانت كلماته تضربنى بعنف كقذائف الهاون وأحسست بصوت الشاعر الحاد يخترق رأسى ويزرع فيه بداية الصداع. استغرق فى غيه هذا ساعة كاملة،

امتلأت القاعة خلالها بالناس فوق طاقتها حتى وقف الناس على السلالم وعند المداخل، وأخذ الأطفال يطاردون بعضهم بين فرجات المقاعد ويصرخون.

صعد المذيع وأثنى على المبدع السابق وعلى المبدع الذى سيليه فرأيت رأسيهما يهتزان. كان الآخر محللا سياسيا، جل أعماله كتاب من مئة صفحة وبضع مقالات صغيرة فى الصحف وأحاديث أكثر منها فى الجلسات الاجتماعية بددتها الرياح.

أسعفتنى استراحة العشاء بعد فاصل غنائى طويل، وخرجت لأدخن فى الخارج، بينما امتزجت كاثرين مع النسوة اللاتى تلونت وجوههن بالمساحيق، وتكبلت أيديهن بالأسورة الذهبية فى عرض فاضح للمنافسة، وملأت صحنها بالطعام السودانى الذى كانت تحبه.

وجدت وأنا أزفر الدخان، بضعة مراهقين تركوا آباءهم فى الداخل ومضوا يتسابقون بالأمريكية الدارجة ويتحدون بعضهم فى البريك دانس. وحين عدت بعد الاستراحة لم أجد كاثرين وقد ضلت منى فى ازدحام المكان. أثناء تلفتى بحثا عنها سمعت اسمى ينبعث من سماعات المسرح، والمذيع يقدمنى باللغتين العربية والإنجليزية: هذا المبدع الذى عرفناه فى القاهرة، أكثر من مجرد فنان مهاجر ذى أسلوب جديد، حقق له شهره واسعة، إنه فوق ذلك كله مناضل ومبدع وسجين سابق جسور، أنتم تعرفون عمن أتحدث .. هلا تفضل يعقوب عثمان إلى المسرح.

فكرت أن كاثرين موجودة فى مكان ما، وأنها تراقبني. صعدت سلم المسرح ووقفت خلف المنبر لأجلها. تحدثت بلغتى الأم فى البدء، شكرت الحضور ومنظمى الحفل، وجميع من أتحفنا بمشاركته فتعالت الابتسامات هنا وهناك. بدأت أتحدث عن لوحاتى وكيف أن الماضى قد أثراها، وأننى حضرت إلى هذا المجتمع الجديد ولمعت فيه؛ لأن أفكارى جديدة عليهم ومجلوبة من واقع مختلف... كنت أطوف بعيونى بين الوجوه، الكثيرة وأتحدث بشكل آلى فى نفس الوقت فبدوت منصتا لما أقوله. فجأة، وجدت كاثرين وسط زحام الوجوه. لحظتها إنقبض قلبى ثم خفق فى عنف. صار حالى كحال الأبكم وقد تجمد فمى ولم أقوَ على التفوه بشيء؛ لأننى حين رأيتها، رأيت غريمى شريف وهو يجلس فى استرخاء على الكرسى الملاصق لها.

حين استجمعت زمام أمرى وعدت للحديث مجددا بعد صمتى الطويل، لم أعد أبصر شيئا سواها وحدث ما أسميته أنت بإلقاء الحجر فى البركة الراكدة. وجدت الكلمات تخرج منى باللغة الإنجليزيه، وبدأت أهاجم الجميع فى شخص غريمى. قلت لهم:

لا أدرى ما الذى أفعله هنا معكم على أى حال. ما الذى يدفعنى للإنصات لقصائدكم الرديئة وابتذال نفسى لشكركم والتصفيق لكم والمشاركة فى اجتماعكم عديم الفائدة؟ لماذا أفعل ذلك ولوحاتى ستعيش لآلاف الأعوام، واسمى سيخلد للأبد!

أى حزن هذا الذى تتحدثون عنه فى قصائدكم وأغانيكم منذ بداية الليلة. أية غربة تلك التى تضخمونها فى جلسات السكر. أى نضال هذا الذى لا يعلق الظالم على حبل المشنقة، ولا يغير من محض الأشياء فى بلادنا التى تمضى بواسع الخطوة نحو الجحيم. أنتم لا شيء سوى حفنة من المدعين. دعونى أصارحكم بحقيقة أنفسكم قليلا، يفعل الواحد منكم شيئا ضئيلا فيسميه الأصدقاء مبدعا، لا يمنحونه شيئا سوى الألقاب الكبيرة ولا يلومونه بقسوة على عمل غير موجود، يقنعونه أن الإحساس هو المغزي، ويتركونه يموت على قارعة الطريق وهو بعيد عن الكمال، ثم يدفنونه كدفن الموتى العاديين ويقرؤون الفاتحة عليه. تذهب كل الألقاب مع الريح وأعماله تختفى بسبب سوء التوثيق.

أرجوكم لا تنادونى مبدعا، مناضلا، شاعرا أو حتى رائد فضاء. لقد رأيت وسمعت وأحسست بما حولى حتى حللت تلك المعادلة منذ زمن بعيد. إنها حياة واحدة لا غنى لى عنها. أعيشها كاملة غير منتقصة، وأحاول أن أشمل بهذا الكمال كل وجه منها. لا، لن أسمح للحزن أن يتسلل إلى إبداعي، كما لن أعيش بقصة شاعر حزين اسمه ياسر، كان يستمتع بنكران ذاته. تجده فى زحام السوق وفى جلسات السكر الرخيص، يقاسم الناس نفس الزنازين ويركب معهم نفس المواصلات المكتظة بالبشر والأوبئة. ولو أنه أصيب بالملاريا أو السل أو الكوليرا، لو أنه فقد عقله وأصابه الجنون، هل كان أحدكم سيتكفل بعلاجه؟ كلا ألف مرة!.

كثيرون من هم على شاكلته هناك فى الوطن. أتراهم يتساءلون عن أوان الرحيل، لحظة صعود الروح؟ هل يغير صدق إحساسهم من حقيقة فراش غيابهم المهترئ، وهل يقلل وجود آلاف الأصدقاء حولهم من حدة الألم عندما تحين لحظة الموت؟ قصة حياتهم واحدة، كأنهم ما عاشوا، أو كأنهم عاشوا ضمن قطيع تلاقى خرافه نفس المصير. لقد حللت المعادلة، وسأبصق فى وجه أمثالك يا شريف. أنت لا تزال شعرورا تافها حتى وأنت فى هذا الواقع الجديد. قل لي، أى ابتذال أكثر من أن تسمى ديوانك: قتال مع الكلمات!!! وتبرر إدمانك على الكحول بأحزانك الكاذبة.

كنت يا سيداتى وسادتى سأبصق فى وجه نفسى أيضا لو أننى عشت فى أكاذيب الماضى أكثر مما يجب، لو أننى لازلت أستحث الحزن الوهمى فى ذاتى لأبدع. لكن كلا، دعونى أنتهز غضبكم على وأعترف لكم بصدر واسع: لست مناضلا ولا مبدعا ولا سجينا جسورا، لست سوى رجل يجيد التلوين وهذا يكفيني؛ لأن العالم ضيق بطبعه، وأنا أكره أن أجعله أكثر ضيقا على الآخرين.

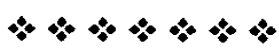
نظرت العيون نحوى شذرا وانفتحت الأفواه من الصدمة. قفز المذيع إلى المسرح وانتزع الميكروفون من يدى نزعا. كنت قد قلت كل شيء أردت قوله يوما، فتحليت ببعض الحكمة ونأيت إلى كواليس المسرح على عجل، وخرجت إلى الشارع من باب المسرح الخلفي. فكرت أننى قد جنيت كراهية مئات الناس فى بضع دقائق لكننى لم أهتم كثيرا؛ لأننى كنت مؤمنا بمبدأى. وحين حضرت أنت نحوي، وألقيت على تحية المساء وشكرتنى على ما فعلته بهم. أحسست بأن شيئا ذو قيمة قد قيل الليلة. لا يهم إن أنكرنى ألف وصدقنى واحد، إذ لا يزال قول الحقيقة المسيئة يستحق عناء المحاولة.

رأيت طيف كاثرين يخرج من باب المدرسة إلى موقف السيارات على عجل فاستأذنت وتبعتها. صحت باسمها قبل أن تركب السيارة فزادت من سرعة مشيتها. ركضت إليها وأمسكتها من كتفها، فالتفتت نحوى ودفعتنى بعيدا حتى كدت أن أسقط. صحت فيها: ما الذى يغضبك لهذه الدرجة؟

قالت: ألا تعلم؟

- فعلت ذلك لأجلك، شريف كذاب وأنا أعرفه جيدا.
- على الأقل هو صادق مع نفسه أكثر منك، لقد سئمت إنكارك لكل شيء، أنت لا تعرف كيف تكون نفسك.
- أنا هو نفسى وهذا ما يهم، كاثرين حبيبتى لقد عشت حياة سعيدة لا تزيد قسوة عن حياة معظم الناس، هذه هى الحقيقة الوحيدة.
- بل أنت سجنت وتشردت وفقدت أصدقاءك وصفعتك الحياة بعنف أينما حللت.
- من أخبرك بهذا الهراء؟

دفعتنى مجددا وقفزت فى مقعد السائق ثم أغلقت الباب فى عنف. درت حول السيارة إلى بابها الآخر وحاولت أن أفتحه، لكنها كانت قد أغلقت قفل الأبواب المركزى. أخذت أطرق على الزجاج بعنف، حتى توترت وأخذت تخطئ فى إدخال المفتاح فى فتحة التشغيل عدة مرات. ازداد طرقى وصياحى عنفا، ثم دار محرك السيارة بهدير مدوٍ وانطلقت بعيدا فى ذات اللحظة. وقفت فى الشارع أحدق بدهشة فيها وهى تتخطى الإشارة الحمراء وتنطلق بأقصى سرعة. ملأنى إحساس لاذع بعالم يتهاوى تحت أقدامي.



ركبت قطارا إلى الريف. رسمت تحت الشمس تداعبنى الرياح. وقفت فى مرج أخضر، وراقبت فروع البلوط تتراقص فى هبوب الرياح الشمالية. بين الأشجار المتجاورة متعانقة الأغصان تاريخ طويل كالذى بينى وبين أخي. تاريخ صامت لا يبوح بسره عند النظرة الأولي، وفيها سر غامض لأفهمه وأرسمه.

انتزعت نفسى من سطوة الطبيعة وعدت إلى المنزل، حاولت أن أعانق كاثرين، لكنها جفلت بعيدا عني. داعبتها فلم تستجب، حدثتها فلم ترد، جلست معها للعشاء فلم ترفع نظرتها القاسية عني. قلت لها: لماذا كل هذه القسوة؟ ألأننى لا أتعلق بذكريات لم تحدث؟

قالت بكل لؤم العالم: ألا تدرك أنك مثله؟

تحول طعم الطعام فى فمى إلى رماد. جلست إلى نفسى أرتب سيرة حياتي. لم أكن مثله فى شيء، شريف يعيش فى أكذوبة نسجها عن ماضيه وأنا أعيش فى حاضر ملموس. فكرت فى ياسر، هو أيضا لا يشبهه، لقد حاول وفشل وخسر أشياء كثيرة. لم يكن أنانيا على أى نحو، كان يؤمن بمبدأه. وإن كان قد أخفق، فذاك لأن العدل لا يجثم على الأرض كثيرا.

حبست نفسى فى مرسمي، داخلت الليل بالنهار، وانهمرت منى ألوان أكثر إشراقا من العادة. فكرت فى ليلة الهزيمة الأخيرة، ونظرت لأشجار البلوط المتعانقة فى قماش اللوحة السريالية وهى تتكاتف فى وجه الرياح الشمالية فأحسست بالاطمئنان والثقة.

وجدت أحجارا على نافذة عرض بمحل للأنتيكات القديمة. نظرت بعمق كأننى أكتشف سرا. أعجبنى صمتها، صمت الشاهد الذى

يعرف الكثير. جمعتهم إلى نافذة المرسم وجعلتهم ينبضون بالحياة. وضعت فوقهم سماء أرجوانية. رسمت بسريالية كأننى أخفى سرا.

قالت لى كاثرين قبل أن تخرج فى الصباح: أنت مثله!

غرست مسند الرسم على رصيف محطة القطار. الشتاء يبدو أكثر عنفا والناس على سفر. المعاطف تمضى وتأتى وأنا يقتلنى البرد وتتجمد أطرافى وترتجف الريشة فى يدي. أواصل الرسم. أفكر فيما قالته أمى على رصيف المحطة قبل أن تغلق عينيها لتحتفظ بمشهد أخير. صورة نحتت فى ذاكرتى كلوحة مرسومة. أتخيلها الآن، سيدة عجوز فى معطف من أزياء السبعينيات تقف وحيدة فى طرف اللوحة المعاصرة. عدت بعد أيام بتحفة أخري، رأتها كاثرين فقالت: أنت مثله!

تركتنى فى المنزل لثلاثة أيام وحيدا تتلاطمنى الشكوك. أشياء غريبة أخذت تحدث فى غيابها. رن جرس الهاتف عدة مرات فتحدثت ولم يجبنى أحد. كان صوت الصفارات المتصلة فى كل مرة يضعنى على حافة الجنون كقطارين سيصطدمان. قالت قبل ذهابها أنها "قد" تعود. صوتها أجراس ضخمة دقت ورأسى داخلها، صوتها فحيح أفعى يقول: أنت مثله!

رن جرس الهاتف مجددا عند منتصف الليل، ولم يفه المتصل بكلمة. نزلت إلى الشارع. وجوه الناس فى شارع بروود يملؤها القلق. عيونهم جاحظة ككرات البلياردو وتتشبع بالوحدة. أنا واحد منهم لكننى لا أرى نفسي. رسمت لوحة تجمع بين التجريد والتصوير. تتضح فيها قامات وتكوينات قلقة لكنها سريالية ومشوهة. قضيت فيها أسبوعين، وجرس الهاتف لم يتوقف عن الرنين فى أية لحظة.

عادت كاثرين مخمورة تماما. رقدت على الأرض وبكت طويلا وحركت يديها كمن يسبح على ظهره. راقبت المشهد من أوله إلى آخره ولم أحرك ساكنا. ارتفعت تنورتها القصيرة عن فخذيها من فرط انفعالها، اشتممت فيها رائحة الخطيئة. بكت حتى كادت روحها أن تزهق وقالت: أنت مثله!

نمت وحلمت أننى فى زمان سحيق. كنت فى حلمى أنام على سرير تاريخي، عارى الصدر بنفس وضعية أجاممنون قائد الإغريق بعد حرب طروادة. علمت أننى فى لوحة "مقتل أجاممنون" لغورين بيير نارسيس وامتلأت أذناى بطنين غريب. كانت زوجتى الملكة كليتمنستر تأتى صوبي، ثديها مكشوف وبيدها خنجر، لكنها تبدو غير واثقة من قتلي، بينما يقف عشيقها إيجسته خلفها ويحثها، وأنا عاجز عن فعل أى شيء لأنقذ نفسي. والرجل النائم فى الحلم خارج عن مجال سيطرتي. انقطعت أنفاسى واستيقظت متعرقا من الخوف.

سمعت جرس الهاتف يرن بعنف. لا أدرى من زاد من درجة صوته حتى يرن بكل ذلك العنف، رفعته ولم يجبنى أحد كالعادة.

قضت كاثرين آخر الأسبوع بأكمله خارج المنزل، بينما نزلت أنا إلى الشارع وحيدا فى يوم الأحد، وعبرت أمام كنيسة فيها أصداء ملائكية لجوقة من المنشدين. شدنى الصوت وتبوأت مقعدا فى آخر القاعة. صاح مرتل القداس فى اهتياج:

أيتها النعمة الإلهية البديعة

كم أنت عذبة للغاية

سمعت صوت أمى حين ترتل القرآن فى الصباح فى غناء الجوقة، وصوت ياسر فى ليلة الهزيمة الأخيرة حين مضى القسيس يحكى عن آلام السيد المسيح وعذابه، حتى رهف صوته وخارت قواه.

وضعت لوحتين أمامي. وتدافعت ألوان كثيرة إلى عقلي. حبست نفسى فى مرسمى كما يجلس الحائك خلف خيوط دود القزّ فى عزلة عن العالم. أمسكت بأطراف خيوط أشياء مبهمة، ولطخت اللوحتين بأزهى الألوان.

وضعت نتاج الأيام الماضية جنبا إلى جنب، ونظرت بعمق فرأيت خطا خفيا يصل بين ألوانها، طغى وجوده على كل شيء آخر وأوجد صلة مبهمة بين تفاصيل اللوحات المتباينة. كان لدى متسع من الوقت قبل معرضى الكبير فى واشنطن وقد تجمعت ست لوحات مكتملة، وبرغم ذلك أقلقنى فراغ اللوحة الأخيرة المتبقية، وأحسستها تنظر نحوى وتطلب إلى أن اتأمل فيها وأرسمها. وضعتها عند منتصف اللوحات الست تماما، وكان سيل الألوان لا يزال عنيفا، لكننى حين بوأتها مكانها عند المنتصف تماما، برزت فى عقلى حقيقة واحدة، توحى بأن تلك السلسلة الخفية، كانت تأخذنى إلى لون واحد تنطفئ فيه جميع الألوان. لون لطالما أحببته فى غسق الليل، وأعجبنى فى عيون أناس قابلتهم فى تقاطعات بعيدة. لكننى لم أقوَ على استخدامه طوال حياتي. والآن جلست أمام صفحة بيضاء حتى نضبت الألوان فى أنابيبها. نقطة الضوء التى نبعت منها الألوان الخلابة طوال حياتى لم تكن لتجدينى مع تلك اللوحة. الصمت أطبق على صوت أفكارى، تيار الألوان عنيف كنهر ذى مجرى ضيق انتهى إلى شلال شاهق، واللون الأسود قد برز كهاوية أخيرة مظلمة، وصار سيدا على الموقف بأكمله. رن جرس الهاتف مجددا...

أجبته بعنف من فرط قلقي، لكننى تفاجأت بصوت بروفيسور توم إليوت يسألنى بهدوء: لماذا تصرخ بهذا الشكل؟

اعترفت له على الفور: إنه لون أسود قاتم ولعين يستولى على أفكارى برمتها.

- ظننت أن ذاك هو لونك المفضل.
- بالتأكيد، لكننى لو رسمت به، سأدمن عليه. عندها سأفقد أسلوبي، سأفقد نفسى تماما.
- لا تخف من ذلك، لقد أصبحت لديك لمسة تخصك ومن الصعب أن تفقدها حتى لو حاولت ذلك.
- لكن لماذا الآن؟

طمأننى أستاذي، وعدت لأحدق فى اللوحة البيضاء، وأفكر فى الأمر برمته من زاوية أخري. أدركت أننى بصدد مرآة سوداء، لو عرضت اللوحات المشرقة على جانبيها، فإنها ستكون بمثابة بوابة تعبر بها بين جانبى مرآة من ألوان سريالية مبهمة وعجيبة، ولن تخفى تلك العبقرية عن عيون الناس.

اعتزلت الكون، وتجاهلت صوت الهاتف تماما. أمسكت بقطعة من الفحم ورسمت بها بضعة خطوط مبهمة. فتحت ريشة جديدة وغمستها فى سائل الألوان الأسود. أخذت أمررها على خطوط الفحم. جرس الهاتف رن ولم أجبه. رويدا رويدا طلت من قماش اللوحة عينان واسعتان. رن جرس الهاتف ولم ينقطع كأن المتصل آراد أن يثنينى عن المواصلة، بيد أنى تجاسرت وتتبعت انثناءات خطوط الفحم فبان أنف وسيم وابتسامة خفية، ثم استدارة وجه وظلال عند الجبين. تابعت ورسمت الأذنين، ظللت الشارب الخفيف والشعر القصير على تاج الرجل

المبهم. فجأة لم يعد صوت الهاتف يعنيني، ولا عدت فى حاجة إلى خطوط الفحم لترشدني؛ لأن رأساً أعرفة قد بان، ومددت ريشتى نحوه كعصا الساحر مقررا أن أمنحه بعض ظلال الحياة.. فجأة أطل ياسر من نافذة اللوحة! وعدت إلى الوراء من هول الصدمة حتى تعثر مقعدى فسقطت بعنف وأغشى عليّ.

رن جرس الهاتف أثناء غيبوبتى كثيرا حتى أيقظني. خرجت من مرسمى وأغلقت بابه فى هدوء. مشيت إلى صالة المنزل فى ثقة. كنت قد عرفت من قد يتصل بى حين تنهار حياتي، وتضحى المجازفة بكل شيء أقل وطأة.

رفعت السماعة ببطء وأجبت بكلمات خرجت منى لكنى لم أسمعها: أنا أستسلم!

ياسر يقوم بمعجزات لا يقدر أحد عليها.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

هرعت إلى وكالة السفر، كان الكريسماس على الأبواب، وقد بدأت الاستعدادات تبين فى مجمل البلاد. وجدت وكالة السفر مكتظة، والحجوزات شحيحة، لكننى حصلت بعد عناء على تذكرتين إلى السودان. لماذا تذكرتان؟

لأن كاثرين لطالما أرادت أن تزور موطنى لتقابل أسرتي، وتستلقى على ضفاف النيل، وتتناسى أمر الأوراق المتكدسة على سطح مكتبها. تلك كانت إحدى أمنياتها الملحة. أما أنا، فلدى سبب آخر يدفعنى

بقوة للعودة إلى هناك، وذاك أن ياسر أخبرنى فى المكالمة الأخيرة، والتى استمرت طوال الليل بأنه مريض يحتضر.

فكرت فيه بعد تلك المكالمة طويلا حتى أظلم قلبي. ولأول مرة أيقنت أننى لا زلت أحبه بتجريد، وأننى ظللت أحمل حبى غير المشروط نحوه طوال الطريق ولم أطرحه كما طرحت قصته حين لم أعد فى حاجة إليها. حين سألته عن سبب مرضه، امتنع عن وصف التفاصيل واكتفى بأن لفظ بضع كلمات لدغت صميم قلبى وجعلتنى أركض إلى وكالة السفر فى الصباح. قال: إننى اتألم يا أخي!

عدت إلى المنزل وتوقفت بلا وعى أمام الباب لفترة طويلة. كنت أحمل المفتاح فى يدي، لكن حدسا جعلنى أحس بالخوف ومنعنى لبرهة من أن أغرسه فى باب المهوقنى الفخم. دلفت إلى الصالة فأحاطنى الكمال الذى أسبغته على منزلنا من كل صوب، إلا أننى لم أستشعره فى تلك المرة، بل أخذت أنصت لصوت موسيقى ولغط ينبعث من غرفة نومي، وأتخيل رائحة غريبة لم أعهدها فى منزلي. رأيت لوحاتى السبع وقد علقها أحدهم بنفس الترتيب على جدار الصالة. تربعت على كنبة المنزل الحمراء، وعبرت ذهنى أفكار مزعجة. كل قطعة فى المنزل تصرخ بالكمال، النافذة كبيرة وشفافة ونظيفة، أما فى السماء فهناك غيوم رصاصية، والمنزل نصف مظلم. وصلت الموسيقى إلى ذروتها ثم انطفأت، وأخذت أسمع غير مصدق نفسى صوت كاثرين وهى تتأوه من اللذة. ارتجفت كالمصعوق ولم أقوَ على النهوض، دار رأسى وتقيأت فى مكاني. أمسكت رأسى كأنه قد سقط فى مبارزة بالسيوف بين يدي. نظرت إلى الباب، زحفت نحوه زحفا وخرجت دون أن أثير أية جلبة.

- ٦ -

فى غمرة تلك القصص، كنت قد نسيت أمر حادث السيارة تماما، ووعد رجال الشرطة لى بأنهم سيعودون. سألنى عامل الاستقبال فى بناية يعقوب على غير عادته عن مقصدي، ولما أخبرته قال بتأثر مصطنع: لا أظن أن مستر يعقوب سيكون فى منزله قريبا.

حكى لى أنه قد حضر الموقف من آخره. وقد رأى رجل الشرطة يضع يده على رأس يعقوب ويدخله برفق إلى مقعد السيارة الخلفي، وسمع آخرا يقرأ عليه حقوقه بصوت مسموع، سألنى عامل الاستقبال فى فضول عن سبب اعتقاله وأحسست بأنه ينظر نحوى نظرة إتهام، ربما لأن مظهرى قد أوحى له بأن وجود أمثالى فى حياة يعقوب هو سبب تلك المصائب كلها. لم أجبه، فحاول استمالتى قليلا لأشاركه بحصيلتى من المعلومات، بأن شاركنى بما لديه وأخبرنى عن قسم الشرطة الذى اقتادوه إليه.

أحسست بعميق الذنب، حتى أن الموقف بأكمله تبدى كـكابوس ثقيل. خرجت من حالة التفكير فى المشكلة، وفكرت فيما أستطيع فعله. أقل شيئاً أن أزوره وأوفر له محاميا. فتحت محفظتى ولم يكن فيها سوى عشرين دولارا، وكارت الفيزا الذى أوصلته إلى قمة سقفه يوم اشتريت خاتم الزفاف لكيشيا. فكرت فى حلول أخري. لو اتصلت بأبى قد يظن أننى عدت لمصاحبة أصدقاء السوء، وأن لى صديقا آخر فى السجن أود كفالته.

قدت سيارتى بسرعة خارقة، ووجدت أصابعى تطرق على باب صديقى بيرسى والذى قابلنى بابتسامة واسعة، وبادرنى قبل أن أتفوه بكلمة، قائلا: أنت إما قديس أو وسيط روحى لتطرق بابى فى هذه اللحظة، ليس لدى حق الطعام يا رجل، هلا أقرضتنى بعض المال؟

أعطيته دولاراتى العشرين، وصرت مفلسا تماما. ذهبت إلى قسم الشرطة فقال ضابط الوردية الليلية أن موعد الزيارة قد ولى. سألته إن كان المدعو يعقوب قد وكل محاميا، فقال: وكيف لى أن أعرف؟

همت فى الشوارع على غير هدي. نظرت إلى المؤشر أمامى فانتبهت إلى أن وقود السيارة قد أوشك على النفاد، أوقفت السيارة جانبا وجلست على الرصيف يأكلنى الغيظ من عجزى وانقطاع حيلتي. عندها، سقطت على فكرة من السماء، ورأيت وجه كاثرين تبكى على زوجها الذى فقدته.

فتشت فى جيوبي، وفى خزانات السيارة، وأسفل مقاعدها، حتى تجمع لدى ما يقارب الدولار من العملات المعدنية. هرعت إلى أقرب هاتف عمومى واتصلت بها.

أجابتنى بصوت ناعس، فألقيت على مسامعها ما حدث. بدا أنها قد صدمت أيضا؛ لأن صوتها قد تبدل وصار أشبه بصوت جندى يستيقظ بعد منتصف الليل على صفير المعركة. قالت بكل جدية: سأتصل بمحامى العائلة الآن، وسأوافيك بعد قليل.

دقائق ودق جرس هاتفى النقال، وإذا بها تطلب منى أن أقابلها. لم أكن بعيدا عنها، وخمنت أن الوقود المتبقى يكفى لإيصالي. قدت إلى منزل عائلتها، وتولت هى الأمر من هناك. ملأت سيارتى بالوقود، وذهبنا معا إلى قسم الشرطة.

وجدنا المحامى فى انتظارنا. رجل طويل القامة مرتب الشعر، رصين الهيئة. يرتدى بذلة كاملة وربطة عنق، أظنه كان نائما بها ليحضر إلى القسم بمثل تلك الأناقة والسرعة المناقضة. قال لكاثرين بنبرة ثقة: سأتولى الأمر من هنا، لا داع للقلق. إنها قضية بسيطة.

جلست كاثرين فى مقاعد الانتظار عند باحة قسم الشرطة، مذعورة وقلقة. بينما خرجت إلى الشارع، والتقطت أنفاسي. كان منظر المحامى الأنيق عند منتصف الليل، قد وضع أعصابى فى قدح من الثلج، وخلصت إلى أن الأمور ستكون بخير. كان حارس القسم يقف وحيدا فى صقيع يناير وأنظاره متجمدة بالوحدة والصقيع. نفخت دخان سجائرى فى أكفافى الباردة، ونظرت إلى الشارع. أخذت أفكر بتجريد فى رسام مبدع يجثم خلف القضبان، وفى نفسى وكل ما اقترفته يداى طوال حياتى العبثية جالسا أتنشق هواء الحرية. مرة أخرى جعلتنى مصائبه أستهون مصائب نفسي، وأرضى بما جازتنى به الحياة. فى الليلة الماضية قبل أن أبارح منزله، قص على ما حدث حين عاد إلى الوطن وقصة قتله لأخيه. كان محقا حين قال إن حكمى علي، لن يكون قاسيا لو عرفت التفاصيل. لكننى لم أكن سأكرهه فى مطلق الأحوال، ولا كانت نظرتى ستتغير نحوه. فإن كانت حياتى العبثية قد

علمتنى شيئا، فهو ألاَّ أتجرأ فى الحكم على كائن بشرى غيرى إذ لم أكن إلها خالقا. كان يفصلنا عن الصباح ساعات طويلة، لا أدرى ما الذى ربطنى إلى رصيف قسم الشرطة بعد أن عرفت القصة بأكملها ولم يعد لدى صديقى شيء آخر ليرويه. كان فى إمكانى أن أذهب ولم تكن من قوة فى الأرض قادرة على إيقافى. لكننى أخذت أستعيد ذلك البريق الغريب الذى أضاء عينيه وهو يقص قصة العودة؟

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ركضت إلى الشارع كالمجنون، ينقبض قلبى من ألم الخيانة والندم. تأوهاتها المتلذذة تئن فى أذني، وصوتها فحيح أفعى يقول: أنت مثله!

لم أحمل شيئا معى غير جواز سفرى وتذكرتى والملابس التى تغطى جسدي. اتصلت بشركة الطيران من سيارة أجرة شقت بى المدينة جنوبا إلى المطار. أنوار الزينة فى الطريق قد علقت على البيوت والمحلات وفوق فروع الأشجار لكنها لم تضاء بعد. رجوتهم فى الهاتف أن يجدوا لى حجزا فى نفس اليوم لكنهم اعتذروا عن تعثر الحجوزات بسبب موسم الإجازات، ثم ما لبثوا أن عادوا لمساعدتى لاحقا إذ وصلتهم ورأوا وجهى المتجهم منكمشا أمام مكتبهم بمبنى المغادرين.

أقلعت الطائرة ورأيت فيلادلفيا تصغر أمام عيني. صوت كاثرين لم ينزوى فى هدير محرك الطائرة وضغط الارتفاع. مرت المضيفة بطعام شهى الرائحة، لكن معدتى كانت مسدودة وتفاقمت فىّ رغبة تدمير الذات. شربت كأسا، كأسين، خامس عشر. أخذ رأسى يطن أكثر، ودماغى ينضغط ويدور فيصطدم بأشياء وهمية عن يمينى وعن يساري. بعد عشرين ساعة ونيف، رأيت موطنى تحت عاصفة رملية غطت على الأخضر واليابس. أطل نهر النيل كمجرى من الطين،

وبانت بعض معالم الخرطوم.

عبرت صف جوازات الأجانب دون وعي، وختم الضابط على جوازى الأمريكى تأشيرة الدخول. كنت أول مسافر يبارح المطار، وركبت سيارة أجرة صفراء ماثلت فى عمرها عمر سائقها الهرم. سألنى السائق: أضاعوا عفشك أم ماذا؟ وأضاف ضاحكا: أنت أول شخص أراه يعود بعفش أقل من الذى سافر به.

أومأت بالإيجاب دون أن أفهمه، وأخذ ينتابنى إحساس بالغربة عميق. بدا لى الناس وكأنهم قد نفضوا التراب لتوهم وهبوا من قبورهم. الأطفال الفقراء يتكدسون عند كل منعطف. ماكينة السيارة تئن وسائقها يسب ويكح ويشتم. أشعل سيجارة ونحن نعبر أمام القصر الجمهوري، وأشار للحرس الواقفين عند البوابة بأزيائهم الغريبة، قال: قدت هذا التاكسى منذ ثلاثين سنة، ولم يغيروا وقفتهم هذه. الشوارع قد صارت أوسع قليلا، والبترول أصبح بعضه سودانيا، السلام قد تحقق، لكن شيئا لم يتغير.

أشار بيده إلى عمارات زجاجية ضخمة، انغرست وسط المدينة الفقيرة المظلمة. مررنا أمام قاعة الصداقة، واجتزناها إلى منتزه المقرن، حلم طفولتى الذى بدا الآن مهجورا وخاويا. عبرنا بين ضفتى النيل الأبيض إلى أمدرمان عبر الجسر الذى طليت بعض عمدانه بلون برتقالى شاحب وترك الباقى على حاله. كان مبنى المجلس الوطنى قد قاوم عوامل الزمن، وكذا مستشفى القوات المسلحة اللتان تحتلان أفضل المواقع على ضفاف النيل فى مشارف المدينة. انحرف السائق يمينا، ومضى عبر أحياء كثيرة استعدت صورها واحدة تلو الأخرى. كان الجو أكثر صفاء بعد أن توقفت عاصفة الرمال وأطل حينا من

بعيد. لم تمضِ دقائق حتى كنت أقف أمام منزلنا وأنقد السائق حقه. لكن السائق رفض أخذ أجرته مني. سألته عن السبب، فقال بشكل غامض: تفاءلت خيرا أن أراك مجددا، لا تترك عفشك الذى أضاعوه فى المطار لهم، يجب أن تلاحقهم وتسترده.

تركنى لحيرتى ومضى مبتعدا حتى تبدد صوت ماكينة السيارة وغابت فى زقاق ضيق. فكرت أن السائق الغريب يعرفنى من مكان ما. ربما هو من أوصلنى إلى محطة القطار يوم سافرت، فقد ذكر فى بداية حديثنا شيئا عن عودتى دون عفش. لم ينجح هذا التفسير فى إقناعي، وخلصت إلى تناسى الموقف بأكمله.

وقفت فى الشارع، ورأيت المنزل جاثما أمامى كأننى أنظر إلى صورة قديمة. نبح فىّ كلب ضال لم يعرفني. خطوت خطوتين نحو الباب، وقبل أن أطرقه هب رجل لا أعرفه نحوى واحتضننى فى شوق وفرح حقيقيين. لاحظ ارتباكى فقال لائما: هل نسيتنى أم ماذا؟ أنا صلاح الدين مالك الحانوت المجاور.

مضى الرجل يحكى عن تفاصيل مغامرات كثيرة قمنا بها معا، ولما ادعيت أننى قد تذكرته، لامنى بعنف أكثر: هل هذه فعلة تفعلها يا رجل؟ تسافر دون توديعنا هكذا؟ من دونك تحول الحى إلى خلاء. مرحبا بعودتك، مرحى!

استغربت أن يفرح أحد سكان الحى بقدومى لتلك الدرجة. تذكرت نفسى قبل سنوات طويلة، وكم كنت منعزلا عن الناس ونسيتهم جميعا ما إن بارحت حدود البلاد. إلا أن هؤلاء القوم الطيبين قد فاجأونى خلال ساعة واحدة من قدومى مرتين. أدهشنى كثيرا أن يحفظ الناس ذكراك بعد أن تنساهم!

طرقت الباب فى لطف فلم يجب أحد. طرقته فى عنف، فأجابنى صوت امرأة هى أمي. سمعت خطواتها تقترب من الباب متباطئة ثقيلة، وصوتها الذى يستصبرنى صوت امرأة استنفذت عمرها فى الصبر وشاخت. انفتح الباب ورأينا بعضنا. كدت أن أنفجر فى بكاء عميق. كيف كبرت أمى قبل أوانها؟ شعر رأسها قد نبت فيه الشيب، وتغضن وجهها الجميل فجأة. تراخت أقدامها من رؤيتى فانهارت على الأرض وبكت. رفعتها بساعدين قويين وأسندتها إلى صدرى ثم احتضنتها طويلا. ذلك لعمرى أمر تمنيت فعله فى لحظة يفصلنى الآن عنها دهر كامل أطل من شيب أمى الآن، لحظة قالت فيها جملة وأغلقت عينيها على مشهد أخير. بيد أن القطار كان قد تحرك وبارح المحطة. إن ما قالته ملأنى بالندم على عدم اكتراثى بها فى أوقات شتي. تمنيت لو تقهقر القطار، لأحتضنها وأهم فى أذنها: كم أنت غالية وشجاعة! تلك الكلمات القليلة على رصيف المحطة جعلتنى أعرف أن الحب الذى تحمله نحوي، أعمق من الحب الذى تحمله نحو ياسر، وأنا الذى ظننت أنه الأحب إلى قلبها.

أيام كان فى المعتقل. كانت تخرج فى رحلة بحث يومية. وتبدأ رحلتها فى الصباح الباكر. تطوف الشوارع بلا هدي، تسأل الناس ولا أحد يعلم. لطالما نصحها فاعلو الخير بالبقاء فى المنزل. أخبروها أن بعض المعتقلات مغروس وسط الأحياء السكنية، تراه من الخارج كأى منزل آخر، وبعضها فى الضواحى والأقاليم ومبانى الهيئات المهجورة، وبعضها فى مبانى المدارس القديمة. ثم لخص رجل عجوز الأمر لها، قال: لن تجدى المعتقلات فى أى مكان، لأنها ببساطة فى كل مكان ..

و تساءلت أمى فى يأس: ألهذا يسمونها بيوت الأشباح؟

أجاب: ربما، وربما لأن عناصر التعذيب كانوا يرتدون اللثام فى بداية الظاهرة، أو لأنهم ينادون بعضهم بأسماء مستعارة حتى الآن، لا

أحد يعلم، فقط عودى للمنزل أيتها السيدة الطيبة إن كتب الله لابنك عمرا سيعود.

و كانت أمى تعود فى الليل منهكة القوي، ثم أصيبت بانهيار عصبى وسقطت فى السوق ذات يوم.

وجدتها واقعا ملموسا فى حضنى وانهالت منى عاطفة كونية نحوها. حلمت فى القاهرة بهذه اللحظة كثيرا، وقلت لها فى الحلم: لا يهم إن تأخر الغداء، أو لم يأت أبدا، أعرف أننى ابنك المفضل وأنا أحبك دونما شروط.

حتى فى الأيام التى سبقت إقالتها عن العمل، كانت تعود إلى المنزل عند منتصف النهار فى باص مزدحم بعد يوم عمل شاق، وتقدم الغداء فى موعده تماما. كانت تصوم وتصلى وتطعم الفقراء وتقيم الليل، ثم تستيقظ قبل مطلع الشمس لتعد شاى الصباح، وتقضى بقية اليوم فى حركة دائمة. وحين فصلوها عن العمل فجأة، طالبتهم بتفسير ولم تحصل عليه، بدأت هذه الغضون تظهر فى صمت، وسمعتها تنهنه لنفسها بين الحين والآخر: فصلونى لأننى عضوة بالاتحاد النسائي.

- كم أنت غالية وشجاعة!

خطوت إلى فناء المنزل. شجرة النيم وارفة الأوراق تقف عند منتصفه، وتحط عليها طيور وبلابل. أصوات الطفولة بين أخى وبيني، أسمعها فى أرجاء الغرف الفارغة الكئيبة. دلفت إلى صالون المنزل ووقعت عيناى على طاولة القصاصات، مهجورة منذ دهر طويل، عليها طبقة خفيفة من الغبار. حضر أبى وصاح من الدهشة، فرح حتى خفت على قلبه أن ينفجر.

جلس ثلاثتنا للغداء. سألتنى أمي: كيف هى زوجتك؟

- بخير! أجبتها باقتضاب.

لاحظت امتناعى عن التبحر فى التفاصيل، فحاولت أن تحثنى بطريقة غير مباشرة. قالت:

- ظل الجميع يسألنا عن أحوالك على الدوام، وكلهم سعدوا لنبأ زواجك للغاية، حتى أن أصدقائك لم يصدقوا الأخبار فى البداية.

- أى أصدقاء يا أمي؟ كل من أعرفه هنا لم يرتق من ثلة المعارف إلى ثلة الأصدقاء.

نظر أبى نحوى فى دهشة أصيلة وقال جملة بالغ فى جعلها درامية: يبدو أن الغربة قد غيرتك كثيرا يا بني.

ضحكت قائلا: أو طورتنى ربما.

ضحكت أمى بانشراح معي، وقالت: تبدو بصحة جيدة، لكن وجهك يبدو مرهقا، لماذا لا ترتاح قليلا؟ سأجهز لك سريرا.

نمت فى صالة الدار نوما عميقا متصلا لساعات طويلة، لكننى استيقظت فى المساء على صوت الهاتف فجأة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

وقفت حافيا على حشائش الضفة، وأخى قريب مني. ليس هائل الحجم كما كنت أراه بعيون الطفولة. أطوالنا قد تساوت، ومناكبنا عريضة كبعضها، وصدورنا واسعة قوية وعارية. كان البرد فى أوج جفافه، ودوامات النيل تدور فى حلقات مفرغة فتسحب الأشياء إلى القاع. لم يكن شكل أخى يبوح بالألم الذى حدثنى عنه، بل كان يقف

على حشائش الضفة بجواري، ويتحدى الموت بعينيه.

اقشعرت أبداننا من برودة المياة حين غرسنا أقدامنا فى أطراف النهر. تأوهت من البرد، ورمقنى أخى بنظرة متحدية، ثم قفز قفزة جريئة وغاص فى المجهول. راقبته بشيء من القلق حتى بان رأسه مجددا، وسمعت صوت سيقانه القوية وهى تضرب المياه بقوة وثبات. عندها غصت أيضا وارتعش جسدى من أخمص رأسى إلى قدمى ارتعاشة منطفئة واحدة. قاومت رئتاى بعنف ووجدت رأسى يطل قرب رأسه.

قال أخي: واحد .. اثنان ..

– ثلاثة!

سحبنا نفسا عميقا وانطلقنا معا. كانت الشمس برتقالة ناصعة. من خلفنا الضفة التى تركناها مهجورة إلى الضفة الأخري. والنهر فى ذلك الطقس ملك لنا.

بدت الثوانى كساعات، الدقائق كسنوات. تيار النهر جاف البرودة. سمعت فى الماضى عن تماسيح، وأسماك بَرَدّ تصيب ضحاياها بالصعقة الكهربائية ، وتذكرت أناسا قتلوا قبل عبور الجسر الذى فوقنا، خفق قلبى الآن لذكراهم. وأحسست بتيار عنيف وبرد يجمد الأيادى ويكسر المجاديف، فاقتربت فكرة الموت أكثر، واقتربت الضفة... وصلت قبله.

نظرت إلى أخي. هزم أفضل السباحين فى الماضي، وفض الدوامات، وجنى احترام الناس والنهر. رأيته يجاهد للوصول، يغوص رأسه فى لحظة ويعلو فى اللحظة الأخري، وتتحرك يداه ببطئ كأنها مربوطة بأثقال خفية.

عادنى خاطر أنه يحتضر وسمعته يشهق على الضفة فى ألم. ضرب الطين بقبضته وملأته مرارة الهزيمة. أحسست بالندم أكثر

وأكثر، ذلك شيء آخر أنتزعه منه دون رحمة. قال يتأسى: أنا أستسلم أيضا! ولم يضف كلمة عليها. بل هب واقفا، ورأيت ظهره وهو يبتعد عنى بخطى ثابتة. صحت فيه: مهلا!

لكنه واصل المسير، ورأيت باطن قدميه يتخضب بالطمى مع كل خطوة. صحت فيه: أنا آسف!

- ليس ذنبك.
- إبق قليلا!
- لكننى متعب.
- تلك أكذوبة لعينة، أنت فى أفضل حال ..
- بل أنا أموت ..

لو تمعنت فيه دون أن أتمنى رؤيته بموفور الصحة لأدركت أنه فعلا يموت. لم يكن وجهه شاحبا فحسب، بل أن جسده أيضا بدا باهتا كلوحة قديمة. صحت متوسلا: إسمح لى أن أرافقك؟

- كلا.
- لم لا؟
- لأننى لا أدرى إلى أين سأذهب.
- لقد جئت طوال تلك المسافة لأكون معك، وستتركنى وحيدا هكذا؟
- أنا متأكد أنه سيسهل عليك إيجادى بنفس السهولة التى هزمتنى بها.
- بل أنت الذى هزمتني، وبسببك عدت إلى هذه النقطة.

رأيته يبتعد أكثر وكتفيه يهتزان كمن يقول. ربما!

إلتفت نحوى وصاح من بعيد: ستجدنى ولو فى آخر نقطة فى العالم.

غصت فى الطين أكثر. غمغمت لنفسي: ولو فى آخر نقطة فى العالم! وراقبت البرزخ الخفيف حيث يلتقى النيل الأبيض الهادئ، بالنيل الأزرق العنيف، ولا تمتزج مياههما أبدا.

ذهبت إلى منزل بائعة خمر كان ياسر يرتاده لاحتساء العرق. تذكرت الطريق إليه دون عناء. عبرت وسط البيوت النائمة إلى أطراف ساحة كبيرة، فيها منزل من الطين والطوب بفانوس علق على بابه. توقعت أن أجد ياسر هناك، فقد عهدته يهرع للخمر فى أوقات الهزيمة. طرقت الباب مطولا، وسمعت من مكانى ضحكات المخمورين المطوطة تملأ البيت. فتحت لى امرأة مربوعة القامة أنار الفانوس وجهها المتعب قليلا. نظرت نحوى نظرة ذات مغزى وصبت لى كأسا على الفور.

حملت الكأس فى يدى ودلفت إلى فناء منزلها. دارت نظراتى بين وجوه القوم الجالسين بحثاً عن ياسر فنظروا نحوى شذرا. اجترعت الكأس اللاذع فى جرعة متوترة. سمعتها تقول: تفضل اجلس .. جلست على سرير حديدي، ينام عليه طفل، وأخذت السيدة تملأ كأسى الفارغ من قنينة بلاستيكية دون أن تشاورني. نظر الرجال نحوى شذرا فرفعت كأسى نحوهم وقلت دون عناء: فى صحة سعدية، صانعة الخمر الجيد!

لا أدرى إن قلت الاسم اعتباطا، أم أن ذاكرتى نشطت فتذكرت اسمها. أجابنى كل من فى المنزل بصوت واحد: فى صحتها!

التفت على صوت تأوه مكتوم، يصدر عن الطفل الذى لم يكن نائما حقا، بل كان مغمض العينين يتلوى فى ظلام سريره. حضرت سعدية وجلست بجواري، وضعت كفها على خد الصغير، قالت وهى تملأ ما نقص من كأسي: الولد عنده ملاريا.

سألتها: هل أخذتيه للمستشفي؟

دلكت سبابتها وإبهامها كأنها تحسب رزمة من المال، وقالت: من أين؟

وضعت يدى على ساعده الصغير، فأحسست بالحمى وبنبضه يضرب فى عروق يديه. قلت لها: يجب أن تذهبى به للطبيب.

قالت: لماذا لا تفحصه أنت؟ قالوا سافرت ودرست فى بلاد الغربة، كلهم يرجعوا دكاترة من هناك.

استغربت أنها تعرف أخباري. أحسست أن طيف ياسر قد جلس فى مكان ما هنا، وأنه لم يترك قصة عنى إلا ورواها فى غيابي، وربما أن ندماءه من هؤلاء الرجال يعرفون قصة حياتى بأكملها. هممت بدفع المال فرفضت السيدة بشدة. قالت: أنت لك معاملة خاصة، شراب الليلة هدية رجوعك بالسلامة.

قلت لها إن هذا لا يصح، لأن الطفل مريض وهى فى حاجة للمال، ووضعت مبلغا مضاعفا من المال فى يد الصغير ثم خرجت.

صفعتنى الرياح الباردة بعنف إذ عبرت الساحة الكبيرة، وبدأ أثر الكحول يبين قليلا أثناء المشي. أخذت أفكر فى الطفل المتأوه، وسمعت فى صراخ الريح تأوهات زوجتى المتلذذه. شتان بين الأمرين. ضربت أحجار الطريق بأقدامي، وقررت أن أجد ياسراً فى تلك الليلة المشئومة.

قادتنى أقدامى إلى زقاق مظلم ينام على امتداد عرضه قطيع كلاب ضالة. كنت أحس أن طيف ياسر قد مر من هناك قبل دقائق قليلة، وعبر خلال الفرجة الضيقة التى تركها الكلاب للمارة، ليجد نفسه مثلى الآن أمام منزل ذى باب حديدى ضخم، يشغل آخر الزقاق المسدود بأكمله. لابد أن أحد أصدقائه يقطن فى ذاك المنزل، فالمنزل مألوف وأذكر الطريق إليه لأننى مشيته.

طرقت على الباب ففتحت طفلة ذات شعر مجدول ووجه شقي. سألتها: هلا ناديتى صمويل أو بهاء أو محمود أو أى شخص كان؟ ضحكت الطفلة ببلاهة. فحاولت أن أتذاكى معها: نادى لى أخوك؟

— ليس عندى أخوان.

همت الطفلة بإغلاق الباب وقد اكتسى وجهها بالشك. قلت لها: هل هناك أى شخص كبير فى المنزل؟

— أنا كبيرة ..

— نعم، بالتأكيد.

أنقذنى صوت انبعث من قلب المنزل: من فى الباب يا نونه؟

ردت الطفلة وهى تركض فى شقاء للداخل: لا أعرف.

ألقيت السلام بصوت مسموع، ورأيت تكوين فتاة يتقدم نحو الباب نصف الموارب. فتاة ذات ابتسامة غير متسائلة وجسد مكتنز يبين فى انتفاخ فستانها المنزلي. فتحت الباب الموارب، أضاءت لمبة نيون تتشبث بحائط بابها. لم يخف ذهولها عني، كما لم يخف ذهولى عنها حين رأيت وجهها جاثما فى بقعة النور. ذكرى كاملة دفنتها فى فناء عقلى الخلفى قد هبت من سباتها، وصاحت أصوات كثيرة فى داخلي. سلمى!

تجمدت الفتاة فى مكانها لما يقارب الدقيقة، ولم تنبس بكلمة. قلت لها: ألن تدعينى للدخول؟

رأيت دمعة تسيل على خدها. قالت: ما الذى ذكرك بى الآن؟

— لقد عدت البارحة.

— أنت حتى لم تقل وداعا، فقط ذهبت وتركتنا نواجه هذا الجحيم بمفردنا.

— أى جحيم هذا الذى تتحدثين عنه؟

ربما شمت فى تلك اللحظة رائحة الخمر التى تفوح مني؛ لأنها تلفتت واطمأنت أن أحدا لا يرانا فى الشارع، ثم دعتنى للدخول.

جلست بجوارها فى فناء الدار. رائحتها الآن هى نفسها التى حملتها الرياح فى شتاء كهذا قبل سنوات طويلة، يوم وجدت نفسى فى ذلك الحضن الجماعى الحميم والمساء يبنى عشه من حولنا وهمهمة الرياح المبهمة تملأ أذنىَّ. تلك كانت آخر مرة أراها فيها. تذكرت تلك الشهوة المبهمة، وداعبتنى تلك الخواطر المثيره. قاطعت حبل أفكارى سائلة: لماذا ذهبت دون وداع؟

لم أجد ردا مناسبا، فلزمت الصمت.

هاجمتنى بعنف أكثر: لماذا لم تفكر فى الذين أحبوك ووثقوا بك؟

ضحكت بصوت عال وصحت: من؟

— أنا مثلا، أنا.

— أنت أحببتني؟

مالت برأسها قليلا.ثم دفنت ناظريها فى أرض الفناء وقالت: الحديث عن ذلك متأخر جدا، حياتى قد تغيرت كثيرا منذ ذلك الوقت، أنا لم أعد سلمى القديمة، كلنا لم نعد نفس ذلك الإنسان القديم.

سألتها مجددا: أنت أحببتني؟

— ربما كنا صغارا وقتها، لكننا كنا أكبر من أنفسنا أيضا!

دخلت سلمى إلى قلب دارها، وعادت بكتيبات وصحف ولوحات

حائطية. فردتها أمامي، فعرفت فيها أعمالى بعد صعوبة. قالت: لقد تابعت أخبارك وعرفت أنك قد سلكت طريقا أكثر هدوءا، لقد ظللت دوما الأقدر على إحداث تغيير فى حياة الآخرين ... الجميع يعرفك هنا، لقد جعلوا منك شيئا كالأسطورة، لو ذهبت إلى الجامعات ستجد لوحاتك وشعارات الحرية تعلقان جنبا إلى جنب، رجل الشارع العادى يعرفك، لوحاتك على حيطان كل البيوت.

لو أن صاعقة سقطت من السماء على رأسى ما كنت صدمت أكثر. لقد رسمت للناس ألوانا بهيجة، لكنهم أعادوا طباعتها وحبسوها فى الظلال من جديد. التاريخ قد عاد إلى الوراء كأننى ما غدوت ولا جئت. كأن الزمن شيء يسير فى اتجاهين معا. تذكرت رسومات ياسر المكبلة فى أوراق المنشورات دون امتداد أو لون. لقد تضامن الجميع ضدى لأنهم أحبوا ياسراً أكثر، وبرغم ذلك أرادوه أن يموت على قارعة الطريق قبل أن يبلغ الكمال، ربما لهذا يحتضر الآن. فى تلك اللحظة كانت التغيرات أمرا محتملا. أصبحت أنا ياسر وأصبح ياسر أنا. وقد تتحول سلمى بعد قليل إلى كاثرين كما ماتت ألوانى فى ظلال المنشورات وصارت تغرس الحزن لا الأمل فى قلوب الناظرين. نظرت دون تفكير أو وعى إلى سلمي، وقلت لها بكل قلق العالم محمولا على كتفي: لقد ذهبت، لكنهم أعادونى إلى الوراء من جديد.

- من هم هؤلاء؟
- جميعهم، لقد اشتهيت تقبيلك منذ وداعنا الأخير حين احتضنتك.

بان على وجهها نوع من التألم، قالت: أنا أيضا فكرت فى تلك اللحظة كثيرا، لكننى لم أعد سلمى القديمة كما أخبرتك. إن الملاك التى فتحت لك الباب هى ابنتي.

قفزت خارجا من باب دارها وهرولت بعيدا. صاحت سلمى بأعلى

صوتها أن أنتظر، لكننى كنت قد ابتعدت ولم يعد لرجوعى إليها معنى.

كيف تركها ياسر تفلت من بين يديه؟ كيف تغيروا جميعا بعد اعتقالهم على هذا النحو، وحين رجعوا لم يرجعوا حقا. لماذا تركوا أحبتهم واعتزلوا إلى أنفسهم؟

سأجده الليلة وأسأله عن أشياء كثيرة. لابد وأنه يختبئ فى أحد تلك البيوت التى يعرفها ويعرف ناسها. نعم، لعله فى أحد تلك البيوت. فكرت أنه يرقد أيضا فى عراء معسكر مايو المرصع بالنجوم قرب خيمة صديق نازح. مر طيفه وعبر سوق أمدرمان قبل ثوان فتبعته. دخل بيوتا كثيرة فدخلت خلفه. لكن طيفه ظل يراوغنى ويبارح المكان قبل وصولى. آثاره واضحة حيثما حللت، أراها فى كوب شاى لم يكمله، أو عقب سيجارة ألقاها وداسها بحذائه. أراها فى توقع الناس لرؤيتى فاعلم أنه أخبرهم عن سعيى خلفه، وملأ بقصة رجوعى أرجاء المدينة. كانت لوحاتى أسطورة فى المدينة، كنت مهما فى نظر جميع أولئك الناس الطيبين. لكنه لم يكن هناك معهم. لا، لم يكن هناك معهم.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ستجدنى ولو فى آخر نقطة فى العالم!

كان الطريق إلى ذلك المنزل مألوفا. لا لأن الحى يبدو شبيها بباقى أحياء الضواحى الأخرى، بل لأننى مشيته من قبل. الشوارع مظلمة ومياه البالوعات قد فخخت طريقى بالحفر الصغيرة. أخذت أتلفت بين الحين والآخر فلا أرى غير أشباح العابرين فى ظلام الليل. امتدت الميادين الرملية من أمامى إلى ما لا نهاية. ونظرت إلى حذائى فإذا به قد انصقل بلون رملى شاحب. وقفت أمام منزل طينى قديم، بنى بمنأى عن عيون العالم كله كأنه آخر البقاع فيه.

طرقت على بابه الأزرق المموج، فانفتح على إيقاع صرير حاد، وأطلت على امرأة عجوز فى ثوب أبيض، تنحفر بين تجاعيدها حكمة عقود كثيرة. ضمتنى فى حفاوة تبوح بمعرفة قديمة.

أشارت إلى غرفة جانبية فذهبت نحوها على الفور. فتحت الباب فاهتزت على أثر الهواء لمبة من ٢٥ وات على الأكثر، تتدلى من سقف الغرفة المائل بسلك أسود. كان فى الغرفة أسرّة كثيرة كعنابر المستشفيات. وجدت ياسر يرقد متألما على فراش مهترىء. تقدمت نحوه وجلست بجواره على السرير. حملت يده المتراخية، ووضعتها على صدري. هل تحس؟

هز رأسه متفهما: إنه محطم.

ضحكنا فجأة. قلنا فى ذات اللحظة: لقد أخفقنا كثيرا!

زمجرنا بقهقة عظيمة، وشاركتنا الضحك أشباح ترقد أسفل الأسرة الفارغة.

تأوه ياسر: ياه.. هل حقا سأموت مثلهم قبل أن أعيش؟

- الأمر لا يختلف كثيرا. أنا حاولت أن أموت كى أعيش، لكنهم أرادونى أن أعيش كى أموت.

قال أخي: هل هذه أحجية لعينة؟

زمجرنا بالضحك مجددا وضربنا أكف بعضنا البعض.

أشعلنا سيجارة وتناوبنا على تدخينها. جذب ياسر كفى إلى صدره. بماذا تحس؟

- شعور نبيل لكنه عبثي، حزن.

- أحسنت!

مر فى عينيه وميض ثم انطفأ، ابتسم فتمسك بخيط الحياة الرفيع قليلا: هل أحضرته إذن؟

- بالتأكيد.

أخرجت حقن المورفين من جيبي، ضغطت مكابسها قليلا لأتخلص من فقاعات الهواء، ثم رصصتهم بجواره. مد آخى ساعده نحوي: إغرسهم إذن ..

ترددت فزادت آلامه. قال لي: لا تقلق.

ضغط بإحدى يديه على ساعده حتى برز وريده إلى الخارج. مددت الإبرة نحوه بيد مرتجفه. غرستها فى وريده، وضغطت ببطء. أخذ السائل يتسرب ويجرى فى دمه. تسلل بعض الارتياح إلى تقاسيم وجهه. وضعت يدا على قلبه، وأحسست بالمعتقل يزوى كسراب بعيد. أصوات غير مرتبة قلناها فى ليلة الهزيمة الأخيرة، خفتت بغتة ثم ماتت:

مرروا الكهرباء فى جسدى كل يوم، أحسست بالعالم يرجع للوراء، لم يعد فى الدنيا سوى لحظة آلام تمضى قليلا لتعود أعنف، يسافر طنين رأسى فوق غابات غريبة، تتجمع آلام البشر على مر التاريخ فى داخلى ... لا شيء يهم حين نموت!

- مورفين أكثر؟

وقفت على كرسى حبل المشنقة. عيناى لم تبصرا سوى ظلام عصابة سوداء، قدماى ترتجفان ولا تقويان على حملي. قلت لصمويل لا تنهار الآن، سنخرج من هنا، أعدك.

سحبت قطنة من مرتبة السرير، ضغطت الإبرة وأخرجتها، رأسى يضرب نغمة حلوة. ضحكة قاسية أخذت تموت:

كان فى المعتقل رجل خامس يضحك، آلمتنى الضحكة أكثر. لماذا كان اللعين يضحك؟

غرست الحقنة الثانية فى ساعده، وضغطت ببطء. تضاعف عدد الأشباح حتى امتلأت الأسرَة الأخري. تمايلت الأرض تحت المنزل. غاص السرير فى رمال الغرفة. ضغطت مكبس الإبرة بقوة أكثر. احتشدت كلمات أعرف مغزاها:

تلك النار اللعينة فى يد الجلاد

هل تعرف دفء النار فى موقد أمي؟

سرير الموت مهترئ وقديم، وعلى الأسرة الأخرى أشباح بدأت تموت على نحو ما. انزاح سقف الغرفة وأطلت السماء مرصعة بالنجوم. الله جميل.

ضجت الأشباح وتراقصت لهذا الخاطر. اشتعلت عند آخر نقطة فى العالم حفلة، رقصت الأشباح. غرست الإبرة الثالثة فى ساعد أخى ولمست صدره بلطف. صعدت الغرفة بأكملها إلى تلة فى آلاسكا، أحضرت كاثرين حفنة من الثلج، وتحسستها بيداي.

يمكنكم أن تجدوا ذلك الانسجام الرائع فى حياتكم لو أنكم قررتم ذلك!

سقطت جدران الغرفة وزحفت الصحراء والأنهار والغابات إلينا. أمطرت السماء وأثلجت. أشرقت الشمس وأطل القمر. ربما تضيع زوجتى مثل هذه اللحظة الكونية الآن، وهى تعقد مقارنة بينها وبين شيء يماثلها فى الخواء. تخيلتها فى أحضان شريف، ورأيتها فى أوضاع أكثر فحشاً، فبكيت لأجلها. أفرغت المورفين حتى آخر قطرة. أشع ياسر كنجمة، ثم شهق شهقته الأخيرة. رن جرس الهاتف بصفير مكتوم ثم انطفأ ومات. صفقت الأشباح لنا طويلا.

تقدم نحوى حارس قسم الشرطة، ذو النظرة التى جمدتها الوحدة وصقيع يناير. قال بنوع من التشفي: مناوبتى قد انتهت، وماذا عن مناوبتك أنت؟

ابتسمت فى أسى ونظرت إلى ساعتى فى خيط الصباح الأبيض.
قمت من الرصيف بعناء جراء جلوسى الطويل، تقدمت إلى الداخل.

وجدت كاثرين لا تزال على نفس حالتها عند مقاعد الانتظار.

سألتها: ما الأخبار؟

- يجد المحامى صعوبة فى نقله إلى المستشفي.
- ما سبب تعنتهم؟
- لا أدرى فى الحقيقة. ربما لأنه قد هرب فى المرة الأولي، أو لأن حالته ليست حرجة للغاية.

سألتها بعد صمت طويل: ما الذى أحضرك فى منتصف الليل، وجعلك تتصرفين على هذه الطريقة النبيلة؟

فكرت بتمعن ثم قالت: سأصدقك القول، أولا أنا السبب فى كل ما حدث، ثم إننى تيقنت من حبى له يوم التقيتك آخر مرة. هل تصدق أننى كنت أصلى لحدوث معجزة أثبت من خلالها حبى له مرة أخري، لهذا تفاءلت باتصالك عند منتصف الليل وحسبته استجابة لصلواتي.

قلت لها مطمئنا: يملؤنى الآن إيمان عميق أكثر من ذى قبل، أن كل شيء مكسور قابل لأن ينصلح.

رأيت شرطيا يدفع كرسى يعقوب المتحرك، والمحامى يسير جنبا إلى جنب معه بقامته المديدة. ركضت كاثرين نحوه وضمت رأسه. أخذت تبكى وتتأسف على ما فات. رأيته يبتسم فى غموض، وأجزمت أن له هو الآخر صلاة قد أستجيبت فى تلك اللحظة، إذ إن

خطا من السعادة الحقيقية عبر وجهه مرات عديدة وهو يسمعها تردد بعاطفة أصيلة: أرجوك سامحني، أرجوك .. وسأثبت حبى لك ولن أتخلى عنك مهما حدث. سوف أهتم بك وأطعمك وأدللك ولن أدع أى شيء يعكر صفوك. هذه المحنة ستذهب ولن تعود، وسأحرص أن نحب بعضنا مرة أخري.

غمز لى يعقوب عن بعد، فذهبت إليه. أشار بيده فملت مستندا على كرسيه المتحرك وقربت أذنى منه. همس لي: لقد فهمت الآن، ولكن بعد صعوبة... كم كنت محظوظا بصديق رائع مثلك... أعلم أنك قلق علي، لا تقلق، ستشفى كسورى عما قريب وأعود للرسم والحياة مجددا. ستعود الأشياء إلى حالها فى النهاية، ويمشى كل واحد فى الطريق الذى ترتضيه نفسه. لكن، أرجو ألا يكون حكمك على قاسيا بعد كل شيء.

استمهلت الشرطى لأسمع منه المزيد، إلا أنه دفع بكرسيه المتحرك إلى سيارة إسعاف توقفت فى الخارج. أركبوه وسط أجهزة كثيرة، ومسعفين ليس فى حاجة إليهم ثم أغلقوا مصراعى الباب، وانقطعت أصوات من فى داخل العربة. أخذت أراه ويرانى عبر نافذتين بزجاج مجلي. ابتسم لى ابتسامة كبيرة، راضية، مسترسلة. رفع قبضته اليسري، وقرأت شفاهه تقول: سأكون بخير .. ثم مد يده اليمنى بريشة وهمية. تمعن فىّ عميقا، وحرك يديه بحركة دائرية كأنه يرسمنى فى مخيلته. انطلقت صافرات سيارة الإسعاف، ووقفت كشيء يذوب فى مطلع ذلك الصباح الشتوى الهادئ، ألوح بيدىّ لصديق أطل وغاب عن دنياى كالوميض.



وقف بيرسى قرب نافذة غرفتى الضيقة ينظر للخارج. كان شباكى يطل على بناية آخري، تضىء فيها راية إعلان كبيرة، تتسلل أضواؤها إلى غرفتى فى المساء. لطالما تداخلت ألوانها المتلألأه وتلك الجملة الجذابة فى سير أحلامى وكوابيسي.

قال لى بيرسي: لو كانت غرفتك تطل على أى منظر آخر، ربما كنت سأنتقل إليها بعد ذهابك، إن صالتك أوسع قليلا، ومطبخك لا يخر المياه.

إلتفت نحوي، وأضاف: هل حقا ستذهب يا رجل؟

- نعم. لقد فكرت فى الأمر كثيرا. ولكن أعدك يا صديقى أن أواصر صداقتنا لن تنقطع؛ لأننى سأكون على اتصال دائم بك كلما سنحت لى الفرصة.

هز بيرسى رأسه متفهما وكان قد أمطرنى منذ الصباح بسيل من الوصايا، وحين انتبه إلى أن قلقه غير المبرر بدأ يزعجني، قال: أعلم أنك ستخوض تجاربك كالرجال الحقيقيين، أنت رجل حقيقى وهذا شيء أراهن عليه بحياتي.

دمعت عيناه وهو يودعنى عند موقف الحافلات السفرية، ولم أكن قد رأيته يحزن قبل ذلك. ودعنا بعضنا كالأخوة، ومضى كل واحد فى اتجاه. لامست وجهى نسائم شتوية خفيفة، وتحور الموقف فى مخيلتى إلى لوحة رسمها يعقوب لشخصين يفترقان عند تقاطع طريق غير مرئي.

وجدت نفسى بعد رحلة طويلة، واقفا أمام شقة أبى فى نيويورك. أخرجت المفتاح وغرسته فى المزلاج، ثم أدرته عدة مرات حتى انفتح الباب على تفاصيل المنزل. عندها انتابنى ذلك الشعور الغريب الذى ينتاب

من فقدوا شخصا عزيزا، بأنهم سيجدونه لا يزال حيا يرزق فى أمكنة بعينها. تخيلت رائحة أمي، وأغلقت عينىَ لثوان فتخيلتها تتقدم نحوى لتضمني. سيل أفكار مر فى مخيلتي، لأيام كان الزمان فيها أقل جموحا، عشتها فى أركان الحياة بهموم صغيرة ودون ندم.

ألقيت بحقائبى قرب الباب، واتجهت نحو الشرفة. كنت أعرف مسبقا أن أبى يجلس فى الشرفة عند منتصف النهار كل يوم. دخلت إليه فقام من كرسيه بعناء رجل فى الستين وضمنى طويلا، أحسست فى حضنه بالعزلة التى تملأ أرجاء المنزل.

أجلسنى ومضى بخطوات أرشق ممن هم فى سنه إلى المطبخ، ليعد ما عرفت مسبقا أنه سيكون كوب قهوة تركية، بزنجبيل ونصف ملعقة من السكر.

وقفت أقلب فى مكتبته عند غرفة المعيشة، قرب المدفأة. كان قد ضم إليها فى غيابى كل كتب تاريخ السودان وجغرافيته وسير النبى والصحابة، وكل الكتب الأخرى التى ظل يكدسها طوال وجودى معه آملا أن اقرأها. ضحكت أن لكل واحد من تلك الكتب قصة طويلة من الهجر معي. أخذت أقلب بعضا منها فى ضجر. شد نظرى غلاف لكتاب محدد، فعدت إليه مجددا بعد أن تجاوزته بكتابين. كان كتابا عاديا، لا يختلف فى سمكه أو حجمه عن البقيه. لكن غلافه قد شد أنظارى بشكل استثنائي. كانت عليه لوحة مائية، لفتاة جميلة تلوى شفتيها بابتسامة باهته. لم تكن ألوان الفتاة أو ما أحاط بها من تفاصيل كأى صورة عادية، بل أنها ذكرتنى بلوحات يعقوب البهيجة.

حضر أبى يحمل صينية على سطحها كوبان فخاريان، وعلى وجهه ابتسامه. سألنى فى شغف: خمن ماذا أعددت لك؟

- كوب من القهوة التركية مع الزنجبيل، وفيه نصف ملعقة من السكر.
- أصبت مجددا، أنت لا تزال بارعا فى التخمين.

كان يعد لى كوبا مثله فور وصولى فى كل مرة، ولم يتطلب الأمر منى كثيرا من الذكاء. جلس أبى فسحبت الكتاب وحملته بين يداي، ثم جلست على مقربة منه.

قال وهو يرتشف القهوة: أنا سعيد بحضورك اليوم، لقد افتقدتك كثيرا، آخر مرة رأيتك فيها كانت السنة الماضية.

ليست براعتى فى الحديث بلطف بمثل براعتى فى التخمين. أضاف أبى حين لم أرد: فى الحقيقة تقابلنا قبل شهر، لكن السنة الجديدة لم تكن قد أطلت بعد، لذلك أقول السنة الماضية ..

ضحك بعد جملته طويلا وقد استشف فيها فكاهة لم أحس بوجودها، ربما لو كان أصدقاؤه معنا لضحكوا أيضا.

قلت لأبي: كيف هى أحوالك؟

- بخير، الأشياء تسير على نفس المنوال القديم. الفصول قد تغيرت فى أوانها، وفى العمل نفعل نفس الأشياء كل يوم. صمت، وأضاف: مثل هذا الاستقرار مريح لمن هم فى مثل سني.
- من حسن الحظ أنك سعيد.
- لماذا أحس فى صوتك بعض الأسي؟ هل أنت بخير؟
- لا أدرى حقا، لقد جئت اليوم لأننى قد عزمت أمرا، ولم أشأ فعله قبل لقائك.

بان أثر الاهتمام على وجه أبي، وربما لاحظ أيضا غضون الحزم التى بانت بين عينىَّ. حاول أن يبعدنى عن نبرة الأسى تلك، فسألنى باهتمام مماثل: ما الذى تحمله بين يديك يا بني؟

– آه، هذا الكتاب. عماذا يتحدث؟

تعمق اهتمامه أكثر، ربما فرح بحقيقة سؤالى توا عن شيء ذى قيمة. أجابنى على الفور قبل أن أغير رأيي: ليتك لو تتعلم العربية يا بني. إنه كتاب جميل يهز المشاعر، ورغم أن الهدف من ورائه أن يكون بحثا نفسيا، إلا أن طريقة الطرح جعلته يبدو كقصة عميقة.

– ما اسمه؟

كاد أن يرقص فرحا عند هذه النقطة. صاح باللغة الإنجليزية وهو يتناول الكتاب من بين يدي: حيلة الحياة الرائعة!

قلب فى صفحاته قليلا ليستعيد محتواه فى ذهنه، ثم أضاف: إنها تتحدث عن حالة إنسانية مدهشة. تعرض سيرة نفسية لفنان سودانى أحبته فى مصر. إنه كتاب عن الحب!

تجمعت بعض الخيوط، وبدأت لا أستبعد أن تكون الكاتبة إنسانة بعينها. رأيت مشهدا رسمته فى ذهنى من سرد يعقوب يتكرر مجددا. قالت له ياسمين فى وداعهم الأخير: غدا نلتقى فى واقع أجمل. لن أنظر إلى المرآة كثيرا، لكننى سأنظر إلى انعكاسى فى لوحتك لأحس بالتفاؤل، وسأكتب عنك ذات يوم لأنك قد علمتنى معنى الفرح.

أضاف أبي: لهذا الفنان المجهول نفسية غريبه، أكثر ما أدهشنى أنه قد ملك زمام مصيره، بأن ابتكر حيلة تتحقق فيها النهايات بناء على معطيات البداية..

لم تخطئ عيناه الدهشة التى ملأتني. سألنى متعجبا: ما سر

اهتمامك المفاجئ بهذا الكتاب؟ لقد ظل فى مكتبتك منذ ثلاثة أعوام ولم تقربه.

صحت فى لهفة: هل تحدثت عن علاقته بأمه أو أى شيء من هذا القبيل؟

– نعم، هناك فصل كامل عن ذلك.

– هلا ترجمت لى ما قالته أمه على رصيف المحطة قبل أن تغلق عينيها كمن يحتفظ فى ذهنه بمشهد أخير؟

تشوش أبى وأراد أن يسألنى عن معرفتى بالموقف، لكن اللهفة التى دفعت الدماء إلى وجهي، وجعلت قلبى يدق بعنف، جعلته يقلب أوراق الكتاب بلهفة مماثلة، ثم يتوقف عند صفحة محددة، يمد إصبعه ويمرره على بضعة سطور قبل أن يتوقف عند سطر بعينه ويصيح: قالت له أنت ابنى الوحيد! ثم أغلقت عينيها كمن يحتفظ فى ذهنه بمشهد أخير.

هببت واقفا، فهب أبى متوترا، نظرت إليه بعين من الامتنان والدهشة. الآن فقط بدا حديثه عن القدر أمرا ذا معني، فالسر كان فى مكتبتى قبل سنوات ولم آبه لمعرفته. تذكرت قول بيرسي: أبوك أيضا رجل طيب لكنك لا تحس بذلك.

وقف أبى متوترا. وقفة رجل قد جاوز الستين يعيش فى وحدة مطبقة، رجل يهب لصنع فنجان قهوة احتفالا كلما عرجت عليه. رأيت الغضون على وجنتيه وجبهته، فبدت تحمل معنى ومغزي، لم تسكن ذاك الوجه بين ليلة وضحاها، بل خطتها يد الأحزان والتجارب. خطتها آلام وإخفاقات ونهايات مستقرة وضع معطياتها طوال حياته بنفسه. سألته فى تلك اللحظة وفينى رغبة جارفة بأن أنهزم منه ليفوز مرة: هل لى أن أسألك كيف احتفلت بالسنة الجديدة؟

- هذا سؤال لم أتوقعه منك، لطالما كنت مكشوفا أمامك وسهل التنبؤ بتصرفاتي.
- تصورت أمرا فى لحظة السنة الجديدة وأنا أجلس بين أصدقائي، لكننى أود سماعه منك.
- ذهبت إلى حلبة جاز ورقصت وحيدا طوال الليل.

إذن لم يجلس مطمئنا فى المنزل، ولم يصلى أو يقرأ كتابا بجوار المدفأة فى مطلع العام الجديد. لقد رقص وعربد وحيدا، ولم يحس بالاطمئنان يملأ عالمه. مثلى خاف الموت وتسارع الزمن وتغير الظروف. ذلك الشيء المبهم الذى ظل مفقودا بيننا قد انتفى الآن، ورأيته بتجريد، رجل قد تجاوز الستين، حاول طوال عمره أن يجد فينى دافعا للحياة، رجل اغترب واستبدل التفاصيل التى شب عليها بتفاصيل جديدة لم يعهدها. رجل عظيم!

ملت عليه واحتضنته فجأة، حتى شهق من الدهشة. ضمنى بدوره فى قوة من يتمسك بامتداد غير مرئى لحياته. كان احتضاننا لبعضنا حقيقيا، لا يشبه يوم تخرجى من الجامعة أو خروجى من السجن. بل يشبه كفى الذى احتضن كف أمى فى غيبوبتها فى مثل تلك الأيام الأخيرة التى تتفتح عيونك فيها على روعة الأحباب وتعلم أنك ستفقدهم قريبا.

همست فى أذنه: أنا ذاهب إلى السودان اليوم.

رجع إلى الوراء قليلا وبان الاستغراب على وجهه: لكن لماذا الآن؟

- إنه القدر يا أبي. لقد علمنى القدر فى وقت ضئيل أكثر مما تمنيت طوال حياتي. أنتم غرستم جذور الطفولة فى أرض واحدة، بماء واحد، ونظرتم بعيون واحدة. فحين

تفكرون فى نهاية العالم، أظن مكانا بعينه سيتبدى واضحا جليا أمام أعينكم. لعلك ترى مكة، أو ترى القرية وقت الغروب. أما أنا، فقد بنيت معطيات حياتى فى مكان يعنى للكثيرين من الناس النهاية. الآلاف يتراصون فى طوابير السفارات كل يوم للحضور إلى هنا، وآخرون قد تكتمل أهداف حياتهم كلها بصورة فوتوغرافية فى التايم سكويير أو أسفل تمثال الحرية. أنا مدرك لخواء هذه النهاية، وزاهد فى كل ذلك؛ لأن كل ما أريده هو بعض البداية.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

شيء أخير قد تبقي!

كان المحامى مدهشا فى استعداده الدائم للملابسات المفاجئة، فلم يستغرق جرس الهاتف منه أكثر من رنة واحدة ليجيب.

سألنى قبل أن يرد التحية عن صلة قرابتى بيعقوب ليقرر استمرار المكالمة من عدمه. فقلت له وأنا أصعد السلم المتحرك صوب بوابة واسعة بنوافذ كبيرة تطل على مهبط للطائرات، إننا أصدقاء عمر.

قرر عندها أن يدلى بدلوه، فقال: تلك قضية سهلة وصعبة فى نفس الوقت، لكننى واثق من قدرتى على حلها.

– لماذا هى سهلة؟

– لأن سائق السيارة الأخرى قفز قبل الاصطدام ولم يصب سوى ببضع رضوض.

– أين تكمن الصعوبة إذن؟

— فى المستشفي، وجدوا فى دماء موكلى كمية مهولة من الكحول، ووجدوا مادة ثقيلة الأثر بنسبة تكفى لقتل حصان عربي.

— و ما هى تلك المادة؟

قال ببساطة علمية: تسمى المورفين.

لم أصب بالدهشة فى واقع الأمر. بالأحرى أنا أيضا تعاملت مع ما سمعته كحقيقة علمية لا تعدو أن تكون كدفء الثلوج وسيول الصحراء كما وصف يعقوب أكذوبة حياته ذات مرة. واصلت طريقى كأن شيئا لم يمسني. كنت قد صعدت الدرج إلى صالة المغادرة الأخيرة، وتبوأت كرسيا قرب الأنبوب الذى يصلها بباب الطائرة. أخذ صوت ينبع من دواخلى ويحثنى أكثر فأكثر، صوت جعلنى أحس بأننى قادر على إحداث تغيير كامل فى أركان حياتى لو عدت إلى البداية. لم يكن ذلك الصوت قد توقف بعد، لكنه لم يعد غريبا عني. سمعته وأنا أوضب حقيبتى بالملابس والصور، وبشهادة جامعية فى المعمار لم أبنِ بها شيئا بعد.

انفتح الباب فى الوقت المحدد، وسمعت من مكبرات الصوت صوتا يعلن أوان السفر، خطوت خطوتين فى قلب الأنبوب ثم توقفت والتقطت نفسا عميقا. سمعت أصوات خطوات كثيرة لمسافرين دخلوا من خلفي. اقشعر جسدى على صوت مسافر غريب يقول لضابطة التذاكر: سأعود الآن إلى وطني.

أسأءتى ماذا تعلمت من يعقوب وسأقول: أن أنصت لصوت الغرباء كثيرا.

زأرت محركات الطائرة، تسارعت وهزت أجنحتها، ثم ارتفعت

وحلقت فى السماء، واستكانت فى حركة ثابتة. استتب الهدوء فى أرجائى أيضا، وامتلأت بالعزم والتصميم على قرارات كثيرة: سأحس فى عقلى بسلام جميل، وسأنصت لصوت الغريب الذى فى دواخلى كثيرا.. إذ إن لكل واحد منا ياسر يخصه فى هذه الحياة، يرقد فى قبر بعيد ومنسى عند آخر نقطة فى العالم. وكل ما يتوجب على فعله، أن أوقظه من سباته مرة أخرى!

تمت

فبراير ٢٠٠٦ – أغسطس ٢٠٠٧